

اسماعيل العربي

# عواصم بني زيري<sup>٥</sup>

ملوك

اشير • القلعة • بجاية • غرناطة • المهدية

(وفي آخر الكتاب ببليوغرافيا شاملة  
عن دول بني زيري)

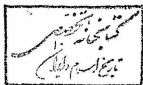


دار الراسد العربي  
بيروت - لبنان

## عواصم بني زيري ملوك

اشير - القلعة - بجاية - غرناطة - المهدية





# عواصم بني زيري ملوك

اشير - القلعة - بجاية - غرناطة - المهدية

(وفي آخر الكتاب بيبليوغرافيا شاملة عن دول بني  
زيري)



دار الراصد العربي  
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى

١٩٨٤ — ١٤٠٤

دار الراصد العربي - بيروت - لبنان  
ص.ب: ٦٥٨٥ - تلکس: LE٤٣٤٩٩ راصد

## المقدمة

تمتد أراضي صنهاجة (أزناجة التي يذهب بعض الكتاب إلى أن اسم السنيغال مشتق من اسم هذه القبيلة) التي كان الزيرون أبرز أفخاذها، في المناطق الواقعة في شرق الجزائر، على الشمال الشرقي لخط يمتد من جبال أوراس حتى تنس، وتشكل بلاد زواوة، على حد قول ابن خلدون، الحدود التي تفصل بين صنهاجة وكتامة.

وقد اتسعت أراضي القبيلة الأصلية (أي قبل أن تصبح دولاً) في الاتجاه الغربي تدريجياً بعدما طردوا مغراوة وغيرها من فروع زناتة من الأراضي الواقعة على ضفاف وادي شلف. وهؤلاء هم صنهاجة التل.

والفرع الآخر لقبيل صنهاجة يعيش في الجنوب الغربي للمغرب الأقصى على شواطئ المحيط الأطلسي وتشمل أراضي موريطانيا والصحراء الغربية (الإسبانية سابقاً) وجزءاً مهماً من السنيغال، هذا عدا الأراضي التي احتلوها أثناء الترحال والهجرة في المناطق المجاورة. وهؤلاء هم صنهاجة الصحراء الذين انحدر منهم الملمشون الذين شيدوا أمبراطورية المرابطين.

وعلى عكس إخوانهم صنهاجة الغرب الذين كانوا يجوبون القفار مستخدمين الجمال في تنقلهم ويعيشون على الرعي والصيد، فإن صنهاجة الشمال

كانوا يعيشون حياة مماثلة لحياة جيرانهم، كتامة وزاوة تعتمد على الزراعة والرعي ويسودها الاستقرار، ولو اننا لا نعرف لها مدناً خاصة بها قبل أن تبرز دولها الثلاث من المغرب والأندلس. وقد كانت صنهاجة لتل تستخدم الخيل في الحدود التي تسمح بها طبيعة الأرض، ولكنها لم تكتشف قيمة الفرس كأداة للسلطان والسيطرة إلا بعد ما شيدت المدن ونظمت الجيوش، أي بعد بناء أشير.

ونواة الحضارة الأولى كانت متوفرة لدى صنهاجة التل قبل هذه المرحلة. فقد كانت لها قرى وأسواق بقصدها الناس في مختلف مناطقها يقصدها الناس مرة في الأسبوع لبيع منتجاتهم ولشراء الأسلحة والأدوات والأواني والثياب الخ.. وللملاقة صناع السروج وتجار التوابل، على غرار ما يجري به العمل اليوم في بلاد القبائل.

وأهم المدن التي كانت تتردد عليها صنهاجة في المغرب الأوسط قبل بناء أشير، هي الجزائر ومليانة والمدينة وسوق حزة (البويرة حالياً) وذلك قبل أن يقوم زيري بن مناد بتجديد مليانة والجزائر اللتين يمكن اعتبارهما مدينتين زيريتين بحق، ولو انهما لم تكونا قط من عواصمهم.

وقد اختفى اسم صنهاجة في المغرب الأوسط في وقت لا نستطيع تحديده، ولو أن بعض أفخاذ القبيلة، مثل ونوغة وبني مليكش التي يعتقد انها من فروعها، لا تزال موجودة حتى اليوم وتعتصم بجبال بلاد القبائل الكبرى.

والصفحات التي نقدمها في هذا الكتاب تعالج مرحلة تطور فيها نفوذ صنهاجة بزعامة بني مناد، وتفتقت فيها عبقريتها السياسية التي تبلورت إلى مراكز حضارية زاخرة بالعلوم والفنون وتمثل المساهمة الكبرى التي قدمها المغرب في الحضارة الإنسانية.

## بنو زيري بين أشير والقيروان

عرف مناد بن منقوش بين قبيلة صنهاجة بكثرة المال والبنين، وكان معطاء مضيافاً شاع ذكره واشتهر اسمه عند الناس .

وكان لمناد مسجد يأوي اليه عابرو السبيل، فاذا خرج مناد للصلاة سلم على من يحل بالمسجد من الضيوف ودعاهم الى داره ليكرمهم ويزودهم عند الانصراف .

يقول النويري صاحب نهاية الأدب، إن مناداً أبلغ ذات يوم أن في مسجده رجلاً غريباً وصل وقت صلاة الظهر، عائداً من الحج، فسارع الى لقائه وسأله عن أحواله ومن أين أقبل . فقال له الرجل إنه من أهل المغرب وصل من الحج، وخرج عليه لصوص وأخذوا ما كان معه، فانقطع عن أصحابه . ولما سمع بمناد وبإحسانه لأبناء السبيل قصده ليعينه على الوصول إلى أهله .

فقال له مناد: وصلت فأبشر بالخير . ثم مضى به الى منزله فأطعمه ونام، ثم أمر بشاة فذبحت وعمل له طعاماً ثانياً أحضر اليه فأكل منه، ثم نظر الى كتف الشاة وأخذه وراح ينظر فيه تارة وينظر الى مناد تارة أخرى، في تعجب . فقال له مناد: لأي شيء تنظر في الكتف وتنظر الي ؟ فقال الغريب: لا لشيء . فعزم مناد عليه أن يخبره مم يتعجب منه .

فقال الغريب: ألك امرأة حامل؟ فقال مناد: بلى.

قال: فلك منها أولاد؟ قال: لا، ولكن من غيرها: قال: فأعرضهم علي.  
فعرض مناد على الغريب أولاده، ثم قال له: ألك غير هؤلاء؟

فقال مناد: ليس لي ذكر إلا من رأيتهم. قال: احتفظ بالمرأة الحامل.  
فوالله لتلدن ولداً يملك المغرب جميعه ويملك بنوه من بعده.

ورد مناد على الغريب بما معناه انه وجد من تنبأ لأسلافه بهذا من قبل.

وتمضي الرواية فتقول: إن زوجة مناد وضعت حملها فجاء ذكراً وسماه أبوه  
زيري<sup>(1)</sup>.

تلك هي قصة مولد زيري أو ان شئت مولد الدولة الزيرية في المغرب.  
وهي قصة لا بد وأن يكون لها حظ من الرواج والانتشار في الأوساط  
المحيطة بأسرة مناد، حيث تدعم مكانة الأسرة بين تلكاته صنهاجة عموماً  
وتجعل من زيري الزعيم المنتظر والقائد الطبيعي الذي سيقوم بالدور الذي قام  
به فيما بعد.

وفيما عدا هذه القصة وحواشيها، فإن المصادر التي بين أيدينا لا تذكر  
شيئاً عن سيرة مناد ولا عن أي دور سياسي أو عسكري قام به - هذا إذا  
استثنينا إشارة غامضة أوردتها بعض المؤرخين المغاربة وردد صداها ابن  
خلدون، مؤداها أن مناداً كان والياً للعباسيين من قبل الأغالبة، على المغرب  
الأوسط، وهي قصة أخرى لا بد من تلقيها بكل تحفظ.

---

(1) النوري ص 233. تجدر الإشارة الى أن رواية النوري والمعلومات التي تتصل ببني زيري قد  
استقاها من عز الدين بن محمد عبدالعزيز ابن شداد بن الأمير نجم بن المعز بن باديس في  
تاريخه المعنون بالجمع والبيان في أخبار المغرب والقيروان، وهو كتاب مفقود.

## زيري بن مناد .

يجمع الرواة على أن زيري بن مناد كان يلفت الأنظار في صباه بجبال الطلعة وحسن البنية والنضوج المبكر، بحيث كان يبدو، وهو لا يتجاوز العاشرة من العمر، في سن العشرين. وكذلك أبدى زيري منذ نعومة أظفاره ميلاً الى المغامرة والقيام بدور الرائد بين أقرانه، فكان يركب عموداً من الخشب ويتقدم زملاءه في اللعب ليخوض بهم معارك وهمية .

وهذا الميل تطور لما أصبح يافعاً، الى حب المنازلة والعراك . فكان زيري يجمع أصحابه ويسير على رأسهم للقيام بغارات في أراضي زناتة فيقتل وينهب كأبي قاطع طريق عادي، ويعود مثقلاً بالغنائم التي يتقاسمها مع رفقاءه دون أن يميز نفسه عنهم بشيء .

وكذلك اشتهر في محيطه بالشجاعة والإقدام والإنصاف وبحسن معاملة الناس .

ولكن الشهرة كانت دائماً عنوان الحسد . ولو اقتنع زيري بما ورثه عن أبيه من كرم المحتد والثروة، لكان من المرجح أن يغفر له خصومه شهرته . ولكن زيري أبى إلا أن يجعل لنفسه صفات أخرى من مؤهلات الرئاسة والزعامة - الأمر الذي سيثير عليه الكثيرين بين تلكاته وغيرها من فروع صنهاجة التي كانت تطمح في أن يكون « القائم » فيها<sup>(2)</sup> .

وكذلك وجد زيري نفسه منذ المراحل الأولى من زعامته أمام معارضة قوية من عناصر من صنهاجة دخلت في معارك عديدة معه ولكنه ظفر بهم، بعد ما عمل فيهم قتلاً وسبياً .

---

(2) قارن التويري، ص 231-232 ، والكامل 468 ، وفيات الأعيان 343/3-344 ، أعمال الاعلام،

ولما بلغت أخبار هذه المعارك زعماء زناتة كاتبوا من خالف زيري من صنهاجة، وحالفوهم على حرب زيري. على أن زيري لم يترك الوقت الضروري لأعدائه ليستكملوا استعدادهم، فخرج على رأس جيش تحت ستار الليل، وضرب على زناتة بأرض مغيلة فشتت جموعهم وسبى وقتل منهم رؤساء كثيرين ثم رجع الى جبل تيتري مثقلاً بالغنائم وأخذ من خيلهم ثلاثمائة فرس وزعها على أصحابه (3).

وقد شاع خبر هذه المعركة وتسامع الناس بها في مختلف أنحاء المغرب فاستهالوه وعظم أمره واجتمع اليه خلق كثير ضاق بهم المتسع وقالوا له لو رأيت مكاناً أوسع من مكاننا هذا.

وبعد رسوخ زعامته واعتراف معظم فروع صنهاجة به، أخذ زيري يفكر في بناء مدينة يدير منها شئون القبيلة وتكون مقراً لحكمه.

### بناء مدينة أشير

قبل أن نتعرض لذكر بناء مدينة أشير والدور الذي ستلعبه هذه المدينة في المغرب الأوسط، يجدر بنا أولاً، أن نكرس فقرة للظروف السياسية التي ظهرت فيها عاصمة بني زيري الأولى في المغرب الأوسط.

كانت سلطة العبيدين نظرياً تمتد على جميع الأراضي التي يشملها حكم الأغالبة، بعد أن قوض عبيدالله المهدي ملكهم في سنة 296 هـ. (909 م). على أن سلطان الفاطميين كان ضعيفاً خصوصاً في مركزين مهمين في المغرب الأوسط، وهما تيهرت وسجلماسة، المدينتين اللتين ظل سكانها على مذهب الخوارج ويناوئون العقيدة الشيعية.

وأما في المغرب الأقصى، فقد كانت الحالة السياسية شديدة الاضطراب،

---

(3) التويري، نفس المصدر.

حيث كانت المعارك لا تكاد تنقطع بين أمراء الادارسة الذين كانت سلطة معظمهم، على كل حال، تنحصر في المدن.

وكذلك اتجه الفاطميون بكل قوتهم، مستعينين بقبيلة مكناسة، من فروع زناتة)، للقضاء على الادارسة الذين كانوا يدينون بالولاء لبني أمية. ولكنهم بعدما أحرزوا انتصارات مهمة، واجه الفاطميون وحلفاؤهم مقاومة لا هودة فيها من قبيلة مغراوة التي كان يتزعمها محمد بن خزر<sup>(4)</sup>. ومما يزيد من خطورة شأن هذه المقاومة، الموقع الجغرافي الذي تحتله هذه القبيلة، بين تلمسان وشلف، والذي يفصل بين المغرب الأقصى والمغرب الأوسط.

وقد أدرك أبو القاسم عبيدالله مدى الخطر الذي يهدد أمباطوريته نتيجة لهذا الوضع، فخرج في سنة 315-316 هـ. على رأس جيش من كتامة الى المغرب الأوسط وزحف على مغراوة فهزمها ودفع بجموعها الى الصحراء ثم احتل تيهرت.

وبعد مناوشات وحركات استفزاز للأدارسة في المغرب الأقصى استنتج القائد الفاطمي أن سلطة حلفائه، وفي مقدمتهم مكناسة، وعلى رأسها موسى ابن أبي العافية، لا تزال قوية، فترك الوضع على ما هو عليه.

وفي سنة 316 هـ. تولى عبدالرحمن الثالث الخلافة في قرطبة واتخذ لنفسه لقب الناصر لدين الله، وهو لقب يدل بوضوح على نية الخليفة الأموي السني وعزمه على مناهضة الشيعيين.

وقد تبلورت هذه النية الى أعمال لتوسيع نفوذ الأمويين في المغرب، خصوصاً باستيلاء قوات قرطبة على سبتة في سنة 319 (وأما مليلة فكانوا يحتلوها منذ سنة 314)، وباعلان موسى بن أبي العافية الخروج على الفاطميين

(4) يحدد الادريسي امتداد أراضي مغراوة وبعض القبائل التي تنفر عن زناتة بين تلمسان وتاهرت (صفة المغرب، ص 88).

والدخول في طاعة الأمويين. وقد حذا حذوه محمد بن خزر ومغراوة وبني يفرن، ولو أن مكناسة ظلت على ولائها للفاطميين. ولما توفي عبيدالله المهدي<sup>(5)</sup> في سنة 322 هـ (934 م)، كانت معظم المناطق الجنوبية في المغرب الأقصى ومساحات شاسعة من المغرب الأوسط تتمتع بحماية الأمويين الذين أصبح نفوذهم، بعد انضمام مغراوة اليهم، يمتد حتى ضفاف نهر شلف الغربية.

وفي سنة 323 هـ، قام الفاطميون بحركة كان يبدو أنها خليقة بأن تعيد الأمن الى نصابه وتؤدي الى استقرار نفوذهم في المناطق الغربية من أمبراطوريتهم.

ولكن تقويض مصالحة بن حبوس لسلطان الأدارسة الذين دفع بفلولهم الى حجر النسر في الريف وإلقاء القبض على أحمد بن سهل الجدامي والي فاس وإرساله مكبلاً الى المهديّة، ثم تشتيت جوع موسى بن أبي العافية في الصحراء<sup>(6)</sup>، لم تكن إلا انتصارات في معارك منفصلة في الحرب الطويلة المضنية التي كان الفاطميون يخوضون غمارها. وقد دلت الحوادث على أن الأدارسة إنما التجأوا الى حجر النسر<sup>(7)</sup> لضمّد جراحهم وأنهم لم يكونوا

---

(5) عبيدالله بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق الفاطمي العلوي (وقيل في نسبه غير ذلك) مؤسس دولة الفاطميين بالمغرب. (راجع سيرته ونسبه وسياسته في: الكامل 90/8، العبر 4/11، والحلة السراء 190-194، إتماظ الحنفا، ص17، وفيات الأعيان 117/3-119، أعمال الأعلام، ص22).

(6) قارن كتاب الاستقصا 81/1، والبيان 297/1.

(7) حجر النسر قلعة بالريف من أرض غماره بناها ابراهيم بن محمد بن قاسم بن ادريس الثاني في سنة 317 هـ (929-930). والقلعة تقع على مسيرة ثلاثة أيام من سبتة على قمة جبل وعمر يرقى اليها بممر ضيق لا يتسع إلا لشخص واحد في وقت واحد وهذا الموقع لم يمكن التعرف عليه على وجه التدقيق، ولو أن البيانات التي جمعها الباحث موليرا Moulieras في كتابه، المغرب المجهول، تدل على أن أطلال القلعة ما تزال قائمة على قمة جبل أحمر شاقق =

ينتظرون سوى ربح طيبة لكي يبحروا من جديد في نضالهم القديم، وان نفوذ آل ابن أبي العافية سيظل شوكة خطيرة في جنب الفاطميين ما بقوا في المغرب.

والحقيقة ان الأدارة وابن أبي العافية وغيرهم من عناصر الاضطراب في هذه المنطقة، لم يكونوا سوى قطع صغيرة في رقعة الشطرنج التي كانت المبارزة فيها بين الفاطميين والأمويين الذين كانوا يغذون الثورات ويستميلون الولاة ويشجعون أهل السنة على الوقوف في وجه الشيعة<sup>(8)</sup>. وكذلك كان من الواضح انه يتحتم على الفاطميين إذا أرادوا إقرار سلطانهم نهائياً في هذا الجزء من إمبراطوريتهم أن يقضوا على الأمويين أولاً. وهذا شيء لم يكن في خططهم، حيث ان سياستهم تستهدف التوغل الى المشرق وليس نحو الأندلس.

ولكن الحالة في الشرق لم تكن أحسن من الحالة في الغرب. فقد اتضح أن قلب سلطان الأغالبة كان أيسر على الفاطميين من التغلب على مقاومة أهل السنة الذين كانت عقيدتهم تعصم بالقيروان وكذلك كان المهدي غير مستريح في هذه المدينة، بل وحتى في رقادة.

على أن الخطر الجدي الذي ستواجهه الإمبراطورية في الشرق، في افريقية، هو الذي نجم عن ثورة أبي يزيد<sup>(9)</sup> مخلد بن كيداد الزناتي الخارجي

---

= في ناحية جبال مجبر (قارن: ما ذكره البكري، ص119، والادريسي، ص96، وابن جوقل، ص56. وكل من ابن عذارى وابن خلدون وصاحب روض القرطاس في عدة أماكن، وكذلك ما كتبه Salmon, Essai sur l'Histoire politique du Maroc, Archives marocains,

(8) راجع بشأن توغل النفوذ الأموي في المغرب في هذه الفترة، الاستقصا 85/1.  
(9) نشأ أبو يزيد في مدينة توزر، قاعدة بلاد الجريد، وهو ينتمي الى قبيلة زناتة. وقد اعتنق مذهب الخوارج الذي يدين بتكفير المسلمين واستباحة أموالهم. وكان أبو يزيد في أول =

التي بلغت أوجها عندما استولى على القيروان في سنة 333 هـ.، وشرع في حصار المهديّة.

ومن جهة أخرى، فإن صنهاجة التي التزمت موقف الحياد، ان لم نقل العزلة، تجاه الأحداث الخطيرة التي كانت تهز المغرب منذ ظهور دعوة العبيدين، قد تيقظت الآن وأصبح اهتمامها بعد ما تولى زيري زعامتها، يتجاوز النضال التقليدي بين هذه القبيلة وبين زناتة. وبالتالي، فقد كانت في حاجة الى قاعدة تركز فيها نفوذها. فإن الانتصار في معركة سرعان ما يزول أثره السياسي، والجيشو تتبدد في الفضاء بمجرد ما ينتهي تقسيم الغنائم والاسلاب. ولكن وجود كرسي للحكم ونواة جيش، أو حرس دائم، وما يتبع ذلك من استتباب الأمن والاستقرار الاجتماعي أمور من شأنها أن تضمن استمرار أثر الانتصارات العسكرية وتعزيز شوكة الزعامة في القبيلة.

كذلك نجد أن مصلحة الفاطميين في قيام قاعدة لقبيلة قوية، مثل صنهاجة، يمكنهم أن يركزوا عليها لضمان استقرار حكمهم في المغرب الأوسط، كانت تتفق في الظروف التاريخية التي قامت فيها أشير، مع مصلحة صنهاجة وخصوصاً مع مطامح زعيمها، زيري بن مناد.

ومهما يكن من شيء، فقد قرر زيري بناء أشير في أيام القائم بأمر الله في سنة 324 هـ<sup>(10)</sup> ثم أمر باحضار البنائين والنجارين من سوق حمزة (البويرة)

---

= الأمر معلم صبيان بتنقوس حيث كان ينشر آراءه، ثم دعا لنفسه في قرية الرمانية التي تقع تحت جبل أوراس في سنة 317 هـ. وكان أبو يزيد يركب الحمار ويلبس الصوف ويتسمى بشيخ المؤمنين وقد وقع في يد المنصور في سنة 336 وأمر الأخير بسلخه وحشي جلده قطعاً. راجع سيرته وأخباره في العبر 40/4 - 44، وفيات الأعيان 343/2، البيان المغرب 93/1 و216، اتعاظ الخنفاء 109، النجوم الزاهرة 287/3.

(10) ولد محمد بن عبيدالله، أبو القاسم، القائم بن المهدي العبيدي (القائم) في سلمية بسوريا ونشأ بها. ولما استقر الملك لأبيه في المغرب جهزه في حلتين الى مصر، ولكنه لم ينجح في احتلالها =

والمسيلة وطبنة، وبعث الى القائم بأمر الله في طلب صناع (مما يدل على وجود صلة غير عادية بين أسرة مناد وبلاط القيروان)، فبعث اليه بمهندس معماري يقال انه لم يكن في إفريقية أعلم منه<sup>(11)</sup>.

وكذلك مده الخليفة الفاطمي بمواد البناء غير المتوفرة لديه مثل الحديد الخ..

وإثر ذلك شرع زيري بن مناد في بناء المدينة وواصل العمل فيها حتى أتمها ثم خرج الى طبنة والمسيلة وسوق حمزة، فنقل منها وجوه الناس الى المدينة الجديدة فعمرت<sup>(12)</sup>.

بنيت أشير على قمة جبل يبلغ ارتفاعها حوالي 1400 متر عن مستوى البحر - وهي أعلى قلل الجبل (الكاف) الأخضر<sup>(13)</sup>. وهذه المدينة التي تشرف على سهول التل الغربية ومنطقة بلاد القبائل الشرقية ذات موقع منع، وصفه البكري بأنه «ليس في تلك الأقطار أحصن منها ولا أبعد متناولاً

---

= فعاد الى المغرب. وهو ثاني ملوك الفاطميين وأول من تلقب بأمر المؤمنين. مات محاصراً بالمهدية (راجع سيرته في وفيات الأعيان 27/2، والنجوم الزاهرة 287/3).

(11) النويري، المصدر المذكور.

(12) يشك بعض الكتاب في أن يكون زيري هو باني مدينة أشير. ولكن المصادر الوثيقة شبه

مجعة على ذلك. والأبيات التالية (وهي لعبد الملك بن عيشون) شاهد مهم في هذا السياق:

يا أيها السائل عن حريتنا	وئمن محل الكفر أشير
عن دار فق ظالم أهلها	قد شددت للكفر والزور
أسها الملعون زيرها	فلعن الله على زيري

(13) يمتد الجبل الأخضر على شكل حرف اللام من الشرق الى الغرب، وهو جبل صخري

متوسط الارتفاع. ويجري عند سفوح الجبل وادي حرزه، أحد روافد نهر الأيسر. وكان هذا الجبل يدعى في عصر ابن خلدون تيظري. وهذه التسمية لا تزال موجودة بتحريف (تيتري) ولكنها تطلق على منطقة بأسرها، وهي التي كانت تشكل في عهد الأتراك «البابلك» الذي قاعدته مدينة لمدينة.

ومراماً ولا يوصل الى شيء منها بقتال إلا من موضع يكفي لحمايته عشرة رجال، وهو في شرقيها» (14).

ومع ذلك، فإن هذا الموقع العسير الممتاز ينطوي على عيوب من الناحية الاستراتيجية. وأهم هذه العيوب أن المدينة التي تشرف على سهول شاسعة تسرح وتمرح فيها زناتة عرضة لضغط هذه القبيلة وتهديدها بقطع طرق القوافل عليها، ومنع وصول المؤن اليها (كما سيصنع العرب لمدينة القلعة فيما بعد). ولكن عيب موضع أشير الرئيسي، هو أنها مدينة منعزلة، إذا كانت تصلح قاعدة لقبيلة صنهاجة، فهي لا يمكن أن تكون عاصمة وقاعدة للدفاع منها عن المغرب الأوسط. والمراكز الوحيدة التي تقع بين أشير ومنطقة الزاب التي تأتي منها حشود العدو التقليدي، هي المسيلة (وهي مدينة من الصعب تنظيم الدفاع عنها حيث إنها تقع في سهل) (15) وسوق حمزة التي تقع هي الأخرى في سهل، متوغلة في أرض صنهاجة بحيث يكون العدو قد استولى على مساحات معتبرة من أراضي القبيلة، متى وصل اليها (16).

وتقع أشير على الطريق التي تصعد ملتوية بين سفوح الجبال على مسافة 92 كيلو متراً في الجنوب الشرقي لمدينة الجزائر وتحت خط طولها تقريباً.

وهذه الطريق هي التي يسايرها خط السكة الحديدية الذي يربط الجزائر

---

(14) قارن البكري، ص 60، والنويري، ص 232، ومعجم البلدان 1/286-287، والعبر 6/153 والادريسي ص 85.

(15) كان علي بن حدون المعروف بالأندلسي والذي كان أول من تولى امرة الزاب من قبل الفاطميين هماً الذي قام ببناء المسيلة في سنة 315 هـ (927-928)، واستعمله القائم عليها الى أن هلك في فتنة أبي يزيد الخارجي (راجع مدينة المسيلة في كتابنا: المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي، وكذلك العبر 4/82، البيان المغرب 2/242-244، أعمال الأعلام ص 60-62، الحلة السراء 1/305-306-307 و 50/2).

(16) راجع: Golvin, Le Maghreb central, p. 100.

بلمدية وقصر بوخاري، وتشغل عاصمة صنهاجة الأولى مساحة سعتها 53 هكتاراً (86 فداناً). من الأرض التي تجري فيها عينان بماء عذب .

ومدينة أشير عبارة عن ثلاث مدن منفصلة، كانت الغربية منها (وهي التي تقع قرب العين المعروفة الآن بعين « يوسف ») تسمى « منزه بنت السلطان » (16)

وأما المدينتان الشرقيتان، فهما « يشير » و « بنية ». وفي هذه المدينة الأخيرة كان يقوم مسجد أشير الذي لا يزال واضح المعالم بين آثار المدينة (17).

وآسم أشير لا يزال يطلق الى الآن بين الأهالي، مع تحريف يسير على منبع - عين يشير - ينصب في واد مجاور للمدينة (18).

---

(16) (مكرر) - نفس المصدر.

(17) لا يزال محراب المسجد وحيطانه المبنية بأحجار كبيرة مربعة - مثل سائر المباني التي بقيت آثارها في المدينة - قائماً حتى اليوم، ولكن موقع منارة المسجد غير معروف، كما أنه لا يوجد ما يدل على وجود صحن خلف المصلى. والمصلى نفسه تقسمه ستة صفوف من السواري في كل صف أربع سواري. وكذلك توجد آثار تدل على موقع مقصورة الأمير بجانب المحراب. (راجع نفس المصدر).

(18) كان الكاتب الفرنسي بربروجر Berbrugger الذي رافق الحملة الفرنسية الى الجزائر، هو أول من تعرف على مدينة أشير في خرائب الجبل الأخضر. وقد قام الكاتب بزيارة لدراسة آثار أشير في سنة 1852. وأعلن هذا الاكتشاف في مقال نشرته المجلة الافريقية La revue africaine التي كان يتولى تحريرها (مجلد 13 ص116). وقد نقل العلامة دوسلان ما كتبه بربروجر عن أشير وضمنه ترجمته الفرنسية لكتاب دول البربر لابن خلدون (طبع الجزائر 490/2).

وفي سنة 1922 قام جورج مارسى G. Marçais الأستاذ بجامعة الجزائر آنذ، بزيارة أشير وبكتابة دراسة قيمة عن خرائب هذه المدينة نشرها في المجلة المذكورة في نفس السنة (المجلد 63 ص222) وقد تعرف مارسى، فيما تعرف عليه في المدينة، على العينين اللتين ذكرهما البكري والنويري، وتحمل أحدهما الآن اسم « عين بحيرة، والثانية عين بنه راجع عدا ما تقدم:

وبعد تجهيز المدينة وتعميرها، امتلأت بالعلماء والفقهاء<sup>(19)</sup> والتجار وتسامع الناس بها في مختلف أنحاء العالم الاسلامي. ونظراً لتقلص النفوذ الفاطمي على هذه المنطقة، فقد كان الناس فيها لا يتعاملون بالنقود، بل كانوا يبيعون ويشتررون بالمقايضة وعلى أساس البقرة والبعر والشاة وكذلك عمدة زيري (وربما كان ذلك بناء على اتفاق مع الفاطميين) الى ضرب السكة، وبسط العطاء في الجند وجعل لهم الأرزاق، فكثرت الدنانير والدراهم في أيدي الناس واطمأنت نفوس أهل البادية.

وفي هذه الأثناء اتجه زيري الى تنظيم جيشه والى إقرار الأمن وحماية المنطقة في المرحلة الأولى، ثم الى مواجهة زناتة في حرب شبه متصلة بعد ذلك<sup>(20)</sup>.

ولكنه يبدو أن المعارك الأولى التي وقعت بين زناتة وصنهاجة بقيادة زيري، في هذه المرحلة، لم تكن خطيرة الشأن وأن انتصارات زيري كانت قليلة التكاليف نسبياً، بفضل استعداداته العسكرية وتنظيمه الاقتصادي، لأن المؤرخين يكتفون بالإشارة إليها ويركزون الحديث على أعمال زيري لتنظيم صنهاجة وتدعيم نفوذها.

وفي فترة ثانية ولى زيري أخاه ماكسن بن مناد على أشير ثم خرج هو على

---

Gsell (St), Atlas de l'Algérie, feuille 23, N° 82-83; F. Gautier, le passé de l'Afrique du Nord, p. 345-348; Ch-André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, II 66-68.

(19) من بين رجال الحديث والفقهاء الذين ينسبون الى أشير، نذكر الشيخ أبا محمد الأشيري إمام حلب والشام عامة. فقد استدعاه الوزير عون الدين أبو المظفر يحيى بن هبيرة وزير المفتي، فقربه اليه وأكرم وفادته. وكان الشيخ الأشيري يقيم عند العادل نورالدين محمود بن زنكي. وقد توفي أبو محمد في بعلبك سنة 561 هـ (1165 م). راجع سيرته في التكملة لابن الأبار 917-918، معجم البلدان (مادة أشير) تاريخ الجزائر العام 1/399-400.

(20) النويري، ص 233.

رأس جيش الى المغرب حتى وصل الى جراوة حيث لقيه زعيمها، موسى بن أبي العافية الذي كان والياً عليها من قبل عبدالرحمن الأموي، صاحب قرطبة، وقدم اليه هدايا وجواري، وقال له: «يا مولاي، إنما استعملت نفسي لبني أمية لأرهب بهم على زناتة. وإذ قد أتاني الله بك وجمع بيني وبينك، فأنا عبدك ومنقطع اليك وعونك. أنت مني قريب، وسيف قريب مني أمنع من سيف بعيد عني» فقربه زيري وأدناه وقال له: أكتب لي بما يعن لك، فأنا أمدك بالعساكر متى أردت. فشكا اليه موسى بن أبي العافية من غمارة وقال له إنهم قوم على غير مذهب يبيحون المحارم. وقام فيهم رجل يدعي النبوة وسننا من المنكرات<sup>(21)</sup> فرحل زيري الى غمارة وصحبه موسى بن أبي العافية<sup>(22)</sup> فأوقع بهم وأخذ الشخص الذي يدعي النبوة فوصل به الى أشير وجمع عليه الفقهاء الذين دخلوا معه في حوار على المنوال التالي:

- إن كنت نبياً فما علامة نبوتك؟

- اسمي في القرآن.

- ما اسمك؟

- اسمي حم واسم أبي من الله. وفي القرآن حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم.

(21) نفس المصدر.

(22) موسى بن أبي العافية بن أبي بسال بن أبي الضحاك المكنسي، مؤسس الدولة المكناسية التي تحمل أيضاً اسم أبي العافية. كان أميراً على مكناسة حتى عقد له ابن عمه مصالة بن حبوس على ضواحي المغرب في سنة 305 هـ (917-918 م)، بالإضافة الى تاسول وتازا وكريسيف التي كانت أيضاً في يده. وقد أقره عبدالله المهدي على ذلك وامتد ملكه نحو الشرق حتى تلمسان (319 هـ) وتيهرت. وبعدما نقض دعوة العبيدين قتل في صحارى قلوية في سنة 341 هـ. (راجع: البيان المغرب 1/194، 199، 201، 202، 209، 213، 214، العبر 134/6، والاستقصا 80/1).

وإثر ذلك أباح الفقهاء قتله، فقتل .

وهكذا تضافرت مجموعة من الظروف لتجعل من أشير أكثر من قلعة دفاعية، مركزاً لنفوذ قوة سياسية جديدة في المغرب الأوسط تركز على تنظيم صفوف صنهاجة. وعلى تأييد الفاطميين الذين وجدوا فيها وسيلة فعالة لإعادة الاستقرار والأمن الى ولايات الامبراطورية الغربية.

وليس من شك في أن القيروان كانت في أشد الحاجة الى العمليات التي قام بها زيري والتي كان من أبرز نتائجها دحر قبيلة زناتة ومناوأة الأمويين في مراكز نفوذهم الحيوية، وحل أحد كبار أعوانهم، موسى بن أبي العافية، على نبذ طاعتهم والعودة الى العبيديين .

ومن ثم فلا عجب في أن تجد انتصارات زيري صدى الاستحسان والرضى الذي وجدته عند القائم بأمر الله .

ومما يزيد من قيمة هذه الانتصارات أن زيري لم يتخذها مطية لتحقيق مطامح شخصية في الحكم أو عملة لمساومة الفاطميين (أو الأمويين). وإنما هو قام بهذه العمليات على رأس قبيلة صنهاجة، كما يقوم قائد عسكري على رأس جيش لإنجاز مهمة كلف بها . على أن فرصة أخرى ستقدمها الظروف للفاطميين لتجربة ولاء زيري وقبيلة صنهاجة . وذلك أنه لما اشتد أمر أبي يزيد الخارجي وضرب الحصار على المهديّة التي قطع عنها المؤن وأوشك أن يقضي على سلطان العبيديين في آخر معاقلهم، لم يجد القائم بأمر الله شخصية أخرى في مملكته غير زيري أهلاً لأن يطلب اليه المساعدة والنجدة. فقد كتب الخليفة الفاطمي الى زيري يخبره بالخطر المحدق بعرشه وبما نال الناس في المهديّة من الجهد والغلاء. وكانت هذه الرسالة كافية لأن تثير نخوة زعيم صنهاجة الذي بعث الى عاصمة الفاطميين بألف حل حنطة وأخرج معها مائتي فارس وخسمائة من عبيده .

ولما وصلت هذه النجدة الى المهديّة كان لها الوقع الذي نتصوره، وبعث القائم بأمر الله الى زيري بن مناد بهدية « لم يسمع بمثلها، من كساء جليّة وخيل مسومة بسروج محلاة (23) ».

وفي فترة تالية لا تحدد مصادرنا زمنها، قام جيش من زناتة الذين هالتهم قوة صنهاجة المتحصنة في أشير المعنية بهجوم على هذه المدينة بقيادة كمات بن مديني، فخرج اليه زيري ووقعت بين الطرفين معركة أبلى كمات فيها بلاء حسناً وقتل جماعة كبيرة من أصحاب زيري.

وقد كان لزيري ابن صغير لم يبلغ الحلم اسمه كباب، منه أبوه من الخروج من المدينة لصغر سنه، ولكن اليافع لم يكثرث بأوامر أبيه. وبمجرد ما سمع الصباح وضرب الطبول ارتدى ثياب الحرب وأخذ السيف وركب جواداً وخرج من أحد أبواب المدينة.

وفي جلبة المعركة، وقعت عين كباب على كمات الزناتي فقصده، وكان كباب فوق ربوة وعدوه تحتها فسدد اليه ضربة بالسيف قادت درعه وعنقه، وخر كمات صريعاً دون أن يدري أحد من قاتله، ولو أن زيري رأى ابنه وعرفه.

وإثر ذلك، تراجع جيش زناتة منهزماً وعاد كباب الى المدينة مصطحباً معه جماعة من أصحاب كمات أسرى، وقد أمر زيري فيما بعد بضرب أعناقهم ويصلب كبارهم (24).

ولما قام اسماعيل المنصور بمطاردة أبي يزيد في جبال القلعة (قلعة كيانا) في سنة 335 هـ. استقبله زيري على رأس جيشه وكبار رجال قبيلته استقبلاً

---

(23) راجع النويري، ص 234.

(24) نفس المصدر، ص 235.

يليق بمقام الخليفة الفاطمي، وانضم اليه مع حشود البربر وقام بدور حاسم في هزيمة الخارجي.

وقد كان يمكن أن تنتهي هذه العملية الحربية، كما انتهت العمليات الأخرى التي قام بها زيري، ويعود السلطان الى عاصمته دون أن يكون لهذه الأحداث ذلك الأثر السياسي البعيد. ولكن اسماعيل المنصور لم يفتة إدراك ما ينطوي عليه التنظيم الجديد لقبيلة صنهاجة من عوامل الاستقرار السياسي في المغرب، فقرر تنصيب زيري رسمياً على الولايات الغربية للأمبراطورية، فقلده سيفاً، وخلع عليه وعقد له على أهل بيته ومن اتصل به من صنهاجة والبربر وأذن له في اتخاذ القصور والمنازل والحمامات في مدينة أشير<sup>(25)</sup>.

وفي صفر سنة 347 هـ. (مايو 958 م) قرر المعز استعادة نفوذ الفاطميين الذي تضعف من جديد في المغرب الأقصى فوجه جوهرأ على رأس حملة عسكرية لهذه الغاية وأمره أن يصطحب معه زيري بن مناد.

وقد زحف جيش الخليفة بمرافقة جيش من صنهاجة بقيادة زيري، واتجه الجيشان الى فاس التي كان عليها أبو بكر الجذامي الموالي للأمويين. وبعد حصار المدينة وقتاً من الزمن، أدرك القائد الفاطمي صعوبة الاستيلاء عليها

---

(25) هذه رواية القيرواني (المؤنس، ص 72). وأما ابن خلدون (العبر 164/1) وابن خلكان (وفيات الاعيان، 349/1 - 350). فيضيف كل منهما الى ذلك مدينة تاهرت وأعمالها. ونحن نلاحظ أن تاهرت قد ثارت على ميسور الفتى واليها من قبل الفاطميين في سنة 333 هـ. وسقطت في يد محمد بن خزر وظللت تحته وقتاً، ثم انتقلت الى يد يعلى بن محمد اليفرني - وكلا الزناتيين كان موالياً للفاطميين - ولم تزل في حكمه حتى استولى عليها جوهر الصقلي في خلافة المعز سنة 349 هـ (البيان 279/1 - 80) أو سنة 346 حسب رواية القيرواني. والمعروف كذلك أن جوهر هو الذي أضاف تاهرت الى أعمال زيري مكافأة له على جهوده في فتح فاس، كما سترى ذلك. ولكنه من الجائز أن تكون ولاية المنصور لزيري على تاهرت مجرد وعد يتعلق بالمستقبل.

فوجه جيوشه الى سجلماسة<sup>(26)</sup> التي استولى عليها ثم أخضع جنوب المغرب الأقصى كله تقريباً حتى المحيط الأطلسي .

وإثر ذلك، توجه الجيش الفاطمي من جديد الى فاس وشدّد الحصار عليها مدة طويلة . وقد أبلى زيري أثناء هذا الحصار أعظم البلاء . ولما رأى اليأس يتطرق الى نفوس رجاله وضع خطة محكمة وقام بالدور الأول في تنفيذها، حيث تسلق مع رجاله أسوار المدينة وفتح هو أبوابها لجيش جوهر الذي أخذها عنوة في شهر رمضان 348 هـ (27) .

---

(26) مدينة جليلة ومركز حضاري شيدت على مسافة 200 ميل في الجنوب الشرقي لمدينة فاس، على تخوم الصحراء وعلى الضفة اليسرى لوادي زيز. اختلفت الرواية بشأن المؤسس الأول لسجلماسة ولكن بداية حياة المدينة الاسلامية ترجع. فيما يروي البكري الى سنة 140 هـ. (757-758 م). وقد تولى حكمها منذ سنة 155 هـ سنو مدرار وبلغت المدينة أوج عظمتها وازدهارها في عهد محمد بن الفتح بن ميمون الملقب الشاكر بالله. وقد وصفها الجغرافيون العرب وصفاً مشرقاً حيث كانت تنوسط منطقة خصبة وتحيط بها البساتين والرياض الممتدة على ضفتي وادي زيز. وفي الوقت الذي كانت فيه مركزاً لصناعة النسيج النفيس من ثياب الصوف، كانت أيضاً نقطة التقاء لتجارة القوافل الراحلة الى بلاد لزنج تحمل منتجات الشمال والقوافل التي تعود مثقلة بالعبيد والعاج والتبر والجلود. وفي عام 660 هـ (1258-1259 م) ضرب المريون حصاراً على سجلماسة فلم يفلحوا. ولكنه عاودوا الكرة فسقطت في يد يعقوب بن عبدالحق الذي ذبح ولادة بني عبدالواد وأفراد حاميتها في سنة 723 هـ. ثم استعبد أهلها. ومنذ ذلك الوقت أخذت سجلماسة (تافيلالت الحالية) تتدهور بسرعة حتى أخفى اسمها كلية في التاريخ (راجع كتابنا: المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي، وكذلك رحلة ابن بطوطة، ورحلة الحسن بن محمد الوزان، وكتاب الاستقصا، والعبر في عد أماكن)، وكذلك:

E. Mercier, Sidjilmasa, selon les auteurs Arabes, R. A., 1867 Gerfard Rohlfs, Reise Durch Morokko

(27) قارن ما كتبه بشأن هذه الحملة القبرواني، المؤنس ص 72، والسلاوي، الاستقصاء 86/1 - 87 ابن الأثير، الكامل 189/8، ابن عذاري، البيان 316/1، ابن خلدون، العبر 15/6

وهذه الحملة التي استغرقت الفترة بين صفر 347 وشعبان 349 تمكن جوهر من استعادة جميع أطراف المغرب بمساعدة صنهاجة الى طاعة العبيدين، وذلك فيما عدا سبتة وطنجة، وطرد عمال الأمويين، ثم عاد الى القيروان مصطحباً معه عدداً كبيراً من الأسرى وفي مقدمتهم صاحب فاس وعامل سجلماسة، ووضع مكانهم شخصيات موالية للفاطميين.

وأما زيري الذي أضيفت الى أعماله مدينة تيهرت<sup>(28)</sup> وأراضيها، فقد شرع إثر ذلك في تدعيم ملكه بإنشاء مدن جديدة، فأمر ابنه وولي عهده بلكين باختطاط مدينة الجزائر على البحر، ومدينة مليانة على الضفة الشرقية لنهر شلف<sup>(29)</sup>، ومدينة لمدية<sup>(30)</sup>، غير بعيد من أشير.

---

(28) تيهرت، أو تاهرت اسم لمدينتين. القديمة والحديثة، فأما المدينة القديمة، فهي من المدن الرومانية، وأما الحديثة فهي عاصمة الدولة الرستمية. وقد شيدها عبدالرحمن بن رستم الذي فر من القيروان في وجه جيوش ابن الأشعث وأسس الإمارة الأباضية المعروفة في سنة 144 هـ. (761 م). وقد استفادت تيهرت كثيراً من موقعها على سفح جبل كزول على الحدود بين التل والسهوب، فكانت محطة للقوافل الغادية والرائحة. وكذلك شهدت ازدهاراً ثقافياً سوف لا يعرفه بعدها سوى قلعة بني حماد التي قامت بعدها بعدة قرون. وقد ذكر البكري أربعة أبواب من أبواب المدينة كما تحدث عن قلعتها المشرقة على السوق. وبدأت المدينة تندهر بعدما استولى عليها أبو عبدالله الشيعي في سنة 296 راجع كتابنا: المدبر المغربية في الأدب الجغرافي العربي، وكذلك البيان المغرب، ج 1، وتاريخ يعقوبي، و Gsell (St.), Atlas archéologique de l'Algérie.

(29) تقع مليانة عند درجة 7 و 0 دقائق طولاً و 36 درجة و 18 دقيقة عرضاً، وعلى ارتفاع يتراوح بين 726 و 749 متراً. وقد بنى بلكين المدينة الجديدة على أنقاض مدينة رومانية كما تشهد بذلك بعض النقوش التي عثر عليها الباحثون في المدينة. ومنذ العهد الزيري الأول، عرفت مليانة ازدهاراً كبيراً بسبب خصب أراضيها التي يروها نهر شلف ونتيجة لموقعها التجاري بين الشرق والغرب والشمال والجنوب. وقد وصفها الإدريسي بقوله أنها «مدينة صغيرة حصينة على نهر صغير عليه عمارات متصلة وكروم وبها من السفرجل كل بديع، ولها سوق وحمام، وسوقها يجتمع اليه أهل الناحية». وبعدها خضعت مليانة للبراطين والموحدين =

على أن الهدوء الذي أعقب حملة جوهر في المغرب الأقصى لم يدم إلا وقتاً قصيراً ولم تلبث نيران الفتنة أن اندلعت في أكثر من مكان واحد. فإذا كان الأمويون قد فقدوا كل أمل في تحريك عناصر الاضطراب التقليدية مثل الأدراسة وابن أبي العافية، فإن عناصر جديدة ظهرت على المسرح وستربط مصيرها هي الأخرى بالأمويين لمقاومة العبيديين وصنهاجة.

وأبرز هذه العناصر وأشدّها خطراً هما :

جعفر بن علي، عامل الفاطميين على المسيلة، وقبيلة مغراوة.

كانت بين جعفر بن علي (وكان أبوه هو الذي بنى المسيلة كما أسلفنا)

= أصبحت موضعاً لحروب قاسية بين الحفصيين والزبانين وبني مرين. وفي عهد الأتراك، كانت مليانة تابعة لبلايك الغرب وقاعدته مازونة، ولكنها كانت لها مكانة خاصة لموقعها الاستراتيجي. وكذلك يدل وصف كل من الحسن بن محمد الوزان ومارمول على أن المدينة كانت لا تزال تحتفظ بكثير من رخائها ورونقها في القرن السادس عشر (راجع: المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي، والاستقصا، والعبر، ورحلة الحسن بن محمد الوزان، ورحلة مرمول، ورحلة العبدري، ومقالة جورج يفر في دائرة المعارف الإسلامية).

(30) لم يعرف مؤسس لمدينة ولا العهد الذي شيدت فيه. والمدينة يرجع عهدها الى عصر الرومان أو قبله، وكل ما فعله بلكين هو تجديدها وتعميرها، على غرار ما فعل بمليانة والجزائر. ومثل المدينتين تعاقب على المدينة ولادة جميع الدول المغربية التي جاءت بعد بني حماد، وكانت تابعة لتلمسان في عهد بني مرين. وقد احتفظت لمدينة بكثير من رونقها ورخائها الذي يقوم على إنتاج سهولها الخصبة حتى مطلع القرن السادس عشر عندما زارها الرحالة المعروف، الحسن بن محمد الوزان. ولما جاء الأتراك، احتلها عروج بعدما هزم أمير تنس، حماد بن عبيد، في سنة 1517 م، وظلت بعد ذلك عاصمة لولاية تيطري. وقد فتحها الأمير عبدالقادر في سنة 1835 م ونصب حاكماً عليها جعله تابعاً للحاج يحيى الدين الصغير، خليفة مليانة. (راجع: المدن المغربية والبكري، والعرج 7، وبغية الرواد ورحلة الحسن بن محمد ورحلة مرمول. وكذلك المقال الذي نشره في المجلة الافريقية بعنوان:

Federman et Capitaine :

Notice sur l'Histoire et l'administration du Beylik du Titteri, 1865-1867

وبين زيري بن مناد ضغائن وأحقاد وعداوة في النفوس .

وكان جعفر يرى في اتساع نفوذ زيري وارتفاع شأنه في بلاط القيروان خطراً يهدد مركزه شخصياً ومركز أسرته .

ولما قرر المعز الانتقال الى الديار المصرية اتفق أن أمر ببناء دار ابن رباح المعروفة في القيروان بدار الإمارة . وقد شاع بين الناس أن هذه الدار بنيت لجعفر بن علي ، وأنه سيعطى ولاية افريقية ، ولكن ولاية المغرب ستعطى لزيري ، فعظم الأمر على جعفر الذي وجد في هذه الإشاعة تجسياً لمخاوفه (31) .

ولما أنفذ اليه المعز لدين الله يستدعيه الى افريقية لم يستجب . ثم أرسل اليه المعز ثانية فرج الصقلي . ولما بقي بين فرج وجعفر الذي كان في المسيلة مقدار مرحلة ، خرج جعفر من المدينة بعسكره وسلاحه وأمواله وتظاهر بالمسير الى القيروان ثم غير اتجاهه وفر الى زناتة الذين استقبلوه وملكوه على أنفسهم ، فخلع طاعة المعز .

ومن جهة أخرى أخذ شعور العداء المستحكم بين زناتة وصنهاجة يقوى ويشدد تحت تأثير الدعاية الأموية . وقد وضعت مغراوة وبنو يفرن جوعها على قدم الاستعداد للهجوم على صنهاجة بقيادة محمد بن الخير .

ولما بلغت هذه الأخبار زيري ، قرر الزحف على الزناتيين فظهر عليهم وشتت شملهم . ولما رأى محمد بن الخير ما حل برجالهم ، استل سيفه وقتل نفسه (32) .

وإثر هذه الواقعة بقليل ، أخذت مغراوة تستعد لأخذ الثأر من صنهاجة .

وفي سنة 361 هـ . زحف جعفر بن علي على رأس جيش مؤلف من

(31) النويري 235 ، المؤنس 73-74 ، الكامل 460/8 .

(32) البيان 63-362/1 .

فرسانه ومن قوات مغراوة على أراضي صنهاجة التي يبدو أنها أخذت على غرة. ولكن زيري جمع رجاله بسرعة وواجه العدو ببسالته المعهودة. غير أن جوع صنهاجة لم تلبث أن تفرقت من حوله وظل هو صامداً في ثلة من أتباعه حتى كبا به جواده وانتقض عليه أعداؤه وحزوا رأسه وبعثوا به الى قرطبة ليعرض في أسواق المدينة.<sup>(33)</sup>

وبموت زيري بن مناد الذي دام حكمه ستا وعشرين سنة، فقدت صنهاجة قائداً محنكاً وسياسياً بارعاً من طراز أولئك الأفذاذ الذين جعلوا تأسيس الأمبراطوريات حرفتهم في الحياة، كما فقد البربر أول ملك أصيل كان حظه أحسن من حظ يوغورطة .

ولكن الفراغ الذي تركه زيري الذي رزق من الأولاد ما يزيد عن المائة، وكلهم فرسان كرماء يكتفي بهم في بعض حروبه، لم يلبث أن ملأه ابنه بلكين الذي ورث عن أبيه الشجاعة وحسن التدبير معاً .

---

(33) قارن المؤنس 74 ، والبيان 360/1 - 361 .

## القلعة عاصمة بني حماد الأولى

بنيت قلعة بني حماد (أو قلعة أبي طويل كما تسمى أيضاً) في سنة 398 هـ (1007 - 1008 م)<sup>(1)</sup> على منحدر وعر فوق سفوح جبل تقربست<sup>(2)</sup> على الحدود الشمالية لسهول الحضنة، على مسافة 26 كيلو متراً من المسيلة.

ويحد القلعة شرقاً وادي فرج الذي يجري من الشمال الى الجنوب بين جبل الرحمة وجبل زوروق الذي يمتد على ضفة الوادي اليسرى. وهذا الوادي هو الذي كان يسمى في عهد بني حماد بوادي جراوة.

وفي الغرب، تقف قمة الغورين الشاهقة (1190 متراً) التي لا يفصل بينها وبين جبل الرحمة سوى مضيق يمكن الدفاع عنه بسهولة.

وفي الجنوب يقع المدخل الوحيد الى المدينة، وهو عبارة عن طريق كثير التعاريج يسائر وادي فرج.

---

(1) هذا هو التاريخ الذي يحدده المؤرخون (وفي مقدمتهم ابن خلدون وابن الأثير والتويري. وأما ياقوت، فيذكر أن القلعة بنيت في سنة 370 (981-980 م) (معجم البلدان 4/149).

(2) تقربست معناها باللغة البربرية السرج، وهذه التسمية هي التي حولها العرب الى جربية. وهذا الجبل الذي يحمل في كتب التاريخ أيضاً اسم جبل كيانة، يسمى في الوقت الحاضر جبل المعاديد.

ووراء جبل تقربست تتفتح سهول الحضنة على مد البصر جنوباً .

أما الأرض التي بنيت عليها القلعة، فهي عبارة عن سطح ذي هبوط منتظم يشكل امتداداً لجبل تقربست الى سهول المسيلة، ويبلغ ارتفاعه على مستوى البحري 1000 متر (3) .

وهذه المنطقة على العموم فقيرة من الناحية الأثرية، إذ انها لا تحتوي إلا على خرائب القلعة وآثار قرية صغيرة تقع على مقربة منها تعرف بتحامين .

وإذا كان المنقبون قد عثروا في منطقة القلعة نفسها وفي أراضي أولاد حنش وتحامين على بعض الأدوات البدائية التي تدل على أن هذه المنطقة كانت مأهولة في العصر الحجري (4) فإنه ليس لدينا دليل مادي يشير الى أن القلعة، أو أي مكان مجاور لها كان من بين المراكز التي احتلها الفينيقيون . وهذا شيء مفهوم، لأن الفينيقيين كانوا يفضلون الشواطئ البحرية لإقامة مدنهم ومراكزهم الاستعمارية .

ولكن منطقة القلعة تحتوي على بقايا مسرح وعدة أسوار متهدمة يرجع تاريخها الى العصر الروماني - مما يدل على أن المنطقة استلقت أنظار المعمرين الرومان . ويبدو أن هذه التحصينات كانت لا تزال لها قيمة دفاعية في العهد الفاطمي .

وهذا شيء لا غرابة فيه إذا عرفنا أن سهول الحضنة طالما كانت مسرحاً لحوادث تاريخية ذات أهمية قصوى .

---

(3) راجع موقع القلعة في أطلس الجزائر: 92. N° 25 Feuille (St.) Gselle

(4) راجع ما كتبه عن هذه التحصينات

فقد كانت في أواخر القرن الثاني قبل المسيح ميداناً للمعارك الكثيرة التي كان يشتبك فيها أمراء نوميديا مع جيوش الرومان التي كان يقودها ماريوس .

وموقع القلعة، أو بعبارة أدق، جبل كيانه، كان له تاريخ حي في أذهان صنهاجة وشاع اسمه في القصص والأغاني الشعبية، حيث كان المعقل الأخير الذي التجأ إليه أبو زيد الخارجي، صاحب الحمار، على رأس ثلة من أصحابه، بعد ما أحاطت به جيوش القيروان وقوات زيري بن مناد، في السهل وتعقبته حتى قضت على حركته وقتل هو على هذا الجبل .

وليس من شك في أن المزايا الاستراتيجية التي يتمتع بها هذا الموقع هي التي لفتت إليه نظر حماد بن بلكين بعد ما استقر له الأمر في منطقة الزاب والحضنة، وأغرته ببناء القلعة لتقوم بالدور السياسي الذي قامت به في عهدها الأول، قبل أن تأخذ القيروان كثيراً من نفوذها .

ومما يزيد من قيمة مكان القلعة، أن المدينة، مثل أشير، تقع على الطرف الجنوبي لطريق مهمة تأتي من البحر وتقطع التل . وهذه الطريق التي تقع بجاية عند طرفها الشمالي<sup>(5)</sup>، تمر بوادي قصب وسهول مجانة ومضيق البيان المشهور، ووادي السومام، قبل أن تصل إلى بجاية .

وكذلك يربط القلعة بالقيروان طريق آخر يسمى « الجناح الأخضر » يمر بلريس وتامديت ووادي الدنانير وتيحست، ويعبر نهر سهر، نهر المسيلة، ليصل إلى القلعة<sup>(6)</sup> .

---

(5) راجع: اسماعيل العربي، بجاية، عاصمة بني حاد الثانية، مجلة الثقافة، عدد ديسمبر - يناير،

1973 .

(6) راجع عن هذا الطريق، البكري ص53-54 .

هل بنى حماد قلعته في مكان جديد أو فوق أنقاض قلعة أو حصن قديم ؟  
نحن نرجح الافتراض الأخير . وذلك لأن بعض المؤرخين والجغرافيين  
العرب يشيرون إشارات واضحة الى وجود تحصينات في هذا الجبل (وهي لا  
صلة لها ببقايا الآثار الرومانية) .

فقد ذكر الإدريسي انه كان يوجد فوق جبل كيانا مكان محصن اعتصم  
به أبو يزيد الخارجي (7) .

وقد وصف صاحب الاستبصار القلعة بأنها « مدينة قديمة أزلية على نظر  
عظيم، كثير الزرع والخيرات » (8) . وعندما ذكر البكري أن القلعة هي مملكة  
سنهاجية في عهده، أضاف قائلاً : « وبهذه القلعة احتضن أبو زيد ابن مخلد  
ابن اسماعيل » (9) .

ومن جهة أخرى، فإن ياقوت الحموي المعروف بعنايته وتدقيقه، ذكر أن  
القلعة قد بناها بلكين (بن زيري)، والد حماد، في سنة 370 هـ، كما أشرنا .  
ومن ثم يمكن التساؤل عما إذا كان هذا الفارق الزمني الذي يمثل قرابة 30  
عاماً بين التاريخ المعروف لتأسيس القلعة وتاريخ ياقوت مجرد غلطة من  
الأخير، أم أن صاحب معجم البلدان يؤرخ لقلعة أخرى، أو حصن أقامه  
بلكين في نفس المكان، أو قريباً منه ثم بنى عليه، أو بجانبه، حماد مدينة  
القلعة .

إنه لمن سوء الحظ ان أعمال التنقيب التي قام بها جولفان، ومن قبله

---

(7) الإدريسي، ص 86 .

(8) الاستبصار، ص 167-169 .

(9) البكري ص 49 .

دوبيلي، في موقع أنقاض القلعة لا تلقي ضوءاً على هذه النقطة. ومرجع ذلك قصر الفترة التي تفصل بين أنقاض ما يمكن أن يكون من بناء بلكين وأنقاض قلعة حماد، وتقارب أنماط البناء، ولا سيما فيما يتصل بالتحصينات.

ومها يكن من شيء، فإن حماداً لما اختار موقع المدينة، قصد إلى المسيلة وسوق حمزة (البويرة) وأخذ من المدينتين ما يحتاج إليه من الصناعات والبنائين والنجارين وغير ذلك ممن ينتمون إلى مختلف الحرف، ثم شرع في بناء المدينة التي سستغرق العمل فيها نحو ثلاث سنوات، في مساحة من الأرض تمتد على 40 هكتاراً.

وقد أحيطت القلعة بسور، على غرار مدينة أشير، يسائر قمة جبل الغورين ويتسلق جبل تقريست، يتراوح عرضه بين 1,2 و 1,60 متر، ويبلغ دوره 7 كيلو مترات. وبعدما يبلغ قمة الجبل، ينزل على السفوح المطلة على نهر فرج. وفي المكان الذي يلتقي عنده الجبل بالسهل، يقع أحد أبواب المدينة الرئيسي، باب الأقواس<sup>(10)</sup>.

وفي شرقي المدينة يقع باب الجنان الذي يفضي إلى المسيلة ويتصل بطريق القيروان.

وأما باب جراوة الذي يقع في حي جراوة<sup>(11)</sup> فهو ينفذ إلى جسر سيدي عيسى، الذي كان يمتد على نهر فرج، على بعد سبعة أمتار من الباب، ثم إلى

---

(10) ذكر الحسن بن محمد الوزان المدعو ليون الإفريقي، أن باب الأقواس نقل فيما بعد إلى مدينة الجزائر، وركب فيها، حيث أصبح يسمى باب عزون (راجع مقالاً في العنوان. R. A., 1886, p. 300, Note 2.

(11) سمي هذا الحي باسم قبيلة جراوة التي نقلت إلى القلعة والتي كانت تقطن مدينة في المغرب معروفة باسمها أسماها محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب (راجع مقال:

G. Marçais. Société archéologique de Constantine, 1908, p. 165.

الطريق المؤدي الى برج الغدير. وهذا الجسر الذي يعتبر أثراً هاماً، يدل على مدى ما بلغت هندسة الطرق في العصر الحمادي من التقدم، لم يبق منه سوى رسوم دراسة، في الوقت الحاضر.

ومدينة القلعة مخططة على نمط المدن العربية الأخرى، مثل القيروان، وعلى غرار مدينة أشير، فيما يتعلق بالتحصينات العسكرية.

يقطع المدينة شارع رئيسي يمتد من الغرب الى الشرق بين باب الجنان وباب الأقواس، ثم تتفرع عنه شوارع ثانوية هنا وهناك.

وأهم مباني القلعة، هي مسجدها الذي لم يبق منه إلا منارته، وقصور أمراء بني حاد المتعاقبين.

فأما مسجد القلعة، فيقع في أسفل المدينة، في القسم الجنوبي، وعلى الرغم من أن المؤرخين يتحدثون عن عدة مساجد في القلعة، فإن هذا المسجد (الجامع الأعظم) هو الوحيد الذي تعرف عليه علماء الحفريات<sup>(12)</sup>.

يمتد مبنى المسجد على مساحة من الأرض تبلغ 64 متراً طولاً، و 56 متراً

---

(12) كان الكاتب الفرنسي Ferand الذي عرف بالدراسات التي تناول فيها عدداً من مدن ولاية قسنطينة، أول من وجه الاهتمام الى القيمة الأثرية لخرائب مدينة القلعة، كما كان Blanchet أول من خطرت له فكرة التنقيب في هذه الآثار. وقد قام هذا العالم بعمليات للحفر استغرقت أسبوعاً كانت موضع دراسة نشرها في مجلة جمعية الحفريات بقسنطينة في سنة 1889، ص 97. وكان بلا شك ينوي مواصلة التنقيب ولكن المنبة عاجلته قبل أن ينفذ مشروعه. وبعد ذلك بخمس سنوات قام A. Robert بنشر وصف لآثار مدينة بني حاد المندثرة، ثم قام الجيزال De Beylie في سنة 1908 بمساعدة المستشرق جورج مارسي G. Marçais بسلسلة من أعمال الحفر استغرقت حوالي ثلاثة أشهر كان يستخدم فيها 80 عاملاً. ونحن مدينون لهذا المنقب بكتابتها: La kalaâ des Bani Hammad, une capitale de l'Afrique du Nord du XI siècle وفي سنة 1951، استأنف Golvin أعمال الحفر وضمن نتائج اكتشافاته كتابه المعروف: Le Maghreb central à l'époque des Zirides, Alger 1957. وقد توقفت أعمال جولفان إثر قيام الثورة الجزائرية بسبب اضطراب الأمن.

عرضاً، ويشتمل المبنى على مئذنة تقوم عند حائطه الشمالي يبلغ ارتفاعها 25 متراً، كما يشتمل على صحن يقع فيه حوض كبير للوضوء. وللمصلى أحد عشر باباً مختلفة الاتساع ولم توزع توزيعاً منتظماً، كما تمتد فيه صفوف من السواري تتكون من 84 سارية.

وبجانب المحراب يقع المكان الذي كانت تحتله مقصورة الأمير، وهي مقصورة واسعة يرجح أن تكون مصلى خاصاً للأمراء.

وفي الزاوية الشمالية الشرقية يقع المنبر الذي يذكرنا نمطه بمنبر مسجد القيروان<sup>(13)</sup>.

أما قصور الأمراء، فأهم ما كشفت الحفريات عنه منها، هو القصر المسمى قصر البحر الذي يقع في وسط المدينة على مسافة 150 متراً من المسجد. والقصر عبارة عن عدد من المباني التي تمتد في مساحة طولها 70 متراً في عرض 67 متراً. ويبلغ ارتفاع القصر عشرة أمتار. والبنية الرئيسية منه هي قصر الأمير. وقد ألحق بالقصر في الجانب الشرقي مبنى آخر يرجح أنه كان يأوي المكاتب الإدارية والحرس والمخازن والاصطبلات الخ.

وفي الجانب الأسفل من القصر تقع البحيرة التي أخذ القصر اسمه منها. وهذه البحيرة تمتد على مساحة لا تقل عن 67 متراً طولاً، و 47 متراً عرضاً، ويقدر عمقها بـ 1,60 متراً<sup>(14)</sup> وكانت المياه تجلب الى هذه البحيرة في قنوات

(13) راجع وصف خرائب مسجد القلعة في :

G. Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, p. 81-87 de Beylie, la Kalaâ, p. 78, L.

Golvin, le Maghreb central, p. 83.

(14) راجع عن قصور القلعة

L. Golvin, le Maghreb central, p. 101-104, G. Marçais, l'architecture, Tunisie, Algérie, Le

Maroc etc. III/75, 81, 84, 93, 94, De Beylie la Kalaâ, p. 78.

من جهة بعيدة من الشمال<sup>(15)</sup>.

وفي الطرف الشرقي للمدينة، على المنحدر الذي يشرف على وادي فرج تقع خرائب المنار. وفي الغرب كان يقوم قصر السلام، وفي الشمال الغربي، قصر الكوكب، الذي سيحمل قصر آخر اسمه في بجاية. وفي الشمال الشرقي كان يقف قصر الأمراء. وهذا القصر الأخير يشتمل على ثلاث قاعات يرجح أنه كانت تعلو كل واحدة منها قبة: اثنتان منها متوسطتا الاتساع وتفضيان الى بلاط يقع في الجهة الغربية، ويرجح أنها كانتا مخصصتين للاستقبالات الرسمية وأما القاعة الثالثة التي تتوسطهما، فهي فسيحة وتبلغ سعتها حوالي 19 متراً طولاً، في عرض 15 متراً. ويرى جورج مارسى أنها هي قاعة العرش.

وفي شمال بنايات، عدد من القاعات الصغيرة، وهي مفروشة بالآجر وتفضي إليها قنوات للماء. ويستنتج من وضعها أنها كانت حمامات الأمراء.

وأما القسم الذي يمتد من الجنوب الى الجنوب الغربي من هذه المباني فهي مسقوفة بالقرميد ومحاطة بمحاذيق واسعة تحترقها مماش عديدة.

والملاحظ من الوجهة التاريخية أن دار البحر، وهو أهم قصور قلعة بني حماد، قد بني في فترة بين سر من رأى وقصر الحمراء. وهو إذ يختلف عن هذين القصرين في طرازه المعماري، فإنه يشبههما في التصميم العام من حيث أنه يحتوي على مجموعة من بنايات التي تضم مختلف المصالح، وعلى الحدائق والصهاريج التي كانت دائماً تلعب دوراً هاماً في القصور الاسلامية. وكل من القصور الثلاثة تحتوي على قاعات فسيحة تسود فيها المعماري مظاهر الأبهة والترف الزخرفي، كما تحتوي على غرف ضيقة للاستعمال الشخصي. ودار البحر، مثل قصر الحمراء، يشتمل على حمامات تابعة لمساكن الأمراء.

---

(15) راجع المقارنة التي عقدها دوبي بين هذه البحيرة وصهرج قصر الحمراء (المصدر المتقدم، 62).

وقد قام جورج مارسي بدراسة بعض النماذج الفنية لآثار دار البحر ضمنها كتابة عن تاريخ الفن الإسلامي وخرج من هذه الدراسة القيمة بالنتيجة التالية :

« ليس من التكرار أن نقول أن الجزائر تملك بدار البحر وتوابعه واحداً من القصور الإسلامية الكاملة وواحداً من القصور التي عرف تاريخها جيداً، وواحداً من القصور التي أدخل عليها الأقل من الاصلاحات »<sup>(16)</sup>.

وأما قصر المنار الذي لا يزال قبوه الهائل يمثل لنا عظمة هذه الآثار وجلالها، فقد عثر من بين أنقاضه على نموذج من التنميق المعروف باسم « خلايا النحل » وهو عبارة عن قطعة من الحجر طولها 1 متر في عرض 60 سنتيمتراً. والمعروف أن أقدم أثر يمثل هذا الزخرف في الفن الإسلامي، هو قطعة صغيرة وجدت بجوامع الأقمر في القاهرة. ولما كان تاريخ هذا المسجد يرجع إلى سنة 519 هـ. فإن ظهور هذا الزخرف في قصور القلعة التي بنيت في أواخر القرن الرابع، حدث ذو أهمية بالغة في تاريخ الفن المعماري الاسلامي.

ومن الثابت أيضاً أن الأقواس النصفية والستلاكتيت. والزخرف ذا البريق المعدني والصيني الأزرق والأبيض المنمق بالصليب والنجوم ذوات ثمانية أضلاع، والمرمر المنحوت والمصبوغ، كلها كانت موجودة في قصور القلعة عدة قرون قبل أن تظهر في قصور الحمراء بالأندلس.

وكذلك لاحظ بعض مؤرخي الفن الإسلامي ما بين قاعات قصر المنار وقصر القبة وقصر العزيز العرييين في بلرم (صقلية) من الشبه. ولكنه يجب ألا ننسى أن هذين القصرين بنيا في وقت متأخر (سنة 549 وسنة 576 هـ. على التوالي) كانت القلعة قد تخلت فيه عن دور العاصمة.

ومن ثم، فإن من الممكن الافتراض بأن يكون مهندسو هذين القصرين قد

(16) راجع : G. Marçais, Manuel de l'art musulman, 1/124.

استوحوا نماذجهم من قصر المنار .

وتدل قطع الخزف الصيني التي عثر عليها المنقبون في القلعة<sup>(17)</sup> على مدى ما بلغت عاصمة بني حماد الأولى من الإبداع في صنع الأواني وتنميقها . والمعروف أن اكتشاف عدد من القطع قد دفع بتاريخ نوع من الخزف كان شائعاً في الأندلس ، قروناً الى الوراء .

ولعلنا لا نخرج عن النطاق الذي رسمناه لهذه الدراسة إذا أوردنا في هذا السياق ملاحظة دوبيلي حين يقول : « إن من الممكن أن نعتبر الحجة قائمة منذ الآن على أن أصل مختلف أنواع الفخار المنمق والمطلي بالطلاء الأخضر ، والآجر والخزف ذي البريق المعدني الخ . يجب ألا تنسب الى اسبانيا وجزر البليار ، الى القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر (الميلادي) فحسب ، بل إن مصدرها الأول هو آسيا ومصر وشمال افريقية ، وقد كان صنع هذه الأشياء عادياً في القرن الحادي عشر وربما قبل ذلك أيضاً<sup>(18)</sup> .

وهذه الحالة من التقدم والازدهار الفني الذي تدل عليه آثار القلعة يمكننا فهمها بسهولة إذا استحضرننا في أذهاننا حقيقة تاريخية وهي أن القلعة تمثل المرحلة ما قبل الأخيرة في تطور حضارة افريقية الشمالية في العصور الوسطى . فإن من الأمور التي لا يعرفها إلا القليلون أن الفن المعماري الزيري الأول ، كما تمثله آثار أشير ، قد بلغ شأواً بعيداً في التعقد والترف الزخرفي بالمقارنة بالفن الأغليبي . وقد عرفت افريقية الشمالية خلال القرن الرابع الهجري تقدم العمران وازدهار العلوم والفنون الجميلة الذي كان يرافق انتشار الترف في القصور وتأنق أذواق الأمراء .

---

(17) راجع مجموعة الصور التي صنفها وعلق عليها جورج مارسي في كتابه :

Poterie et faïence de la Kalaâ des Bani Hammad.

(18) المصدر المذكور ص 87 .

وكذلك مرت الفنون الجميلة بأطوار مختلفة قبل أن تبلغ القمة التي بلغتها في ثراء الزخارف والنقوش وتنوع الأساليب العمرانية في عهد القلعة .

ومن العوامل التي كان لها ، من غير شك ، أثر كبير في التطور السريع الذي عرفه الفن القلعي ، اختلاف عناصر سكان هذه المدينة الذين كانوا ينتمون الى مختلف الجنسيات والعقائد السائدة في ذلك العصر .

فقد كان العرب والبربر والسنينيون والشيعة والخوارج يعيشون جنباً الى جنب مع أقليات من اليهود والنصارى في ظل من التسامح لم يعرف له هذا البلد مثيلاً من قبل .

ومن ناحية أخرى فقد كانت القلعة مقصداً للعلماء والفنانين والتجار الذين كانوا يقدون عليها من الحجاز والعراق ومصر والشام وينقلون معهم أحدث الأفكار والأساليب الفنية في مختلف الميادين . ومن ثم فلا غرابة في أن نجد في الفن القلعي ، الى جانب التأثير البيزنطي والفاطمي<sup>(19)</sup> تشابهاً بين بعض الأساليب والزخارف والأشكال السائدة في الفن القلعي ، وبين بعض الآثار العراقية والفارسية المتعارفة في القرن الخامس الهجري .

والى جانب هذه القصور الثلاثة ، كانت القلعة تحتوي على عدد آخر من القصور ومنازل الأمراء ، ولكنها كلها عفت واندثرت معالمها فلم يمكن التعرف حتى على مواقعها ، هذا إذا استثنينا قصر السلام الذي يرجح أن يكون موقعه في الجنوب الغربي في المدينة ، قرب باب الجنان محاذياً للشارع المؤدي من باب الجنان الى باب الأقواس<sup>(20)</sup> .

---

(19) ومثال ما لاحظته المهندس المعماري المستشرق Saladin من التشابه بين مدخل المهديّة ومدخل قصر المنار . راجع مقاله المعنون :

Notes sur les monuments arabes, Bult. archéologique, 1905, p. 189.

(20) قصر السلام مشهور في كتب التاريخ العربية . وهو الذي يذكره ابن خلدون غلطاً باسم قصر الشام في طبعة بولاق .

وهذا المبنى الذي كان من غير شك أثراً عظيماً أمحى تماماً ولم يبق منه سوى آثار حيطانه المنتشرة وسط المزارع .

وأما قصر العروسين<sup>(21)</sup> فكل ما بقي من آثاره هي تلك الأبيات التي يندب معالمة فيها الشاعر أبو عبدالله بن علي بن حماد حين يقول :

أين العروسان لا رسم ولا طلل      وأين ما شيدته القادة الأول  
ومجلس القوم قد هب الزمان له      يجادث قل فيه الحادث الجلل

ومن بين آثار القلعة التي تتسم بأهمية خاصة، فنار مربع يبلغ طوله 22 متراً وضع أعلاه جهاز مزود بالمرايا ويستعمل للاتصال بالخارج بواسطة إرسال واستقبال الإشارات الضوئية . وقد روى بعض المؤرخين، ومن بينهم ابن خلدون، أن الاتصال كان يقع بواسطة هذا الفئار ببجاية وتونس وغيرهما .

---

(21) . ينبغي تجنب الخلط بين قصر العروسين المشهور في قلعة بني حماد وقصر آخر كان يحمل نفس الاسم في مدينة قابس . وقد ذكر التيجاني في رحلته (النسخة الخطية ورقة 48 وجه) إن الناصر ابن علناس هو الذي بنى قصر العروسين .

وفيما يتعلق ببقية القصور، فقد ذكر ابن خلدون (طبعة الجزائر 1/223) إن المنصور هو الذي بنى قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السلام . وقد لاحظ دوبيلي (المصدر المذكور ص 22) أن فترة سنة واحدة - وهي الفترة التي تمتد بين تاريخ اعتلاء المنصور العرش وتاريخ انتقاله إلى بجاية - لا تكفي لبناء أربعة قصور . ولكن هذا الباحث فاته أن المنصور قد تولى الحكم في سنة 581 وانتقل إلى بجاية في سنة 483 هـ . (ابن خلدون، المصدر المذكور وابن الأثير 10/115) . فهذه الفترة إذاً تمتد على سنتين لا سنة واحدة . هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فنحن نعرف أن بناء المهديّة كلها - بما في ذلك القصور وغير ذلك من المباني الحكومية - لم تستغرق في رواية، سوى ثلاث سنوات (راجع ابن خلدون والعريزي، اتعاظ الخنفا، ص 24)، وفي رواية خمس سنوات (البيان المغرب 1/234 و 243) . بل إن القلعة نفسها إنما استغرق بناؤه ثلاث سنوات كما أشرنا . ومن ثم، فليس من المستغرب بناء أربعة قصور في سنتين، في وقت ازدهر فيه الفن المعماري ازدهاراً لا يمكن مقارنته بما كان عليه عند بناء المهديّة . ولكننا مع ذلك لا نستبعد أن يكون العمل قد بدأ قبل اعتلاء المنصور العرش، وأن يكون هذا الملك إنما قام بتكميل الأعمال الأخيرة في هذه القصور بعد توليه الملك .

ويرى دوبيلي أن هذا الجهاز يسمح بإرسال الرسائل الى جميع النقاط والمواقع المهمة في مملكة بني حاد<sup>(22)</sup>.

وأما روبرت، أول المنقبين في آثار القلعة، فيعتقد أن ضوء الفئار لا يمكن أن يرى إلا من سهول الحصنة والمنطقة التي تمتد حتى بو سعادة<sup>(23)</sup>.

وفي ما يتعلق بتجميل المدينة بالحدائق والرياض وجلب المياه من الخارج وتشيد الفنادق وغير ذلك من المرافق العامة، وبناء الفئار، فإن كل ذلك قد تم في عهد المنصور. صحيح أن القلعة قد بدأت حياتها عاصمة ولاية، منذ أن أقامها حاد بن بلكين، ولكن الحروب التي تعرضت لها، ولاسيما تلك التي وقعت في أيام باديس الأخيرة، ومنافسة أشير لها، كانت عوائق في طريق نموها في عهد حاد.

ولما تم الصلح بين المعز والقائد بن حاد، كان ذلك إيذاناً بمرحلة جديدة في حياة القلعة. ولكن قلعة أبي طويل<sup>(24)</sup> لم تصبح عاصمة إفريقية الشمالية وترتفع الى مصف العواصم الإسلامية الثلاث المعاصرة لها، إلا بعد سقوط القيروان ونهب حشود بني هلال لها في سنة 449 هـ (1057 م).

وقبل هذا التاريخ، كان زحف العربان الذي ينشر الخراب والفوضى حيثما حلت القبائل التي أطلقها خليفة القاهرة للقضاء على حضارة البربر في إفريقية، يدفع أمامه نحو الغرب بأفواج متوالية من العلماء والتجار والصناع والأعيان الذين يطلبون الأمن لأنفسهم ولأموالهم. وكانت القلعة بمناعتها وبمرافقها تقدم

---

(22) المصدر المذكور، ص 39.

(23) المصدر المذكور، ص 129.

(24) يفرد البكري بإيراد هذه التسمية. ولما كان المؤرخون لا يذكرون لحاد هذه الكنية، فقد افترض البارون دوسلان، مترجم البكري، أن يكون «أبو طويل» كنية لحاد. (راجع الترجمة الفرنسية لكتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص 105)

للاجئين اليها الشروط التي تكفل لهم حياة استقرار جديدة .

وبعد سقوط القيروان، التي كانت المركز الرئيسي للتبادل التجاري بين المشرق والمغرب، تحولت طرق القوافل التي كانت تأتي من افريقية الوسطى والعراق والشام والحجاز ومصر الى مدينة القلعة<sup>(25)</sup>، فلم يمض سوى وقت قصير حتى أصبحت القلعة، كما يصفها الشريف الإدريسي الذي كان معاصراً لها، « من أكبر البلاد قطراً وأكثرها خلقاً وأغزرها خيراً وأوسعها أموالاً وأحسنها قصوراً ومسكن وأعمها فواكه وخصباً، وحنطتها رخيصة ولحومها طيبة سمينه »<sup>(26)</sup> .

ويذكر ابن خلدون أن حماداً قد استكثر فيها « القلعة » من المساجد والفنادق، فاستبحرت في العبارة واتسعت في التمدن ورحل اليها من الشغور القاصية والبلدان البعيدة طلاب العلوم وأرباب الصنائع لنفاق أسواق المعارف والتجارة والصنائع بها<sup>(27)</sup> .

وقد ازدهرت في القلعة بعض صناعات الترف التي تتطلبها حياة القصور والطبقات الثرية، فطبقت شهرة هذه المدينة بها الآفاق، وكان التجار يسعون لاستجلاب منتجاتها من مختلف بلدان العالم الإسلامي . ومن هذا القبيل ما ذكره صاحب كتاب الاستبصار عن الثياب القلعية . فقد روى هذا المؤرخ ان الثياب التي تصنع في القلعة لا مثيل لها في الجودة . وأنها « كانت أرفع حتى من الثياب التي تنسج في جدة وان نوب الأعيان المصنوع في القلعة يساوي بضعة دنانير »<sup>(28)</sup> .

(25) راجع : Maurice Lombard, l'Islam dans sa première grandeur, p. 74 .

(26) الإدريسي، ص 86 .

(27) العبر 6/ 171 .

(28) الاستبصار، ص 167-169 .

والثياب القلعية هي التي تعرض لها يا قوت بالوصف التالي حين يقول :

« وبها » القلعة « الأكسية القلعية الصفيقة النسيج الحسنة المطرزة بالذهب . ولصوفها من النعومة والبصيص بحيث ينزل مع الذهب بمنزلة الأبرسيم » (29) .

وقد كان ما أصابته القلعة من الازدهار الفني والعلمي نتيجة طبيعية لحالة الرخاء والتقدم الاقتصادي الذي عرفه المغرب الأوسط في عهد بني حاد .

ومما تجدر الإشارة اليه في هذا المقام ان السهول المجاورة للقلعة ، ولاسيما سهول الحضنة التي كانت ولا تزال مشهورة بوفرة وجودة ما تنتجه من أنواع الحنطة والشعير كانت كلها أراضي خصبة تنتشر فيها الغياض والبساتين التي كانت تمد القلعة بمختلف أصناف الحبوب والفواكه .

وقد وصف الادريسي ما كانت تدره هذه المنطقة من الخيرات في العصر الحمادي قائلاً :

إن « الحنطة تخزن بها » القلعة « العام والعامين ولا يدخلها الفساد ولا يعثرها تغيير . ولها من الفواكه المأكولة والنعم المنتخبة ما يناله الإنسان بالنمن اليسير .

ولحومها كثيرة وبلادها وجميع ما ينضاف اليها تصلح فيها السوائم . وفلاحتهم إذا كثرت أغنت وإذا قلت كفت . فأهلها أبد الدهر شباع وأحوالهم صالحة » (30) .

وفي ظل بني حاد كانت تعيش في القلعة بقية من المسيحيين الأهالي أتيحت لها الحرية التامة لممارسة عقائدها الدينية . وكانت لدى المسيحيين كنيسة

(29) معجم البلدان 4/ 163-164 .

(30) الادريسي ص 68-91 .

كبيرة مكرسة للعدراء تابعة لأسقفية بونه<sup>(31)</sup> تقع في حي جراوه الشعبي، غير بعيد من موقع قصر المنار. وكان موقف ملوك بني حماد إزاء هذه الطائفية في مختلف العصور، ولا سيما في عهد الناصر، موقف التسامح، بل والرعاية والعطف، مما سمح لها بالاندماج في الحياة القومية وبالمساهمة في مختلف ألوان النشاط الاقتصادي والثقافي. وقد كانت سياسة بني حماد نحو رعاياهم المسيحيين موضع تقدير أوروبا عموماً، بل وكسبت للناصر بني علناس صداقة الكنيسة وعلى رأسه البابا جريجوري لسابع<sup>(32)</sup>.

كان موقع القلعة ونفوذها السياسي وقوتها العسكرية أموراً من شأنها أن تثبط عزائم الغزاة والطامحين للسيطرة. ولكن ذلك لم يحل دون أن تتعرض للزحف والحصار أكثر من مرة. وفي كل مرة كانت هذه العاصمة الباسلة تخرج من المحنة ظافرة لتستأنف رسالتها التاريخية. وكل شيء يدل على أن القلعة عندما أفل نجمها، وهي في أوج عظمتها، لم تكن إلا في بداية حياتها.

---

(31) كانت المسيحية قد أصابها كثير من الضعف في ذلك الوقت في افريقية الشمالية. فبينما كان عدد الأساقفة في القرن الرابع الهجري في هذه البلاد يربو على المائتين، إذا به في سنة 445 لا يتجاوز خمسة، بما في ذلك أسقف بونه. لمزيد من المعلومات في هذا الموضوع راجع

(De Mas Laterie, Aperçu des relations commerciales, p. 125).

وأما كنيسة القلعة، فإن هذا المؤلف يذكر أن آخر ما بلغنا من أخبارها يعود إلى سنة 508، أي بعد سقوط دولة بني حماد بحوالي نصف قرن. على أن De genural يقول أن المسيحيين الذين كانوا يعيشون في القلعة في العصر الحمادي لم يكونوا من الأهالي بل مجرد مهاجرين من البلاد المسيحية. (Revue Hesperis, t. XV, 1932) ونحن نلاحظ أن الوثائق التي تنصل بوجود كنيسة في القلعة لا يتطرق إليها الشك. وكذلك يبدو أن من غير المحتمل أن تأتي جماعة من المهاجرين المسيحيين من أوروبا لتبني كنيسة في القلعة، في وقت كانت فيه المسيحية تسير في طريق الانقراض والفناء في المغرب (راجع أيضاً: 205, p. 1945, Paris, Revue Historique, Courtis).

(32) راجع: اسماعيل العربي، بين الناصر بن علناس والبابا جريجوار السابع، مقال في صحيفة الشعب، 27 مارس، 1974.

ومن يدري، فلولا الغزو الهلالي لأمكن أن تظل القلعة، مع دمشق وبغداد والقاهرة واحدة من عواصم الاسلام ومركزاً من مراكز الحضارة العربية على مر العصور.

ولكن سقوط القلعة لم يكن نتيجة لهزيمة عسكرية (مثل سقوط بغداد في يد التتر)، وإنما كان أثراً من آثار الخراب الذي نشره العرب الهلاليون حولها ونتيجة طبيعية لخلق شرايين الحياة الاقتصادية في افريقية والمغرب الأوسط.

وإذا كانت مدينة من المدن لا تستطيع أن تعيش إذا قطعت عنها مجاري المياه، فهي بالأحرى، لا تستطيع مقاومة دواعي الفناء حين تنقطع عنها طرق التجارة وتتعرض موارد تموين أسواقها للنفاذ.

ومهما يكن من شيء فقد حلت حشود العربان بضواحي القلعة وحولوا غياضها ومزارعها الى مراعى لابلهم، بعدما نهبوا البوادي وأخضعوا من رضي بالبقاء فيها، للفوضى والذل والهوان. ولما فشلت سياسة بني حاد - كما فشلت سياسة المعز بن باديس من قبل - وعجزوا عن إدماج هذا العنصر الأجنبي المخرب، قرر الناصر نقل عاصمة المملكة الى بجاية التي كانت جبال بلاد القبائل تمثل سداً يحميها من عبث العربان. وكذلك انتقل الناصر على رأس حكومته الى العاصمة الجديدة، بجاية، في سنة 383 هـ (1090 م).

على أن هذا التحول لم يضع حداً نهائياً لحياة القلعة السياسية. فإن لدينا أكثر من دليل واحد على أنه كان لبني حاد خلال فترة تقرب من أربعين سنة عاصمة في الجنوب وأخرى في الشمال - تماماً كما كان للزيريين عاصمتان، أشير، والقيروان<sup>(33)</sup>. وقد كان اختفاء القلعة، مثل ظهورها على المسرح

---

(33) فإن المنصور عندما قفل راجعاً من غزو المغرب عقب زحفه على تلمسان، لم يعد الى بجاية، بل الى القلعة. وقد ذكر ابن خلدون أن باديس قد انتقل بدوره الى بجاية.

السياسي، تدريجياً، حيث ظلت تقاوم عوامل الفناء، بعدما أصبحت مدينة عادية، حتى عقب زوال ملك بني حماد، وعلى الرغم من الخراب الذي أنزله بها عبدالمؤمن في سنة 547 هـ. فقد ظل في القلعة عدد من السكان على الأقل حتى أواخر القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي). وبعدها استولت عصابات بني غانية الذين خرجوا من جزر البليار على بجاية في سنة 581 هـ ساروا الى القلعة وحاصروها ثلاثة أيام. وبعد مقاومة عنيفة تم لهم الاستيلاء عليها.<sup>(34)</sup>

وفي سنة 918 هـ (1512 م)، ظهرت القلعة على مسرح الأحداث إثر احتلال الأسبان لمدينة بجاية. فإن العباس الحفصي الذي دخل في نضال عنيف مع عمه، قد التجأ الى القلعة فاراً أمام سلطان قسنطينة. ومن المحتمل أن تكون القلعة قد استمرت فترة أخرى بعد ذلك حصناً صغيراً، أو قرية خاملة. ولكن الوثائق التي بين أيدينا لا يرد فيها ذكر لقلعة بني حماد بعد هذا التاريخ. وكذلك اخت أعظم مدن الغرب الأوسط والتي لعبت دور العاصمة خلال قرن كامل من صفحات التاريخ. ولكن ذكرى القلعة لا تزال حية في نفوس القرويين المجاورين لها وفي الأغاني والقصص الشعبية، وخصوصاً في نفس أحد أحفاد حماد بن زيري الذي يتفجع على عاصمة أجداده المندثرة بالأبيات التالية:

ألا ليت شعري هل أبين ليلة	بوادي الجوى ما بين تلك الجنادل
وهل أسمعن تلك الطيور غدية	تجاوب في تلك الغصون الموائل
وهل أردن عين السلام على الصدى	فأبرد من حر الضلوع النواحل
وأنظر طيقان المنسار مطلسة	على الروضات الزاهرات الخائل

---

(34) راجع ابن خلدون (طبعة الجزائر 1/250). وقد ذكر المستشرق A. Bel في كتابه عن بني غانية (ص147 هامش 1) أن غزو بني غانية للقلعة إنما تم وفق نصائح حلفائهم من أنصار بني حماد الذين أرادوا استعادة مدينتهم.

كان القباب المشرفات بأفقه نجوم تبدت في سعود المنازل  
فصبر جميل غير أن إصابتي ستبقى بقاء الطالعات الأواقل

#### مراجع البحث:

- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق ونشر C. J. Porenberg، ليدن، 1891 (14 جزءاً).
- ابن خلدون (عبدالرحمن)، كتاب العبر، طبع بولاق 1867 (7 أجزاء). وكذلك طبعة الجزائر.
- البكري (أبو عبيد) كتاب المغرب في ذكر افريقية والمغرب، تحقيق ونشر البارون دوسلان (الطبعة الثانية) باريس 1965.
- الشريف الادريسي، صفة المغرب (مقتبس من نزهة المشتاق) تحقيق ونشر دوزي ودو خويه، ليدن، 1816.
- ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق ونشر اسماعيل العربي، بيروت، 1970.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق ونشر وستنفيلد، ليبزيج 1966.
- المقرئزي، اتعاظ الحنفا، بيت المقدس، 1908.
- رحلة التيجاني، النسخة الخطية المحفوظة في المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم 6685.

#### المجلات والصحف:

- مجلة الثقافة.
- Revue Africaine (عدة أعداد).

Annales Eco. Soc. et civilisation

Bult. de la Soc. Arch. de Constantine

Hespéris

Bel (A.).-Les Banou Ghânya, 1903.

De Beylie (Général).-La Kalaâ des Béni Hammad, Paris, 1908.

Ferrand.-L'histoire des villes de la province de Constantine, Paris, 187-71.

GOLVIN (L.).-Le Maghreb central à l'époque des Zirides.

MARÇAIS (G.).-L'Architecture musulmane de l'occident, Paris 1957.

MARÇAIS (G.).-Poterie et Faïence de la Kalaâ des Bani Hammad, Constantine, 1913.

MARÇAIS (G.).-Manuel d'Art musulman, 1926.

LOMBARD (M.).-L'Islam dans sa première grandeur (VII-XI<sup>e</sup> siècle), Flammarion, Paris, 1974.

LOMBARD (M.).-Une carte de bois dans la Méditerranée orientale (Annales Eco Soc. et Civilisation).

DE MAS LATÉRIE.-Aperçu des relations commerciales de l'Italie septentrionale avec l'Algérie au Moyen Age, Paris, 1845.

GSELL (St.).-Atlas Archéologique, 1911.

ROBERT (A.).-La Kalâa, Bult. Soc. Arch. de Constantine, 1903.



## بجاية

### عاصمة بني حماد الثانية

يقع جون بجاية الذي يرسم بتقوس شبه اهليجي عرضه نحو 28 ميلاً وعمقه في المتوسط ثمانية أميال، في منتصف امتداد شواطئ الجزائر. ويتصل هذا الجون الذي يشكل ما يشبه مسرحاً ضخماً وبحيرة، مباشرة بسهل الرمال الناعمة، ويمتد في أسفل المدينة العتيقة في الاتجاه الغربي نحو ميلين. وفي هذا السهل ينصب وادي بجاية (وادي الساحل) الذي كانت السفن تمخره في العصر الحمادي وتصد فيه من البحر مثقلة بالبضائع حتى مدينة بجاية<sup>(1)</sup>. ويبتدىء تقوس هذا الجون شرقاً عند رأس العوانة (كافالو)، وينتهي غرباً عند الذراع الذي ينحدر من جبل أميسون<sup>(2)</sup>، (جبل جورايا حالياً)<sup>(3)</sup>، ويمر بالمكان المعروف باسم ملعب الذئب، ثم بالتلال التي يطلق عليها البجائيون اسم « سبع جبال »، ثم ينغمس في البحر تاركاً فوق السطح ثلاثة رؤوس، هي

---

(1) قارن الادريسي، ص 90 ومحمد ابراهيم بن يحيى الملقب بالوطواط (منهج الفكر ومباحج العبر مخطوط محفوظ في مكتبة أكسفورد تحت رقم 957 ورقة 105، ظهر).

(2) تهجئة الشريف الادريسي. ويكتب أحياناً: أميسول.

(3) يقع في رأس هذا الجبل قبر ولية (للا جورايا) يقصده الناس للتبرك من كثير من نواحي بلاد القبائل. وأما اسم جورايا فينقل إنه مأخوذ من كلمة جورا الوندالية. ومعناها في هذه اللغة: الجبل.

رأس بوحاي (4) في الوسط، ورأس بواك (5) في الجنوب، والرأس المثقوب في الشمال (6). وتعلو هذا الرأس تلة صخرية تحتها مغارة مرتفعة وعميقة حفرتها الأمواج التي تتدفق إليها في غير انقطاع منذ أحقاب طويلة. ومن وجود هذه المغارة التي تخترق الكتلة الصخرية من جانبيين، أخذ الرأس اسمه (المثقوب). وتمتد المشارف الشمالية للجبل من الرأس المثقوب إلى أعماق الجون، وفيما بين ذلك تلؤل ومنخفضات شديدة الانحدار، ولكنها في جملتها معتدلة الارتفاع. وعلى هذه المشارف بنيت مدينة بجاية.

وبين رأس بواك والرأس المثقوب يعترض مضيق يسمى بوادي القروود تغطيه أشجار الزيتون والخروب، وهو من أجل ما تقع عليه العين في هذه المنطقة (7).

والذراع الذي ينحدر من جبل جورايا يشرف جنوباً على الجون، بينما يمتد البحر في شماله على مد البصر.

وعلى يمين المدينة ترتفع قمم جبال توجه الشاهقة. وتأتي بعد ذلك، محاذية للشاطئ، جبال بوعنداس وضروس جبال بني تيزي الصخرية وأدراو أملال (الجبل الأبيض) وتيزي أو زرزور، المتفرعة عن سلسلة جبال البابور.

وأما جبل جورايا، فقد اشتهر بعيونه وبساتينه الجميلة كما عرف في العصور القديمة بأنواع من النباتات الطبية التي يكثر وجودها فيه. ومن هذا السياق يقول الشريف الإدريسي:

---

(4) يحمل في الخرائط الفرنسية اسم Le Cap Noir.

Cap Douac (5)

Cap Carbon (6)

(7) في هذه المنطقة نزل إلى البر بيدرو دونفار على رأس الحملة الأسبانية في سنة 1509 م.

« وجبل أميسون سامي العلو صعب المرتقى . وفي أكنافه جل من النباتات المنتفع بها في صناعة الطب، مثل شجر الحضض والسقولوفندوريون<sup>(8)</sup> والبرباريس<sup>(9)</sup> والقنطوريون<sup>(10)</sup> والزراوند<sup>(11)</sup> والقسطون والابستين<sup>(12)</sup> »<sup>(13)</sup> .

وكذلك اشتهر جبل جورايا أيضاً بما يزحف فيه من العقارب ذات اللون الأصفر، وبكثرة ما يعيش فيه من القروء<sup>(14)</sup> .

وفي السهل الذي يمتد على ضفة النهر، كانت تنتشر رياض بجاية وبساتينها التي ينتزه فيها السكان في عهد بني حماد<sup>(15)</sup> . وهذه المنطقة ضيقة لأن مساحتها لا تزيد عن فرسخين ( ستة أميال ) إلا أن تربتها طيبة كثيرة الخصب وتتمتع فيها أشجار البرتقال والليمون والتين والزيتون والحوار بمناعة وقوة نادرة .

وقد وصف مؤلف كتاب الاستبصار هذه السهول بأنها « كثيرة الفواكه والثمار وجميع الخيرات، وهي مشوقة نزيهة مطلة على البحر وتحيط بها جبال دورها نحو عشرة أميال وتسقيها عيون وفيها أكثر بساتينهم »<sup>(16)</sup> .

وتقع مدينة بجاية على درجة 2 و 45 دقيقة من خط الطول الشرقي و 36

---

Scolopendre (8)

Berberis. (9)

Le Grand Centauré (10)

Aristolocia (11)

L'Absenth. (12)

(13) الادريسي، ص 91.

(14) قارن الادريسي، ص 91 والاستبصار، ص 129 - 130.

(15) ابن سعيد المغربي ( كتاب الجغرافيا ) ص 142.

(16) الاستبصار، ص 129 - 130.

درجة و 45 دقيقة من خط العرض الشمالي<sup>(17)</sup> . ومتوسط درجة الحرارة فيها 17 درجة. ويحيط المدينة وميناءها من تيارات الرياح جبل جورايا، فهوؤها صحي وجوها معتدل .

وكان موقع بجاية البحري الحصين، ومرفؤها الطبيعي، قد لفت الأنظار اليه منذ أقدم العصور. فبعدما شيد الفنيقيون مدينة قرطجنة في القرن السابع قبل الميلاد، اتجهت أنظارهم الى الشواطئ الغربية الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، وأنشأوا على هذه الشواطئ عدداً من المراكز التجارية البحرية. وكانت بجاية أحد هذه المراكز، التي سسميها الرومان صلا<sup>(18)</sup>، تلك التسمية التي ربما ورثوها عن الفنيقيين .

على أن هذه الفترة من حياة بجاية لا تزال تتحدى جهود الباحثين، لأن الوثائق الأثرية والتاريخية التي بين أيدينا تلتزم حيالها الصمت التام. والأثر الوحيد الذي عثر عليه المنتقبون هو الحجر الذي وجد اسم المدينة منقوشاً عليه<sup>(19)</sup> .

وبعد سقوط قرطجنة، وقبل أن يحتل الرومان بجاية، كانت القرية ومنطقتها من ضمن ممتلكات الأمير النوميدي ماسيناس الذي سيصبح حليفاً للرومان فيما بعد .

على أن هزيمة يوغورطة ستغير وضع روما من حليف الى مستعمر محتل لنوميديا الغربية .

ويقول المؤرخون الرومان إن بجاية كانت من ضمن المستعمرات الأولى التي أنشأها القيصر أوجست، بعد هذا التحول، في سنة 33 ق . م .

Gsell (St) - Atlas Archéologique, feuille 7, N° 12. (17)

Saladac. (18)

G. Marçais - Les Poteries et faïences des Bougies, P. I. راجع (19)

وبعد هذا التاريخ بشأن سنوات أعاد أوجست ولاية بجاية الى جوبا الثاني لترضيته ، في مقابل ضم الرومان بقية المملكة التي ورثها الى مستعمراتهم .

وفي عهد القيصر أوجست ، قام الرومان أيضاً ببناء قلعة حصنة (Tubusuptus) على الضفة اليسرى لوادي الساحل ، على مسافة ثمانية فراسخ من بجاية ، لا تزال آثارها قائمة في تكلات فوق جبال أفنانين .

وهذه التحصينات اعتبرت القبايل عملاً استفزازياً ورمزاً للسيطرة التي كانت روما تسعى لفرضها عليهم . ولذلك فقد قاموا بثورة على الرومان بقيادة زعيم يسمى تكفارينا وشدّدوا حصاراً على قلعة تبوسبتوس في سنة 25 ق . م .

على أن القائد الروماني .ولابلا Dollabella زحف على الثوار على رأس قوة مهمة من بجاية واضطّهرهم الى فك الحصار عن تلك القاعدة .

ولكن هذه لثورة لم تكن الثورة الأخيرة التي قامت بها منطقة بجاية ضد الرومان ، فقد كانت بلاد القبائل الغيورة على حريتها واستقلالها ترى دائماً في المنشآت الرومانية خطراً يهدد سلامتها وحريتها . ولذلك كان سلاح المقاومة دائماً مصلّتا في أيدي سكان هذه المنطقة ضد الرومان ، مثلما كان بعد ذلك بنحو عشرين قرناً ضد الفرنسيين .

وقد تعاقبت ثورات القبائل المجاورة لبجاية على روما واتسع نطاقها مع مرور الزمن ، كما تعاقبت الحملات العسكرية التي كانت روما توجهها الى هذه المنطقة حتى بلغ العراك أوجه في ثورة الكينكاجنسيان Quinquegenetiens في سنة 297 م . وقد كانت هذه الثورة من الخطورة بحيث أن الأمبراطور ماكسيميان هرقل ، رأى أن من الضروري أن يتولى بنفسه قيادة الجيش الذي وجهته روما لإخضاع بلاد القبائل .

وفي جميع هذه الحروب والمعارك، مثل الحروب والمعارك التي سيشنها الوندال، دفعت بجاية اتاوة باهظة بدماء أبنائها وأموالهم وبراحة سكانها .

وبعد أجيال من النهب والقتل والتخريب، قيل أن الوندال اختاروا بجاية لتكون عاصمة مؤقتة لهم، وذلك على الرغم من أن الحملات البحرية التي كانوا يقومون بها على أراضي قرطجنة كانوا يوجهونها من بونة

ومنها يكن من شيء فإن الوندال قد جعلوا قرطجنة عاصمة لهم ابتداء من سنة 439 م. (20).

وبعدما طرد البيزنطيون الوندال من افريقية في سنة 534 م. تنفست بلاد القبائل الصعداء وساور الناس أمل بأن هذه المناطق ستعود الى السلام والرخاء الذي عرفته في عهود سابقة .

وان الأمبراطور جاستينيان سيقوم بإصلاح ما أفسده الوندال .

ولكن ذلك لم يكن سوى وهم تكلفت الحقائق بتبديده بعد حين، لأن أعمال البيزنطيين الأولى في إعادة بناء بعض المدن والقرى وتزيينها، سرعان ما توقفت وعرف الناس بعد ذلك وجه البيزنطيين الحقيقي، لأن حكمهم كان أشد قسوة وتعسفاً من حكم الوندال أنفسهم .

وفي العصر العربي الأول، كانت بجاية قد تحولت الى قرية صغيرة يقطنها صيادو السمك من الأندلس ومن بلاد القبائل، وكانت تملك أرضها قبيلة بربرية تسمى بجاية، منها أخذت المدينة اسمها العربي (21) كما حملت اسم

(20) لا يتسع هذا المقام لعرض تفاصيل من تاريخ بجاية في عصر الوندال ولكنه لمن يريد التوسع في الموضوع مراجعة .

M. J. Yamaski - L'Afrique chrefienne sous le domination des Vandales.

(21) يقول ابن خلدون: « وفي سنة 460 افتتح (الناصر) جبل بجاية وكان فيها قبيل من البربر يسمون بهذا الاسم إلا أن الكاف بلغتهم ليست كافاً، بل هي بين الجيم والكاف. فلما افتتح هذا الجبل اختط به المدينة وسماها الناصرية باسمه » العبر 174/6.

بانيها، الناصر بن علناس فيما بعد، وأصبحت تعرف أيضاً بالناصرية.

ويرجع اختيار بني حاد لهذا الموقع لبناء عاصمتهم الثانية الى الظروف التاريخية التي أشرنا اليها، والى تدهور مركز القلعة. فقد رأينا أن العرب الهلالين بعدما خربوا المدن والبوادي وقطعوا طرق القوافل في المناطق الشرقية والجنوبية، وجعلوا من القلعة جسماً هامداً ولم تعد تستطيع القيام بدور العاصمة.

وكذلك اتجهت صنهاجة، هذه القبيلة التي ألفت أن تبني عواصمها في الجبال الداخلية الى الاستعاضة عن التجارة مع بلاد السودان بالتجارة مع أوربا، واستبدال طرق القوافل بالمواصلات البحرية مع بلاد الشرق والشواطئ الأوروبية. وقد وفر موقع بجاية الذي تحميه جبال بلاد القبائل من تسلل العرب، جميع الشروط الضرورية لانشاء شبكة جديدة من المواصلات، وذلك فضلاً عن الامكانيات التي ينطوي عليها هذا المكان لبناء قوة عسكرية بحرية.

وقد رأينا كيف اقتنع الناصر بن علناس بدون صعوبة بنصيحة ابن البعيع وسارع الى استجلاب العمال والمهندسين للشروع في البناء في سنة 460 هـ. وبينما كان العمل يجري على قدم وساق كان الناصر يقيم في خيمة ضربها في الحي الذي اتخذ منه ذلك الوقت اسم «دار الناصر» والذي يقع في المكان المعروف الآن بمحصن كلوزيل، تحت مشارف الجبل. ومن هذه الخيمة، كان العاهل الحمادي يصدر أوامره للتخطيط والتنفيذ. وقد بدى أولاً في بناء السور المحصن الذي يبتدىء عند الشاطئ ويصعد متدرجاً مع الجبل في شكل مثلث ضخم حتى يقتحم صخور جورايا الوعرة في مكان يبلغ ارتفاعه 660 م عن مستوى البحر. ويمتد هذا السور الذي يمكن مشاهدة آثاره حتى اليوم، في خط يساير تعرج الشاطئ ويحيط بالمدينة من جانب البحر أيضاً.

وأما السور الذي يحيط بالمدينة الناحية الغربية، فإنه ينزل في خط شبه مستقيم حتى يصل الى ضواحي مقام سيدي التواقي . وبعد ذلك ينحرف السور الى الشمال حتى يصل الى حصن عبدالقادر الذي كان يدعى في العصر الحمادي بحصن البحر . وقد أعاد الأسبان أثناء احتلالهم للمدينة، بناء هذا الحصن حتى أنهم لم يبقوا على ما كان قائماً منه من البنيان الحمادي إلا على الأساس . وهذا السور سيقابلنا مرة أخرى، إذا عرجنا الى الشمال محاذين للبحر .

وعند منتصف الطريق الى سيدي يحيى، ينفتح في السور باب عفت آثاره نيوماً وائخى . وكان يسمى في العهد الحمادي « باب أميسوم » . وبعد ذلك يتجه السور ملتوياً نحو جورايا، ولكنه قبل أن يصل الى النهاية يقف فجأة . وربما كان ذلك لأن مهندسي بني حماد رأوا في الأرض الوعرة في هذه المنطقة تحصناً طبيعياً يغني عن السور . وبعد ذلك، يتجه السور ملتوياً نحو جورايا .

وربما كانت الأرض الصخرية الصلبة قد أجبرتهم على الاكتفاء بالامتداد الضروري لهذا الخط الدفاعي .

وعلى كل حال، فإن هذا الموقع بالذات، هو الذي وجد فيه الأسبان ثغرة مفتوحة واقتحموا المدينة منها عندما استولوا عليها .

وفيما عدا ذلك، فإن سور المدينة يساير الأرض في ارتفاعها وانخفاضها . وكذلك الأبراج التي تدعمه والتي يبلغ ارتفاعها ستة أمتار .

وأما عرض السور، فيتراوح بين 90 سنتمراً ومترين، في بعض الجهات .

وأما مرسى بجاية المأمون من الرياح فقد كان في العصر الحمادي أعظم ميناء بعد الاسكندرية، على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط . وكانت السفن التجارية تقصده من أوروبا ومن الشرق العربي، بل وحتى من بلاد الصين والهند لتحمل من بجاية وإليها مختلف أنواع البضائع .

وقد كانت في بجاية في العصر الجهادي دار لصناعة السفن والمراكب من كل الأنواع. والخشب الذي يستعمل في هذه الصناعة كان يجلب إليها من بلاد القبائل المجاورة. ومن هذه الجبال أيضاً كان يستخلص القار الذي يصهر في بجاية ويستعمل في صناعة السفن وغير ذلك من الأغراض. وقد تعرض الشريف الإدريسي الذي كان يكتب في منتصف القرن السادس الهجري لوصف بجاية في عصره فقال<sup>(22)</sup> إن «مدينة بجاية في وقتنا هذا هي مدينة المغرب الأوسط. والسفن إليها مقلعة ولها القوافل متجهة والأمتعة إليها برأً وبحراً مجلوبة والبضائع بها نافقة، وأهلها مياسير. وبها من الصناعات والصناعات ما ليس بكثير من البلاد. وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق. وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة، ولها بواد ومزارع. والخنطة والشعير بها موجودان بكثرة والتين وسائر الفواكه بها ما يكفي لكثير من البلاد.

وبها دار صناعة لانشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحراي، لأن الخشب في أوديتها وجبالها كثير، ويجلب إليها من أقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران.

وبها معادن الحديد الطيب موجودة. وبها الصناعات كل غريبة ولطيفة ومدينة بجاية قطب لكثير من البلاد»<sup>(23)</sup>.

وأثار مدينة بني حماد دراسة الآن تماماً، إذا استثنينا السور الذي سبق وصفه، وضريح سيدي التواتي الذي يعتبر، على الرغم من الاصلاحات التي

---

(22) الإدريسي، ص 90-91. قارن الكامل، 31/10، معجم البلدان، 95/1، الدمشقي ص 255 : مرصاد الاطلاع. 127/1. ويلاحظ ان أبا عبيد البكري لم يكرس سوى سطرين لبجاية. وذلك لأن هذا المؤلف كان يكتب كتابه في الوقت الذي كان العمل جارياً فيه لبناء المدينة.

(23) من الصناعات الطريفة التي اشتهرت بها بجاية في أوروبا في العصور الوسطى صناعة الشمع الذي كانت المدينة تصدر منه كثيراً، بحيث أصبحت الشمعة، كما تقول القواميس الفرنسية تحمل اسم المدينة باللغة الفرنسية حتى الآن.

أدخلت عليه، نموذجاً للفن المعماري الحمادي الذي يسود آثار القلعة .

وقد كان للمدينة عدة أبواب نعرف مواقع بعضها ونجهل مواقع البعض الآخر. فإن باب أميسون، لا تزال بقاياه قائمة على الطريق المؤدية الى جبل القروء. وباب المرسى يرجح أن يكون في منطقة بريحجة السفلى .

وفي الجانب الشمالي الغربي، يقع باب البنود الذي كان المدخل الرئيسي الى المدينة<sup>(24)</sup>، والذي يمكن التعرف عليه في باب فوقه الحالي. ومن أبواب بجاية المشهورة أيضاً باب اللوز، الذي اقتحم منه بنو عانية القصة. وهذه الأبواب كلها مندثرة. وأما باب البحر الذي يفضى، كما يدل على ذلك اسمه الى البحر، فإن آثاره لا تزال محفوظة في حالة جيدة نسبياً وهذا الباب مبني بالحجر والطوب المكوي الذي لا يستعمل إلا نادراً في مباني القلعة، ويتخذ شكل قوس ضخم يقوم على قاعدتين مستقيمتين .

وكانت بجاية تحتوي على عدد كبير من المساجد الفخمة والمدارس والمكتبات والحمامات والقصور الحكومية، غير اننا لا نستطيع التعرف على شيء من كل ذلك. وحتى قصور الملوك والأمراء التي أشاد بعظمتها كثير من المؤرخين والشعراء، لا يمكننا التعرف إلا على مواقع ثلاثة منها - وذلك على سبيل الترجيح فقط .

ويبدو ان قصر النجم كان يقوم على التلال التي يتوجها حصن برال الحالي والذي كان يدعى حصن موسى. وقد كان بيدرو نافارو، الغازي الأسباني الذي ترك خط الدفاع الحمادي وضيق المدينة حتى تتمكن قوته الصغيرة من الدفاع عنها، هو الذي أقام هذا الحصن .

وهذا القصر لم يبق أي أثر له، إذا استثنينا الآثار الأدبية التي منها قصيدة

---

(24) المراكشي، تاريخ الموحدين، ص 164 .

ابن حديس الصقلي<sup>(25)</sup> التي يقول فيها :

أعليت بين النجم والديبران  
فضح الخورنق والسدير بحسنه  
فاذا نظرت الى مراتب ملكه  
أوجبت للمنصور<sup>(26)</sup> سابقة العلى  
قصر يقصر وهو غير مقصر  
وكأنه من درة شفافة  
لا يرتقي الراقي الى شرفاته  
عرج بأرض الناصرية كي ترى  
في جنة غناء فردوسية  
وتوقدت بالجمر من نارنجها  
وكانهن كرات تبر أحر  
إن فاخر الأترج قال له : ازدجر  
لي نفحة المحبوب حين يشمني  
مني المصبغ حين ييسط كفه  
والماء منه سبائك فضية

قصرأ بناه من السعادة بان  
وسما بقمته على الايوان  
وبدت اليك شواهد البرهان  
وعدلت عن كسرى انو شروان  
عن وصفه في الحسن والإحسان  
تعشى العيون بشدة اللمعان  
إلا بمعراج من اللحظان  
شرف المكان وقدرة الامكان  
محفوفة بالروح والريحان  
فكأنما خلقت من النيران  
جعلت صوالجها من القضبان  
حتى تحوز طبائع الإيمان  
طيباً ولون الصب حين يراني  
فبنان كل خريدة كبناني  
ذابت على درجات شاذروان

ويمضي في وصف قصر النجم فيقول :

في بركة قامت على حافاتها  
وكان برد الماء منها مطفىء  
وكانما الحيتان إذ لم تحشها

أسد تذل لعزة السلطان  
ناراً مضمرة من العدوان  
أخذت من المنصور عقد أمان

ويختتم فيقول :

فماؤه في سمكها علوية

وقبابه فلكية البنيان

(25) ديوان ابن حديس الصقلي ، القصيدة رقم 314 ص 494-496 .

(26) المنصور بن علناس .

ويقدر بعض الباحثين أن قصر اللؤلؤ الذي كانت تعلوه منارة عالية قد تهدم أيام الاحتلال الأسباني.<sup>(27)</sup> وقد ذكر صاحب الاستبصار قصر اللؤلؤ، فقال: إنها مجموعة من القصور:

« لم ير الراؤون أحسن منها ولا أنزه موضعاً فيها طاقات مشرفة على البحر عليها شبابك الحرير والأبواب المحرمة المحلية والمجالس الرحبة المبنية حيطانها بالرخام الأبيض من أعلاها الى أسفلها قد نقش أحسن نقش وزينت بالذهب واللازورد. وقد كتبت فيها الكتابات الحسنة وصورت فيها الصور الحسنة فجاءت من أحسن الصور وأتمها منزهاً وجمالاً »<sup>(28)</sup>.

وفي معرض الحديث عن قصر اللؤلؤ قال ابن خلدون إن هذا القصر من أعجب قصور الدنيا<sup>(29)</sup>.

وقد نقل دوبيلي<sup>(30)</sup> عن مخطوط لمؤلف مجهول كان في حوزة أحد البجائيين، معلومات تتصل بقصر اللؤلؤ نكتفي بالإشارة إليها بكل تحفظ. فقد جاء في هذا الاقتباس، أن المنصور بن الناصر أتم بناء قصر اللؤلؤ الذي وضع خططه أبوه، في سنة 494 هـ، ثم جعل هذا القصر مسجداً (كذا). وتحول قصر ضخم بمرافقه ومختلف أجنحته الى مسجد ليس بالأمر السهل ولا بالمعتاد، ولو أنه لا يوجد ما يمنع من أن يكون القصر قد زود بمسجد. ولكن الذي يجعلنا نقف موقف الشك من المعلومات والتفاصيل التي يشتمل عليها هذا المخطوط، هو أن الوصف الذي ورد فيه لمسجد اللؤلؤ هو، فيما

---

(27) راجع . La Revue Africaine, XII/34/.

(28) الاستبصار، النسخة الخطية المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 2225 ، ورقة 52 ،  
ظهر .

(29) العبر 6/174 .

(30) La Kalaa des Bani Hammad, p. 2. (30)

عدا بعض التفاصيل الثانوية، بعينه وصف أبي عبيد البكري لمسجد القيروان<sup>(31)</sup>. فإن عدد أعمدة مسجد القيروان في رواية البكري 414. وهذا الرقم هو الذي يعزوه المخطوط لقصر اللؤلؤ. وطول جامع القيروان 222 ذراعاً وعرضه 150 ذراعاً. وهذا أيضاً هو طول وعرض مسجد اللؤلؤ. وتعرض البكري لنفقات مسجد القيروان فقال إنها بلغت 86 ألف مثال، وهي نفس النفقات التي أوردها المخطوط لبناء مسجد اللؤلؤ. والمصدران يختلفان في نقطة صغيرة، وهي ان طول منارة مسجد القيروان 60 ذراعاً، وطول منارة مسجد اللؤلؤ 70 ذراعاً. ولكنها يتفقان فيما يتصل بعرض المنارتين وهو 25 ذراعاً.

وهذا المخطوط يبدو أنه هو الذي اعتمد عليه مترجم الجيش الفرنسي Feraud واستقى منه بعض المعلومات الذي ذكرها عن بجاية في كتابه عن مدن ولاية قسنطينة، وأهمّل الإشارة اليه. ونحن قد بذلنا جهداً غير هين لتعقب هذا المخطوط وللإطلاع عليه، ولكن بدون جدوى. وقد قادنا الاستقصاء والبحث في نهاية الأمر الى أن هذا المخطوط دخل في حوزة المستشرق هوداس، المدرس سابقاً بمدرسة اللغات الشرقية بباريس. ولما كان هوداس قد أوقف قبل وفاته مجموعة من المخطوطات التي كان يملكها لمكتبة هذه المدرسة، فقد كان الأمل قوياً في العثور على مخطوط بجاية ضمنها. ولكنه بعد تصفح هذه المجموعة، ظهر ان المخطوط لا يوجد بينها.

وإذا خرجنا من الشك الى الظن والترجيح، نجد أن بعض القرائن تدل على أن قصيدة ابن حمديس التالية تتناول بالوصف قصر اللؤلؤ.

قال ابن حمديس يصف داراً بناها المنصور بن الناصر بن علناس

---

(31) البكري، ص 22-23.

واعمر بقصر الملك ناديك الذي  
قصر لو انك كحلت بنوره  
واشتق من معنى الحياة نسيه  
أعيت مصانعه على الفرس الألى  
ومضت على الروم الدهور وما بنوا  
أذكرتنا الفردوس حين أريتنا  
أضحى بمجدك بيته مغمورا  
أعمى لعاد الى المقام بصيرا  
فيكاد يحدث للعظام نشورا  
رفعوا البناء وأحكموا التدبيرا  
للموكهم شيها له ونظيرا  
غرفا رفعت بناءها وقصورا

\* \* \*

فلك من الأفلاك إلا أنه  
أبصرته فرأيت أبعد منظر  
وظننت أني حالم في جنة  
وإذا الولائد فتحت أبوابه  
عضت على حلقاتهن ضراغم  
بمرخم الساحات تحسب انه  
ومحصب بالدر تحسب تربه  
وضراغم سكنت عرين رياسة  
فكأنما غشي لنضار جسومها  
أسد كان سكونها متحرك  
وتذكرت فتكاتها فكأنما  
وتخالها والشمس تجلو لونها  
فكأنما سلت سيوف جداول  
وكأنما نسج النسيم لمائمه  
حقر البدور فأطلع المنصورا  
ثم انشيت بناظري محسورا  
لما رأيت الملك فيه كبيرا  
جعلت ترحب بالعفاة صريرا  
فغرت بها أفواهها تكشيرا  
فرش المها وتوشح الكافورا  
مسكا تضيع نشره وعبرا  
تركت خريز الماء فيه زئيرا  
وأذاب في أفواهها البلورا  
في النفس لو وجدت هناك مثيرا  
أقعت على أدبارها لنشورا  
والسنها اللواحس نارا  
ذابت بلا نار فعدن غديرا  
درعا فقدر سردها تقديرا

وكأنما في كل غصن فضة  
وتريك في الصهريج موقع قطرها  
ضحكت محاسنه اليك كأنما  
ومصفح الأبواب تبرا نظروا  
تبدو مسامير النضار كما علت  
خلعت عليه غلائلا ورسية  
وإذا نظرت الى غرائب سقفه  
وعجبت من خطاف عجسه الذي  
وضعت به صناعة أقلامها  
وكأنما للآزورد محرم

ويختتم قائلاً:

يا مالك الأرض الذي أضحي له  
كم من قصور للملوك تقدمت  
فعمرتها وملكت كل رئاسة  
ملك السماء على العداة نصيرا  
واستوجبت لقصورك التأخيرا  
منها ودمرت العدا تدميرا

وأما قصر أميون، فيرجح أن يكون موقعه في أعالي المدينة، غير بعيد من باب كلوزيل الحالي، ويمكن الاعتقاد بأن وصف الحسن بن محمد الوزان، المدعو ليون الأفريقي، لما يسميه « الحصن » في هذه المنطقة والذي قال عنه إنه « محاط بالأسوار ومنمق بالفسيفسا والزخارف لعجبية »،<sup>(33)</sup> إنما ينطبق على قصر أميون نفسه .

وإذا صح هذا التعرف على موقع قصر أميون، كما يرى دوبيلي<sup>(34)</sup>، فإن من الممكن أن نستنتج من ذلك أن هذا القصر كان آخر قصور بني حماد

(33) راجع رحلة الحسن بن محمد الوزان 81/3 .

(34) المصدر المذكور 2، La Kalaa des Bani Hammad .

التي امتدت إليها يد الخراب، حيث ان السائح المغربي كان يكتب رحلته في النصف الأول من القرن السادس عشر.

وأما الحفريات التي قام بها بعض العلماء، فإنها لم تسفر، مع الأسف، على الكشف عن أي أثر مهم من آثار المدينة الحمادية التي كانت تمتد في رقعة أكبر من رقعة المدينة الحالية بثلاث مرات. ولكن المعلومات النزرية التي بين يدينا تسمح بالاعتقاد بأنه على الرغم من الانحطاط الذي أصاب المدينة في العصور التالية، فإن مرافقها وكثيراً من منشآتها العلمية قدر لها أن تبقى زمنياً طويلاً بعد العصر الحمادي، بل حتى بعد الاحتلال الاسباني. فقد تعرض الحسن بن محمد الوزان لوصف بجاية في عصره فقال: «إن منازلها جميلة البنيان ومساجدها ومدارسها يقيم فيها تلامذة وعلماء يدرسون الفقه والرياضيات. وفيها عدد كبير من المستشفيات والتكايا والفنادق والحمامات. وحول المدينة تمتد حدائق غناء ذات ثمار وفيرة»<sup>(35)</sup>.

وكذلك ذكر السائح الأسباني مرمول Marmol الذي جاء بعد الحسن بن محمد الوزان بوقت قصير ان «قصور بجاية ليس لها من المتانة بقدر ما لها من الرونق والجمال»<sup>(36)</sup> ثم يحدثنا هو أيضاً عن العدد الكبير الذي تشتمل عليه المدينة من المدارس والمساجد والحمامات، الخ، وعما اشتهر به سكان بجاية من الميل الى الترف واللهو.

والى جانب الصهاريج وأعمال المياه التي أنشأها بنو حماد، أو أدخلوا عليها اصلاحات، مما أنشئ في عهد الرومان، اكتشف المنقبون في بجاية مجموعة ثمينة من قطع الفخار المطلي الذي يرجع تاريخه الى العصر الحمادي. وهذه المجموعة تسود في نقشها العناصر الهندسية ومختلف أشكال النبات

---

(35) نفس المصدر.

L'Afrique de Marmol, 2/415. (36)

والأزهار. والملاحظ أنها في مجموعها تحمل طابعاً فنياً وثيق الصلة بالنزعة السائدة في تنسيق المجموعة المماثلة التي اكتشفت في القلعة والتي سبقت الإشارة إليها. ولكنها من حيث التنوع الزخرفي وانسجام الألوان، تمثل تقدماً محسوساً لهذا الفن. وهذا التشابه بين الأسلوب البجائي والأسلوب القلعي يبدو أمراً طبيعياً، إذا اعتبرنا ان العنصر العقلي كان أساساً لنهضة بجاية الفنية والأدبية. وقد قام المستشرق جورج مارسى بوضع دراسة عن هذه المجموعة الخزفية التي يحتفظ بها متحف الجزائر ومتحف قسنطينة، ونشرها مصحوبة بصور القطع في قسنطينة في سنة 1916.



## مجاية عاصمة بني حماد الثانية

### مجاية من خلال النصوص الغربية

هذه مجموعة من النصوص مقتبسة من كتب ثلاثة من الرحالين الغربيين (عربي واسباني وانجليزي) زاروا بلادنا وتجولوا فيها وسجلوا ملاحظات عن مشاهداتهم خلال رحلاتهم في اعمال تعتبر من اهم مصادر تاريخ افريقيا. والمعلومات التي تقدمها لنا، تعتبر مساهمة قيمة ولن يفوت المؤرخين الذين يعنون ببحث الفترة بين الاحتلال الاسباني لمجاية وتحريرها على يد الاتراك ان يقدروها حق قدرها. واذا كان وصف الرحالتين، العربي والاسباني، للحوادث التي رافقت الاحتلال الاسباني يتسم بالقصور، حيث لا يعتمد الا على الرواية الاسبانية، وبالتالي فهو في حاجة الى التنقيح والتكميل، فان ملاحظات «شاهد عيان» التي خلفها لنا، ولا سيما، ما يتعلق منها بالناحية الاقتصادية، وموارد منطقة مجاية وغط الحياة اليومية، وآثار المدينة وتحصيناتها التي كانت لا تزال قائمة في الوقت الذي زار فيه كل منهما المدينة، تستحق كلها ان يأخذها الباحث بكل ما ينبغي من الجد والاهتمام. وهذا التحديد الاخير ينبثق ايضاً على ملاحظات ثوماس شو، الذي كان معتمداً من قبل حكومته في بلدنا.

وهذه النصوص قدمها المؤلف في نطاق ملتقى التعرف على الفكر الاسلامي الذي عقدته وزارة الشؤون الدينية في مدينة مجاية في سنة 1975. وقد عمل على

ترجمتها كاملة بما ينبغي من الامانة والدقة، ودون ان نحاول تحليلها أو اثراءها بالهوامش والاضافات، حيث ان ذلك من شأنه ان ينحرف عن القصد من ايرادها، وهو التعريف بما كتبه الاجانب عن هذه المدينة في مختلف العصور.

على ان رغبتنا في الابقاء على اصالة هذه النصوص وعلى طابع تركيبها اللغوي القديم، واحترام وحدتها العضوية، لا تمنعنا من تقديم كل واحد من الكتاب الثلاثة الى القارئ العربي بكلمة وجيزة للتعريف به وباعماله التي اخذت منها هذه النصوص.

### الحسن بن محمد الوزاني الفاسي Léon l'Africain

له عدة اسماء. والاسم الذي اشتهر به في اوروبا، هو الذي اطلقه عليه البابا ليو العاشر (وهو اسم البابا نفسه) ويأخذ باللاتينية الشكل التالي: Johannes les Africanus وقد خلع عليه البابا اسمه بعد تنصيره، تقديراً لعلمه ومعرفته وخبرته الواسعة.

ولد الحسن الوزاني في غرناطة في سنة 1494-1495 ميلادية. ولهذا الاعتبار، فهو يسمى أيضاً الغرناطي، كما ينسب الى فاس، حيث تربى وتعلم. واما تسمية الافريقي، فيشتقها من كتابته عن افريقية ورحلاته في هذه القارة.

وبعد مولده بوقت قصير، انتقلت به عائلته الى فاس حيث تربى وترعرع، وبعد ما قام بمهام دبلوماسية كلفه بها بنو وطاس، رحل الى مكة في سنة 921، ثم الى اسطنبول، وعند عودته من هذه الرحلة (وهي الثانية) وقع اسيراً في يد قراصنة من الصقلين، نقلوه الى روما وقدموه الى البابا يوحنا ليو، بعد ما عرفوا انه من رجال العلم، وقد اكرمه البابا وانزله عنده واحاطه

برعايته، وجعله يعتنق المسيحية على يده.

وفي روما، قام الحسن الوزاني بتحرير عدد من الكتب، لم يصل إلينا منها باللغة العربية سوى معجم عربي - عبري - لاتيني الفه في سنة 930 (توجد نسخة خطية منه في مكتبة لاسكوريال). وأما كتابه، وصف إفريقية الذي نقتبس منه النص التالي، فقد وضعه باللغة العربية، ثم ترجمه إلى اللغة الإيطالية في سنة 1526 م. ولكن النص العربي تلف. وقد نشر راموزيو Romusio النص الإيطالي في سنة 1550 في البندقية، ونشر براون R. Browne في لندن في سنة 1896 م. النص الإنجليزي الذي كان قد ترجمه بـوري J. PORY في سنة 1600 م. وفيما يلي نقتبس النص الذي يتعلق بوصف بجاية من النص الإنجليزي الذي نشر بعنوان: The History of Africa (الكتاب الخامس - ص 699 - 702).

حينما بوبت تاريخ البربر في الجزء الأول من كتابي هذا، قررت أن أكتب عن بجاية باعتبارها مملكة مستقلة. (ولما وصلت إليها)، عرفت أنها كانت منذ سنوات غير بعيدة مملكة، ولكنها كانت خاضعة للملك تونس. وبعد وقوعها خلال بضع سنوات تحت حكم ملك تلمسان، عادت المدينة إلى حكم ملك تونس الذي ولى عليها أحد أبنائه، وقد اتخذ هذا الإجراء لضمان هدوء المدينة وأمنها، من جهة، ولكي يأمن من قيام نزاع (على الملك)، بعد وفاته، من جهة أخرى.

خلف ملك تونس ثلاثة أولاد، أكبرهم سنا يسمى عبد العزيز. وهذا هو الذي ولاه على بجاية، ويسمى الثاني (أبا عمرو) عثمان Hutmen، وقد ترك له أبوه مملكة تونس، والثالث يسمى عمر Hommare، ولاه على منطقة التمرور (الزاب).

وهذا الولد الاخير، لم يلبث ان شن حروباً ضد اخيه (ابو عمرو عثمان) الذي غلبه في نهاية الامر في مدينة صفاقس وفقاً عينيه ثم ارسله الى تونس حيث عاش عدة سنوات أعمى، وقد ظل اخوه عثمان ملكاً على تونس اربعين سنة .

واما امير بجاية الذي كان محباً لـ اخيه مراعيّاً للواجب معه، فقد ظل على حكم المدينة عدة سنوات عرفت خلالها بجاية فترة من الهدوء والسلام، وذلك قبل ان يطرده منها الملك فرديناند (ملك اسبانيا)، بواسطة احد ضباطه، بيدرو نافارو .

### وصف بجاية:

بنيت هذه المدينة القديمة التي يعتقد البعض انها شيدت في عهد الرومان، على سفح جبل مرتفع على مقربة من البحر الابيض المتوسط والمدينة يحيط بها سور عال متهدم يشهد بعظمة بجاية في العصور الحالية .

والقسم المعمار من المدينة حالياً، يبلغ عدد سكانه نحو 8000 اسرة . ولكن المدينة تتسع - لو أعيد بناء منازلها كلها - لأكثر من 24 ألف اسرة، لأنها مدينة طويلة جداً .

ومباني المدينة ومعابدها يسودها طابع من عظمة الفن المعماري، وفي بجاية عدد كبير من العلماء الذين يدرس بعضهم علوماً تتصل بالقانون، والبعض الآخر العلوم الطبيعية والفلسفة . وفي المدينة كثير من المساجد والفنادق والمستشفيات . وفيها ايضاً اسواق واسعة عامرة وطرقها وشوارعها تصعد وتهبط بصورة تجعل السير فيها شاقاً على السكان الذين يقصدون الى وسطها لممارسة اعمالهم اليومية .

وفي اعالي المدينة، غير بعيد من قمة الجبل، تقف قلعة تمتاز ببنيانها الشامخ

والانيق وباسوارها العالية<sup>(1)</sup>. وفي المدينة نقوش على الفسيفساء<sup>(2)</sup> على الخشب يعتقد ان تكاليف اعمالها اكبر من تكاليف بناء المدينة نفسها .

وقد كان سكان المدينة يتمتعون بثراء كبير كما كانت سفنهم الحربية تحمل الخراب الى شواطئ اسبانيا باستمرار . وهذا هو السبب الذي حل الاسبان على غزو بلدهم حين ارسلوا بيدرو نافارو على رأس اسطول يتكون من 14 سفينة حربية .

ونظراً لان سكان المدينة كانوا يعكفون على اللذات والمتعة ، وكانوا يرتجفون من الخوف للاشاعات التي تتصل بالحرب ، حيث كانت الحرب لا تثير حماسهم ولم يكونوا متمرنين على اساليبها ، فقد هربوا مع ملكهم عند مقدم بيدرو نافارو ، وتركوا المدينة بكل ما فيها من الكنوز والتحف التي وقعت غنيمة في يد الاسبان . وقد استولى الاسبان على مجاية سنة 917 هجرية وبعدها استولى بيدرو نافارو على المدينة ونهبها ، قام ببناء قلعة منيعة على شاطئ البحر ، كما قام باصلاح قلعة اخرى ظلت مهدمة وقتاً طويلاً ، ووضع في القلعتين حاميات من الجنود وزودهما بالذخيرة والمؤن .

وبعد ذلك بست سنوات ، استولى بربروس الذي كان يريد احتلال المدينة واخذها من المسيحيين ، على القلعة القديمة على رأس ألف جندي ، وقد تمكن من ذلك بمساعدة سكان الجبال المجاورة . ولكنه فقد منذ الجولة الاولى في المعركة مائة من جنوده الذين كان معظمهم من الاتراك كما خسر 400 مقاتل من اتباعه من سكان الجبال الذين جاءوا لمساعدته . وعلى اثر ذلك اضطر بربروس الى الهروب الى قلعة جيغل التي سنذكرها . ( انتهى الاقتباس ) .

---

(1) ربما كانت هذه القلعة التي بناها الناصر بن علناس وخرها الأسبان ، وكانت تسمى «البرج الأحمر» .

(2) في الأصل Plaster - Work .

سائح ومؤرخ اسباني، ولد في غرناطة وعاش في القرن السادس عشر. اشتغل ضابطاً في جيش الامبراطور شارل كينط واشترك في الحملة التي شنّها الاخير على تونس في سنة 1536. وقد وقع اسيراً في يد العرب وبقي في شمال افريقية قرابة ثمان سنوات. وفي غضون هذه المدة، أتاحت له فرصة للسياحة والنزهة في رفقة اسياده في مختلف اطراف البلاد. وكذلك استغل وقته لتعلم اللغة العربية التي تمكن بواسطتها من جمع معلومات تاريخية وجغرافية عن هذه البلاد. وبمجرد حصوله على حريته، قام بتحرير كتاب كبير (معتمداً خصوصاً على ملاحظات الحسن الوزاني). وهذا الكتاب الذي وضعه في غرناطة في سنة 1573 بعنوان « وصف عام لافريقية » لا تزال له قيمته، وهو الذي نقتبس منه النص التالي. وقد قام بترجمته الى اللغة الفرنسية ونشره في ثلاثة اجزاء، باروت دالبان كورت P. D'Abancourt في سنة 1667 م.

والمعلومات التي يقدمها المؤلف تشمل جميع مناطق افريقية الشمالية حتى النيجر - بما في ذلك الصحراء الكبرى - واثيوبيا ومصر. والكتاب يشتمل على سرد تاريخي مجمل للمعارك التي وقعت حتى سنة 1574 م.

وكذلك وضع كتاباً تاريخياً آخر ضمنه وصفاً للثورة التي قام بها المسلمون في غرناطة في عصر فليب الثاني ولللفظائع التي ارتكبها هذا الملك المسيحي<sup>(3)</sup>. ورواية المؤلف لهذه الحوادث بوصفه شاهد عيان، لا تزال تمثل المادة الاساسية والمرجع الاول لهذه الثورة.

---

Histoire del RebelionYCastilgode los Morisco del Reyno de Grenada,Malaga, (3)  
1600; Madrid, 1797, 2 vol.

## ولاية بجاية في مملكة تلمسان:

هذه هي الولاية الاخيرة في موريطانيا القيصرية من جهة الشرق. وفي غربها تمتد ولاية الجزائر حيث تقع مدينة تنس. وعلى شرقها تقع مدينة القل ومنطقتها. ويحد ولاية بجاية من الشمال البحر الابيض المتوسط، ومن الجنوب، نوامديا، او بلاد الجيطول، وبعض الكتاب يضعون ولاية بجاية ضمن مملكة تونس، ولكن افضل الكتاب يسرون على نهج بطليموس ويعتبرونها ضمن مملكة تلمسان التي هي موريطانيا القيصرية.

من الصحيح ان بجاية كانت تابعة خلال فترة من الزمان لمملكة تونس، بعد ان اخضع ملوكها تلمسان، حيث ان الملك قد نصب لدى عودته من تلمسان احد ابنائه على بجاية وخلع عليه لقب الملك. وهذا الملك التونسي، خلف ثلاثة اولاد، منح اكبرهم سنا عرش تونس، ونصب الثاني على ولاية الزاب، في نوامديا، او جيطوليا. ولكن الابن الاخير ثار على اخيه، عقب وفاة ابيه ملك تونس، واستولى على عدة مدن في مملكته، بمساعدة بعض النوميديين والعرب. ولكن اخاه هزمه في نهاية الامر، وخيره بين احد الامرين: القتل، او فقد بصره. ولما اختار العمى، افقده اخوه بصره بواسطة صحن محرق من النحاس، فقد عاش مدة طويلة وهو اعمى، وفيما بعد، منح عثمان أخاه الثالث، عبد العزيز مملكة بجاية، حيث ظل، هو وأبنائه ملوكاً حتى استولى عليها بيدرو نافارو، وفي هذه الفترة كانت بجاية مملكة، ولكنها ضمت الى تونس.

وبجاية تحيط بها من جميع الجهات جبال مرتفعة تتدفق فيها عيون ثرة. وفي هذه الجبال، يقطن عدد من القبائل الزواق Azuague والبربر الشجعان الذين يفخرون بنسبهم وكرمهم. وهؤلاء يملكون ثروات من الحيوانات الصغيرة والكبيرة، ويوجد عدد كبير منهم ممن يحسنون الرماية ومن الفرسان.

وهذه الجبال، لا تزال على طبيعتها الأصلية<sup>(4)</sup>، وهي ذات مسالك وطرق وعرة، بحيث ان سكانها يعيشون في حرية تامة ولا يخضعون للسلطان ولا يعبأون بقوة الملوك.

وفي السهول المجاورة (لبجاية) تعيش جماعات من العرب والزواق الذين يسرون على غمط واحد من الحياة ويتنقلون بخيامهم في الارياف. انهم رجال شجعان ويملكون اسلحة نارية. ومعظمهم يمارسون مهنة نسج الاقمشة والسجاد المصنوع على الطريقة العربية، وغذاؤهم يصنعونه من دقيق الشعير، كما يقتاتون باللحوم والتين والجوز الذي يجففونه ويخزنونه لسنة بأكملها.

وفي هذه المنطقة يوجد عدد من مناجم الحديد التي يستخرجون الحديد الخام منها ويصنعون منه قطعاً صغيرة يستعملونها نقوداً. ولكنهم يملكون ايضاً نقوداً من الذهب والفضة، كما يملكون كميات كبيرة من الصوف والقنب الذي يستعملونه لصنع الاقمشة.

ونساء هذه المنطقة يتمتعن بكثير من الجبال ورجالهن شديداً الغيرة عليهن. والرجال في هذه المنطقة اشداء أقوياء السواعد واحرار، ولكنه ينقصهم النظام. ودأبهم محاربة بعضهم البعض الآخر. وهم يحمسون زرعهم في السهول المجاورة، ونحن سنعرض الخصائص الاخرى التي تميز هذه المنطقة، حينما نتعرض لوصف جبال البلد، بصفة خاصة. واما الآن، فستحدث عن المدن.

### بجاية عاصمة الولاية:

انها مدينة عظيمة، كان يسكنها في ايام عزها اكثر من عشرين ألف اسرة.

بنى الرومان بجاية على سفح جبل كبير مشرف على البحر، على مسافة

---

(4) في الأصل: Sauvages.

ثلاثين فرسخاً في شرق الجزائر، وعلى مسافة اثني عشر فرسخاً من جيجل . وبطليموس يحدد وضع بجاية عند درجة 22 درجة طولاً، و 32 درجة و 30 دقيقة عرضاً . وقد كانت المدينة محاطة بأسوار عالية ولكن الخليفة الشيعي (؟) خربها جزئياً عندما اخضعها . وبعد ذلك، عاد اليها سكانها، ولكنها لم تستعد عظمتها وقوتها . والمدينة قائمة على سفح جبل وتمتد حتى قمته، حيث توجد قلعة مغلقة على نفسها، وحيث تقف قصور عربية شامخة، تمتاز بالجبال اكثر مما تمتاز بمناة البنيان .

ومن جهة البحر، تقف قلعة اخرى تعلوها ثلاثة ابراج . ومنازل المدينة متينة البنيان وفي المدينة عدة مساجد وعدد كبير من المدارس التي تدرس فيها مختلف العلوم .

والمدينة تحيط بها غياض واجنة تمتد خصوصاً في الناحية الشرقية، وبعد ذلك تنتشر غابة كثيفة يعيش فيها عدد كبير من الاسود والقردة، والبلد لا ينتج القمح بوفرة، ولكن السكان، مع ذلك في مجبوحة من العيش، بسبب النشاط التجاري الذي يمارسونه مع أوروبا . ونظراً لان الملك عبد العزيز كان رجلاً وديعاً مسالماً وصديقاً للجميع، فقد عاش سكان المدينة وقتاً طويلاً في ظل السلام، على ان الرغبة في المزيد من الثروة دفعت السكان الى تسليح سفنهم والانطلاق في غزو الشواطئ المسيحية . ولما رأى الملك فرديناند ما يلحقونه بهذه الشواطئ من الاضرار، وجه اليهم بيدرو نافارو الذي استولى على المدينة، كما سزى ذلك .

**استيلاء بيدرو نافارو على بجاية:**

ففي سنة 1510 م، اجر بيدرو نافارو على رأس اسطول يتكون من 14 سفينة حربية كبيرة تحمل على متنها جنوداً . وعلى الرغم من ان المدينة كان يسكنها اكثر من 8000 اسرة، وهو عدد يكفي للدفاع عنها، فان السكان قد

هجروا المدينة واعتصموا بالجبال، بمجرد ما لاح لهم الاسطول الاسباني، وذلك لاعتقادهم بانه بمجرد ما يقوم هذا الاسطول بنهب المدينة سيجلو عنها ويعود ادراجه. ولكنه (بدلاً من ذلك)، أمر القائد الاسباني ببناء قلعة على الشاطئ، في المكان الذي يقع فيه مرسى المدينة الحصين.. وبينما كان منهمكاً في العمل على رأس خسة عشر ألف رجل لتحصين المدينة.

وبينما كان القائد الاسباني يفكر في القيام بغزوات في المنطقة، دخل الى المدينة بكل هدوء في يوم عيد الفصح امير عربي، هو ابن اخ الملك الذي هرب الى الجبال والذي كان قد استولى عليها من قبل بطريق الغدر والخيانة. وقد غدر بهذا الامير عمه بالطريقة التي ساصفها:

فقد سار الامير لجباية الضرائب في قرى نائرة في جوار بجاية وولى عمه حاكماً على بجاية خلال فترة غيابه. ولكن العم استعان بسكان المدينة وقام بثورة على ملكها. ولما رجع ابن أخيه بعدما انتهى من مهمته، اعتقله وفقاً عينيه. وقد ظل هذا الامير في السجن بعد ذلك، حتى مجيء بيدرو نافارو

ولما هرب الملك والسكان من المدينة، اطلق سراحه وهرب هو ايضاً. ولكنه بعد بضعة ايام، سار على رأس عشرة فرسان ومثلهم من الرجالة ومعه شيخ من اصدقائه لا يتجاوز عمره ثمانية عشر عاماً. (ولما) كان يحمل معه علماً ابيض طلباً للامان فقد استقبله الكونت خير استقبال ثم عهد به الى احد الجراحين وكلفه بمعالجة عينيه. وقد اكتشف هذا الجراح أن عيني الامير لم تنفقا، وان كل ما في الامر هو انها عندما تعرضتا للنحاس الشديد الحرارة ذابت اللحمية المحيطة بهما وانغلقتا. وما كان من الجراح الا ان قام بازالة اللحمية. واثّر ذلك عاد الى الامير بصره. ولكي يرد الجميل بالجميل، اخبر الاسبان بان عمه وسكان المدينة قد التجأوا الى مكان يقع بين الجبال وعرض عليهم ان يقوم هو بدور الدليل ليرشداهم الى المكان لمفاجأتهم.

وعقب ذلك مباشرة، بعث الكونت الذي سر لهذا الخبر باثنين من رجاله، وأرفق بهما اثنين من العرب، للتعرف على المكان الذي التجأ اليه سكان بجاية. ولما عاد هؤلاء ابلغوا الكونت ان المكان لا يبعد عن المدينة الا بسبعة فراسخ، وان هذا المكان، عبارة عن مروج واسعة الاطراف تمتد بين الجبال، وان من الممكن الوصول اليها باتباع طريق تعرفوا عليها.

واثر ذلك، سار الكونت ليلاً على رأس خمسة عشر ألف مقاتل مصطحباً معه الامير وحاشيته ولما اصبح الصباح، وصلوا الى جوار المروج دون ان يقابلوا احداً في طريقهم، (ولما اقتربوا من المكان)، شاهدت الطليعة مجموعة من الاشجار توهمت انها خيام العرب وابلغت الكونت اكتشافها ولكن الكونت الذي ادرك خطأهم، زحف في الاتجاه الصحيح على خيام العرب التي كانت تقع على مسافة نصف فرسخ من موقعه.

على ان العرب الذين تنبهوا لزحف الاسبان كانوا قد شرعوا في الفرار. غير أن الاسبان طاردوهم حتى قمة الجبل وقتلوا واسروا منهم عدداً كبيراً أثناء المطاردة. وفي نفس الوقت أشعلوا النار في مخيم العرب، بعدما نبهوه وجعوا كل ما حوله من القطعان. وقد غنموا في هذه العملية 900 جمل ومثل هذا العدد من البقر وعدداً كبيراً من الخيول والبغال ورؤوس الغنم، كما استولوا على كثير من نقود الذهب والفضة والاقمشة وجميع خيول الملك وسروجه واحجاره الكريمة.

وبعد ذلك، انسحب الكونت بنظام وعاد ادراجه دون ان يتعرض لهزيمة على يد العرب الذين كانوا، مع ذلك يناوشونه من جميع الجهات اثناء السير. بل انه قتل عدداً منهم ولم يفقد جيشه سوى جندي واحد كان قد خرج من الصفوف.

ولما اقترب الكونت من المدينة، استقبله الاسقف الجديد على رأس جميع الكهان الذين رتلوا امامه اناشيد دينية، ثم اقيمت حفلات سادها السرور

والابتهاج، على الرغم من ان الجنود كانوا متعبين، فان الجيش، زيادة عن اجتيازه نهريْن كان احدهما في حالة فيضان غير عادي بسبب الثلوج التي كانت تذوب حينئذ وتغذيه بالمياه، فقد واجه قبل ان يقتحم السهل الذي خيم فيه العرب تحصينات وعراقيل وفخاخاً عند كل خطوة. وقد ذكر العرب الذين وقعوا في الاسر، ان اللاجئين كانوا يعتقدون ان هذه العوائق كانت كافية لوقف زحف المسيحيين.

وبعد ذلك، توالى هجمات العرب على بجاية، وكانوا ينصبون للقوات الاسبانية كميناً اثر كمين، وقع فيها عدد من القتلى والجرحى من الجانبين، ولكنه لم يقع شيء يستحق التسجيل.

وفي هذه الاثناء، انتشر بالمدينة وباء، لم يلبث ان اتسع نطاقه، بحيث كان عدد الموتى يبلغ مائة في اليوم الواحد.

واثر ذلك، غادر الكونت بجاية واتجه الى طرابلس للهجوم على هذه المدينة.

وفي هذا الوقت جاء بربروس وضرب حصاراً على بجاية على رأس قوة تتكون من ألف مقاتل تركي وعشرين ألف مقاتل من سكان الجبال المجاورة. وبعد ما اقتحم أحد حصني المدينة، هجم على الحصن الآخر. وفي هذا الهجوم الاخير، أصيب بطلقة مدفع قطعت ذراعه. وعند ذلك انسحب بربروس، ناركاً وراءه مائة قتيل من الاتراك واكثر من خمسمائة قتيل من العرب، ومن هناك رحل الى جيجل.

### استيلاء الاتراك على بجاية:

ظلت بجاية 35 سنة<sup>(5)</sup> تحت حكم الاسبانيين الذين كانوا يحتفظون

---

(5) الصواب 45 سنة (المترجم).

بجامية في قلعتها تتكون من 500 رجل . وانطلاقاً من المدينة كانوا يقومون بغارات على المناطق المجاورة، ولكنهم قلما كانوا يتوغلون بعيداً في الداخل، بسبب شدة شوكة السكان وصعوبة هذه الجبال .

واخيراً وفي سنة 1555 م، ضرب صالح الرايس، حاكم الجزائر حصاراً على بجاية من جهة البر، على رأس قوة يبلغ عدد افرادها اربعين ألف مقاتل من الرماة والجنود المسلحين بالبنادق، ومن جهة البحر بقوة تتكون من عشرين سفينة حربية . وبعدما استولى على حصن الامبراطور الذي كان الاسبان قد تخلوا عنه، حيث لم يكن في استطاعتهم الدفاع عنه، حاصر الحصن الواقع على البحر والذي لم تكن حاميته تتجاوز 40 رجلاً . وبعد ما سلط عليه نيران المدافع خمسة ايام كاملة تمكن من الاستيلاء عليه .

وعقب ذلك حاصر القصر الاكبر، حيث كان القائد، دوم الفونس دوبرالت متحصناً على رأس بقية قواته . وبعد ضربه مدة 22 يوماً، ورأى القائد انه لم يعد في امكانه المقاومة، استسلم لكي يتمكن من انقاذ حياة النساء والاطفال، واشترط ان يسمح له ولمن معه بالخروج من المدينة احراراً ووضع سفن تحت تصرفهم لتنقلهم الى اسبانيا .

ولكن التركي، نقض وعده، واسر جميع من كان في القصر، ما عدا الدوم الفونس وعشرين من رجاله الذين ترك له حرية اختيارهم . (انتهى الاقتباس عن الجزء الثاني ص 415-418 )

#### ثوماس شو: Thomas Show

عاش ثوماس شو البريطاني عدة سنوات في الجزائر، حيث كان معتمداً يمثل بلده في اوائل القرن الثامن عشر، وقد تجول في مختلف اطراف البلد وسجل ملاحظات بعناية ودقة عن مشاهداته، فترك لنا وصفاً ممتعاً ومفيداً

للبلد، تحت العثمانيين، لا للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فحسب، بل وايضاً للحيوانات والانهار والجبال والمدن الخ. وقد ساعد هذا الرحالة الجامعي في اداء هذه المهمة، معرفته باللغة العربية التي قرأ بها بعض كتب التاريخ العربية، والمامه باللغة القبائلية، وكذلك رجع شو الى وصف الحسن الوزاني الذي سبقه بنحو قرنين واستقى منه مادة لتكميل معلوماته و اشار الى ذلك بما ينبغي من الامانة العلمية، والجدير بالذكر ان رحلة شو قد افضت به ايضاً الى تونس ومصر وفلسطين وسورية وقد وصف مشاهداته في هذه البلاد بنفس العناية والدقة والامانة. ونحن نقتبس النص التالي من الطبعة الثانية من الرحلة التي نشرت في لندن في سنة 1738، تحت عنوان:

Th. Show, Travels and Observations relating to several parts of Barbary and the levant.

وعلى مسافة قصيرة من متزكوب Netese Coube يقع ميناء بجاية التي يسميها استرابون Strabon صاردو Sardo أو صالدي Salda. وهذا الميناء اكبر كثيراً من ميناء وهران ومن ميناء ارزيو، ولكنه يتكون على نفس المنوال من لسان من اليابسة يتوغل في البحر وكان معظمه في الازمنة الغابرة مفروشاً بالحجار منحوتة. ويمتد على هذا اللسان من اليابسة، انبوب ينقل الماء العذب الى الميناء. ولكن حائط الميناء والانبوب والصهريج الذي يفرغ فيه الماء، كلها اليوم مهدمة. بل انه لم يبق في المنطقة قائماً سوى ضريح السيد بوصغري Busgaree، احد اولياء المدينة.

وبجاية ( او Bougia كما يسميها الجغرافيون المحدثون)، تقوم على انقاض مدينة كبيرة قديمة. وهي مبنية على نفس المنوال وفي موقع مشابه لموقع مدينة دلس Delys ولو ان قطرها يبلغ ثلاثة اضعاف دلس.

والى جانب الحصن الذي يقف على قمة الجبل والذي يشرف على المدينة كلها يوجد حصنان آخران في اسفلها يحرسان الميناء. وفي أسوار هذا

الحصن، يمكن مشاهدة الثغرات التي أحدثتها قنابل المدافع التي أطلقها فيدها السير ادوارد اسبراج E. Sprag في سنة 1671 م. أثناء حملته المشهورة على هذه المدينة<sup>(6)</sup>.

وفي بجاية حامية تتكون من ثلاث سرايا من المشاة، ولكنها ذات فعالية ضئيلة، حيث انها لا تمنع قبائل جورايا وتوجة المجاورة من ضرب حصار شبه مستمر على المدينة.

وفي محل يوم تقام فيه السوق، تحمل هذه القبائل منتجاتها الى المدينة. وما دامت المعاملات جارية، يسود الهدوء في السوق. ولكنه في نهاية المعاملات، تنقلب الامور رأساً على عقب ولا يكاد ينقضي النهار دون وقوع اضطرابات بين مختلف القبائل ودون حدوث اعمال السرقة.

وسكان بجاية يمارسون تجارة واسعة، خصوصاً، في المحارث والفؤوس وغير ذلك من الادوات التي تصنع من الحديد الذي يستخرج من المعادن الواقعة في الجبال المجاورة. وهؤلاء التجار يشترون ايضاً كميات كبيرة من الزيت والشمع من القبائل المجاورة ويصدرونها الى أوروبا وبلاد المشرق.

وبجاية تقع على مسافة 81 فرسخاً رومانياً (34 فرسخاً) من مدينة دلس، او روسكريوم Rusucurum الرومانية. وبجاية لا بد وان تكون هي مدينة صلدى Saldâe التي يضعها بطليموس في موضع متوغل الى الجنوب، كما اشرت، حيث يحدد موقعها عند 32 درجة و 30 دقيقة، عرض - أي حوالي اربع درجات أبعد مما ينبغي الى الجنوب. وأبو الفدا اقرب الى الصواب حين يضعها عند درجة 34، اذ لا يبعد بها عن موقعها الحقيقي الا بدرجتين و 48 دقيقة<sup>(7)</sup>.

(6) راجع Atlas Géog. Vol. IV, p. 191 (هامش المؤلف).

(7) موقع بجاية الحقيقي هو: 36 درجة و 42 دقيقة، عرض شالي، و 2 درجة و 50 دقيقة طول شرقي (المترجم).

والحقيقة ان بجاية هي المدينة الوحيدة التي يذكرها ابو الفدا في هذه المنطقة من بلاد البربر - وهو أمر يوحى بالاعتقاد بأن مدينة الجزائر لم تكن موجودة (كذا) في عصره، أو أنها كانت مدينة غير ذات بال.

ونهر بجاية الذي يسميه بطليموس « ناسافا » Nacava ينصب في البحر في شرقي المدينة. والنهر يتلقى عدة روافد عند مختلف الجهات التي يمر بها، ولكنه لا يتلقى اية روافد عند المسيلة كما زعم بعض الجغرافيين المحدثين. وهذا النهر طويل. واذا استثنينا (سهول) سطيف وحمزة (البويرة حالياً)، فإن جميع المناطق التي تمر بها فروعها تتكون من ارض جبلية صخرية، الأمر الذي ينجم عنه فيضان وسيول، ولا سيما في فصل الشتاء، وخسارات في الارواح والممتلكات لسكان منطقة بجاية. وبنو مسعود الذين يعيشون عند مصب نهر بجاية كثيراً ما يتضررون من فيضان النهر وعتوه.

(انتهى الاقتباس)



## عُرناطة عاصمة بني زيري

بعد مقتل زيري بن مناد في نضاله الأسطوري ضد زناتة، خلفه في زعامة صنهاجة ابنه بلكين الذي ولاه العبيديون على بلاد المغرب، عقب رحيل المعز الى مصر، وولاية بلكين الذي اشتهر بالشجاعة والحنكة لم تكن محل نزاع من بقية بني زيري، ولكنه بعد وفاته وارتقاء ابنه باديس العرش (ببيع في سنة 386 هجرية - 996 م). وهو لا يزال صبيّاً (ولد في سنة 374 هجرية)، شعر أبناء زيري بأن وراثة العرش توشك أن تغلت منهم نهائياً، ولكي يعيدوا الأمر الى نصابه، قاموا بثورة اشترك فيها ماكسن ومغنين وكبيرهم، زاوي (وأما حماد فقد اختار صف باديس الذي ولاه على أشير، مثل يطوفت الذي تخلى عن مشروعاته الثورية في وقت مبكر..)

وبينا كان باديس منهمكاً في مطاردة زناتة بزعامة زيري بن عطية (متوفى سنة 391 هجرية - 1001 م)، قام حماد على رأس جيش آخر من كتامة وصنهاجة لمواجهة الثوار واشتبك معهم في معارك انتهت بمقتل مغنين وماكسن وولدها، محسن وباديس. وأما زاوي بن زيري وبقية الثوار الناجين، فقد التجأوا الى الجبال الواقعة خلف شرشل في منطقة الجزائر وبقوا هنالك ينتظرون اذن المنصور بن أبي عامر لهم بالهجرة الى الأندلس. وهذا الاذن سوف لا يصلهم إلا بعد وفاة الحاجب وفي عهد ابنه، عبدالمملك المظفر الذي خلفه في الحجابة (سنة 392 هجرية 1002 م).

وكذلك انتقل زاوي الى الأندلس في هيئة أمير لاجيء على رأس جماعة كبيرة من أقاربه وأنصاره من زعماء صنهاجة الذين تورطوا معه في الثورة، حاملاً معه أمواله وذخائره، تاركاً المغرب لباديس الذي استقر له الأمر. وهناك في قرطبة أحسن استقبالهم الحاجب المظفر، الذي كان بدون شك في حاجة الى سمعة زاوي وذكائه، وهو في أول عهده بالحجابه.

وفي المراحل التالية المضطربة من تاريخ الأندلس، عقب خلع الخليفة، هشام بن الحكم، أبدي زاوي وأنصاره من صنهاجة ضروباً من الشجاعة والحنكة والبراعة السياسية، بحيث خرج من مختلف المعارك الحربية والسياسية التي خاض غمارها فيما يعرف باسم «فتنة البربر» (التي ربما كان من الملائم تسميتها «فتنة الخلافة») سالماً معزز الجانب. بل إن زاوي الذي نزل في كنف الحجاب العامرين، أعداء أسرته التقليديين (كان رأس زيري لا يزال معلقاً على أسوار قرطبة لدى وصوله) سوف يوسع نفوذه وتشتد شوكته، بحيث ان الخليفة سليمان بن الحكم (المستعين) لم يجد عقب انتصاره، الذي لا غد له، على رأس جيوش البربر، من هو أفضل منه لإقطاعه ولاية البيرة (Elvira) بوصفه حاجباً - البيرة التي ستصبح غرناطة قاعدة لها وعاصمة لمملكة بني زيري (\*) .

---

(\*) للمزيد من التفاصيل راجع: أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب (القسم الخاص بالأندلس) (ص261) الذخيرة لابن بسام (1/41-60-62) البيان المغرب لابن عذارى (3/262) العبر لابن خلدون (6/179) الكامل في التاريخ لابن الأثير (6/679) و (9/32-33) الحلة السرياء لابن الأبار (1/270) نفع الطيب للمقري (1/426) الاحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (1/521) المعجب في أخبار المغرب لعبدالواحد المراكشي (ص42-45) وكذلك، Gómez Moreno, B. R. Academia Historia, 1905, 1/44-61. وكتاب دولة بني زيري، ملوك غرناطة، لكاتب المقال (الفصل الأول والثاني).

تقع غرناطة (أو أغرناطة)<sup>(1)</sup> على مسافة 696 كيلو متراً من مدريد في مكان يبلغ ارتفاعه عن مستوى البحر، 686 متراً في المتوسط، عند السفح الشمالي لجبل الشارات (Sierra Nevada).

وتحيط بغرناطة من ثلاث جهات سلسلة من الجبال ذات اللون الأزرق وتشرف على سهول غامقة الخضرة يأخذ منظرها بالألباب.

ومناخ غرناطة مناخ صحي، وهواؤها عليل، وجوها لطيف، لأن جبال الشارات تحميها من الرياح الجنوبية، بينما تمدّها الأنهار النازلة من هذه الجبال برطوبة معتدلة وخضرة دائمة في جنباتها، في الوقت الذي تشتد فيه الحرارة في مختلف أنحاء الأندلس، في الصيف.

وغرناطة عرضة لأمطار غزيرة تنهمر إليها من السحب التي تتجمع فوق المحيط الأطلسي، وهذه الأمطار، اذا كانت لا تبلغ في كمياتها ما تتلقاه قرطبة، فهي لا تقل في مجموعها عن الكميات التي تصيب اشبيلية. ولكنه اذا

---

(1) غرناطة «Grenade» بفتح أوله وسكون، كما ضبطه ياقوت الذي ينقل عن أبي محمد عفان أن الصحيح، أغرناطة، بالألف في أوله، أسقطها العامة، كما أسقطوا ألف ألبيرة فقالوا: لبيرة. معجم البلدان (995/4)، وقد اختلف المؤرخون في اشتقاق اسم غرناطة، فيرى البعض أن الاسم يرجع الى عهد الرومان، وأنه مشتق من الكلمة اللاتينية «granatum» ومعناها «الرمانة» وهذا هو ما ذهب اليه كاتب مقالة غرناطة في الموسوعة الفرنسية الكبرى وهو أيضاً ما يقرره الجغرافيون العرب الذين يقولون إن معنى غرناطة بلسان العجم «الرمانة» (راجع/ مقالة سيمونيت في دائرة المعارف الاسلامية - مادة غرناطة) ومعنى ذلك ان المدينة كان لها أصل روماني، على أن ليفي بروفنسال وغيره يرون ان غرناطة مدينة إسلامية (راجع Grenade Musulmane, Université d'Alger, 1937, p. 79-80) وأما المستشرق الاسباني «Simonet»، فيرى رأياً آخر ويرجع إن الكلمة راجعة الى أصل قوطي. وأنها مزيج من كلمة «ناطة» وهو اسم قرية كبيرة كانت تقع غير بعيد من البيرة، وكلمة «غار» التي أضافها المسلمون إليها عند نزولهم بالأندلس، وهو اسم إحدى قبائلهم راجع Simonet.

Descripcion del reino de Granada, p. 40 - 41.)

أضيفت الى هذه الأمطار مياه العيون العديدة المجاورة لها ، والمياه التي تنحدر من جبل الشارات في شكل جداول، نتيجة لذوبان الثلوج، أدرنا بسهولة لماذا اشتهرت غرناطة برطوبة جوها في الصيف وبالبرد القارس في الشتاء<sup>(2)</sup> .

ومن الجبال المجاورة لغرناطة والتي لا يكاد يفارقها الثلج، ينزل عدد من الأنهار ذكر ابن سعيد، نقلاً عن ابن البيشع، أنها بلغت نيفاً وعشرين نهراً<sup>(3)</sup> تجري لتروي فحوصها المشهور.

وأشهر هذه الأنهار وأكبرها، هما نهران: نهر شنيل (أو سنجيل)<sup>(4)</sup> . الذي ينحدر من جبل شكير، بجنوبي المدينة، ويمر على غربها، الى فحوصها، ليشق فيه طريقه مسافة أربعين ميلاً، ويسقي البساتين وقرى وضياءً كثيرة البيوت والغلال وأبراج الحمام وغير ذلك<sup>(5)</sup> وينتهي الى فحص لوشة<sup>(6)</sup> .

(2) ومن طريف ما اعتذر به عن برد غرناطة، قول القاضي أبي بكر بن شبرين:

دعى الله من غرناطة متبواً	يسر كثيراً أو يمر طريداً
تبرم منها صاحبي عندما رأى	مسارحها بالبرد عدن جليداً
هي الثغر صان الله من أهلت	به وما خير ثغر لا يكون بروداً

(3) كتاب الجغرافيا (ص167) على أن ابن الخطيب يقول في الإحاطة (103/1) إنه ينزل من جبل شلير وعدد الأنهار ستة وثلاثون نهراً. والفرق ليس بذي أهمية، حيث ان نهراً ما قد يكون صغيراً أو كبيراً أو أن عدد الأنهار التي تنزل من الجبل قد زاد خلال الفترة التي تفصل بين الكاتبين.

(4) بالاسبانية «Genil» أو «Xenil»، وهو مشتق من اللاتينية «Singilis» ونهر شنيل من روافد النهر الكبير، وكانت تمتد على ضفافه في العهد الإسلامي حقول وبساتين ولكن النهر أصبح الآن ضحلاً قليل المياه، ويغلب على المناطق التي يمر بها الجفاف والجذب.

(5) من وصف ابن فضل الله العمري، صاحب مسالك الأبصار، نقله القلقشندي، في صبح الأعشى (216/212/5).

(6) «Loja» بالاسبانية (سان فرانسيسكو لوشة) من اقليم غرناطة، وبينها ثلاثون ميلاً. وصفها ابن سعيد بأنها تقع بين أنها وظلال أشجار في بساط ممتد، المغرب (157/2)، وقال الحميري، إن بها غاراً فيه أربعة نفر موتى لا يعلم أول أمرهم، وكان الولاة يتعهدون بتجديد أكفانهم. صفة

ونهر شنيل يشق مدينة غرناطة في وسطها. ومن أهم ميزاته، وجود الذهب الأحمر فيه، وأكثر ما يوجد الذهب في وسط المدينة، وخصوصاً بموضع يعرف بالبردولية، يقع بين قنطرة القاضي، والقنطرة المعروفة باسم قنطرة الحواتين، على أن الذهب يستخرج من النهر أيضاً في أعاليه وفي أسفله<sup>(7)</sup>.

وذهب نهر شنيل، ليس من الذهب الرديء النوع أو الرخيص السعر، حيث ان سعره يزيد عن سعر الذهب العادي في الأسواق، بالربع والخمس. ونهر شنيل يدخل الى غرناطة من ناحية الجوف، ثم ينقسم فيها الى قسمين، ثم يخرج من المدينة من جهة القبلة. ويتم العبور على النهر في المدينة بواسطة أربع قناطر محكمة البنيان<sup>(8)</sup>.

والنهر الثاني الكبير الذي يمر بغرناطة، هو نهر حدرة (أو حدروه)<sup>(9)</sup> الذي ينزل من ناحية بوادي أش شرقي شكير، فيمر بين بساتين ومزارع وكرم الى أن ينتهي الى غرناطة فيدخل على باب الدفاف بشرقيها، ويشق المدينة نصفين، ويتم العبور عليه بواسطة خمس قناطر، وهي قنطرة ابن رشيقي، وقنطرة القاضي التي بنيت في سنة 447 هجرية (1055 م) والتي لم يبق منها الآن سوى قوس واحد، وقنطرة حام بن جاس، وقنطرة الجديدة، وقنطرة الفود<sup>(10)</sup>.

وهذا النهر قطعت منه ساقية كبيرة تسد حاجة المدينة الى مياه الشرب

= الأندلس (ص 173) راجع أيضاً عن لوشة، معجم البلدان (26/5) الادريسي (ص 204) الإحاطة (الفهرست) الخلل السندسية (189/1).

(7) كتاب الجغرافيا (للزهري) مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر ورقة (47 ظ).

(8) نفس المصدر (ورقة 48 ظ).

(9) يذكره ياقوت باسم حدرة: Darro بالأسبانية.

(10) سالك الأبحار، نقل القلقشندي في المصدر المذكور (216-212/5) راجع أيضاً معجم البلدان (95/4) وصفة الأندلس (ص 23-24).

والغسل بحيث يجري الماء في الأسواق والحمامات والمساجد، ويبرز في أماكن على وجه الأرض، وحيثما طلب الماء وجد<sup>(11)</sup> وتسير عليه الأرحى.

كانت غرناطة قبل ثورة البربر عبارة عن قرية صغيرة يسكنها اليهود الذين كانوا يعملون خصوصاً في التقاط الذهب في الأنهار المجاورة، وإنما كانت قاعدة الولاية في عهد الأمويين هي البيرة<sup>(12)</sup> التي نزلها جند دمشق وكثير من موالي عبدالرحمن بن معاوية الذي بناها وأسكنهم بها، ثم خالطتهم العرب، بعد ذلك وأصبحت من قواعد الأندلس الجلييلة.

وقد خربت الفتنة البيرة وجلب عنها أهلها واستوطنوا غرناطة التي لا تبعد عنها إلا بستة أميال.

ولما استولى سليمان بن الحكم على زمام الخلافة في قرطبة (سنة 399 هجرية) وزع الولايات على أنصاره من البربر، فكانت غرناطة من نصيب بني زيري وأقاربهم واتباعهم من صنهاجة.

ونحن لا نعرف شيئاً عن منجزات زاوي بن زيري في مجال تحصين المدينة وبناء المرافق الأساسية فيها، وإن كنا نرى أن من الطبيعي أن يتجه خلال فترة الاضطراب الطويلة التي عرفتھا الأندلس الى تحصين المدينة وتزويدها بوسائل الدفاع الأولية التي سيكملها ويحسنها خلفاؤه من بعده. على أن الادريسي يخبرنا أن حبوس الصنهاجي هو الذي مدنها وحصن أسوارها، وبني قصبتها<sup>(13)</sup>.

وأثار سور مدينة غرناطة وتحصيناتها التي ترجع الى العهد الزيري، لا تزال

---

(11) نفس المصدر (القلقشندي).

(12) راجع وصف البيرة في صفة جزيرة الأندلس (ص 29-30) الإحاطة (الفهرست) معجم البلدان (244/1) المغرب لابن سعيد (2/125-127).

(13) الادريسي (ص 203).

قائمة حتى الآن في داخل المدينة الحالية، والسور يمتد ابتداء من باب البيرة حتى الباب الجديد والسور مبني بالأسمنت وتتخلله أبراج شبه مستديرة، وبقياء السور الذي ينفتح منه بابان يتخذ كل منهما شكل قوس مبني بالحجر والطوب المكوي، تتجه موازية لنهر دارو، على ضفته الشمالية، ويكملة حائط في شكل قوس مبني بالحجر، يمتد بين برجين، ثم يصعد السور حتى قمة الهضبة التي يقع عليها قصر الحمراء، حيث يستند الى حصنين صغيرين<sup>(14)</sup>.  
وآثار السور الزيري وأبراجه لا تزال تعتبر من أجل التحصينات التي أقيمت في الأندلس في القرن الخامس الهجري.

وقد ذكر صاحب مسالك الأبصار<sup>(15)</sup> ان هذا السور يخترقه ثلاثة عشر باباً، وهي باب البيرة، وهو أضخمها، وباب أكحل، وباب الرخاء، وباب المرضي، وباب المصرع، وباب الرملة، وباب الدباغين، وباب الطوابين، وباب الفخارين، وباب الخندق، وباب الدفاف، وباب البنود، وباب الأسدر، وقال إنه كان حول المدينة أربعة أرباض، وهي: ربض الفخارين، وربض الأجل، وهو كثير القصور والبساتين، وربض البيازين بناحية باب الدفاف، وهو كثير العارة، يخرج منه نحو خمسة عشر الف مقاتل، وهو ربض مستقل بحكامه وقضاته وغير ذلك، وربض الرملة<sup>(16)</sup>.

وهذه الأبواب كلها خريت ولم يبق منها سوى آثار باب الرملة، الذي هدم هو الآخر في سنة 1884، ثم أعيد بناؤه جزئياً<sup>(17)</sup>.

وقد وصف العمري جامع غرناطة بأنه «من أبداع الجوامع وأحسنها منظراً، وهو يحكم البناء، لا يلاصقه بناء، تحف به دكاكين اليهود

(14) دائرة المعارف الإسلامية (مادة غرناطة).

(15) المصدر المذكور (نقلًا عن القلقشندي) (214/5).

(16) نقلًا عن صبح الأعشى (214/5).

(17) راجع: Marçais, G. L'architecture musulmane, Paris, 1954, p. 321.

والعطارين، وقد قام سقفه على أعمدة حسان، والماء يجري داخله، ومساجدها (غرناطة) ورباطاتها لا تكاد تحصى» (18).

وأشهر قصور غرناطة ومبانيها قاطبة، هو قصر، أو قلعة الحمراء، وهذا المبنى يقع على هضبة من صخر يلتف به نهر حدرو، قبيل التقائه بنهر شنيل حيث تتكون ثنية تتجه فتحتها نحو الجنوب الشرقي، وقد سميت هذه القلعة «الحمراء» لأن أسوارها تضرب إلى الحمرة، وهي في معظمها مبنية بالتابيا التي هي مزيج من الصلصال والجير والحصاء (19).

وأما أول من وضع الحجر الأساسي للقلعة البدائية التي تحمل اسم «الحمراء» فنحن لا نعرفه، بل ولا نعرف حتى تاريخ هذا العمل، ولكن اسم الحمراء ورد ذكره لأول مرة في معرض الحديث عن معركة وقعت في سنة 377 هجرية (890 م) في عهد عبدالله الأموي، حين أجبر جماعة من المرتدين عن الاسلام من الاسبان، سواراً ومن معه من عرب قبيلة قيس، إلى الاعتصام بالحمراء، ثم تمكنوا من الافلات من قبضتهم بعد أن قاموا بهجوم مصحوب بخدعة حربية.

ونحن في هذا البحث سوف لا نتعرض لوصف قصر الحمراء من الناحية المعمارية وغيرها لأن هذا القصر إنما شيد حسب الرأي السائد في القرنين السابع والثامن الهجري (الثالث عشر والرابع عشر الميلادي) في عهد بني الأحمر الذين تنسب إليهم بعض الروايات تسمية الحمراء، خطأ، وذلك على الرغم من وجود احتمال قوي بأن القصر وأسواره الخارجية كانت قائمة قبل ذلك العهد (20).

(18) نقلاً عن المصدر المذكور.

(19) راجع مقالة Shead في دائرة المعارف الإسلامية (مادة الحمراء).

(20) يمكن لمن يريد التوسع في البحث عن قصر الحمراء في هذه الفترة استشارة المراجع التالية:

Girault de Frangey, L'architecture des Arabes et des Mores. 1941; Goury, Plans

والواقع أن نظرية ظهرت في منتصف العقد السادس من القرن الجاري، لا نستطيع تبنيها لأنها تعوزها الحقائق المادية من جهة، ولأنها ظهرت في إطار البحث عن مفاخر اليهودية الذي تدعمه الصهيونية العالمية من جهة أخرى (وهو مجهود مشكوك فيه).

وهذه النظرية أعلن نواتها المستشرق اليهودي فردريك باجيور لأول مرة في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في كمبرج بإنجلترا في سنة 1954، ثم وسعها ونشرها في كتاب مستقل متوسط الحجم في سنة 1968<sup>(21)</sup>.

وملخص النظرية أن مباني القلعة الحمراء قد تحولت الى قصر الحمراء، ثلاثة قرون قبل التاريخ الشائع لبناء القصر، وأن الذي قام بعملية تحويل القلعة العسكرية الى قصر للسكن لم يكن شخصاً آخر سوى يوسف بن نغالة الذي كان وزيراً لباديس بن حبوس، وقد التجأ الكاتب الى بعض النصوص العربية (ومنها نص ورد في مذكرات الأمير عبدالله الصنهاجي) وبعض النصوص العبرية التي منها أشعار ابن غابرويل وحاول أن يثبت بتحليلها أن قصر الحمراء كان مقر الوزير اليهودي يوسف، وأن قصر باديس هو الذي يقع على هضبة البيسين (Albaicin) والمقابل لقصر الحمراء. وكذلك أعاد هذا الباحث اليهودي بعض الرموز التي استخلصها من الترميمات والزخارف المعمارية المنقوشة في آثار القصر الى أصل عبري.

وأهم النصوص العربية التي اعتمد عليها الكاتب لتأييد نظريته، هو ما

---

and elevation, sections and details of the Alhambra, 1848; Jones, Moorish (21) remains in Spain; Galvert, The Alhambra, 1907; Dozy, Histoire des musulmans d'Espagne; Marçais, G; L'architecture musulmane d'Occident.

Bargebeir, F., Acycle of studies on the eleventh century in Moorish Spain. Ed. W. de Gruyter, Berlin, 1968.

ذكره عبدالله الصنهاجي، آخر ملوك بني زيري، في مذكراته، من أن يوسف قد بنى لنفسه قصراً أعظم من أي قصر آخر في غرناطة.

وهذه النظرية التي لقيت مروجين في الاوساط الاكاديمية في الولايات المتحدة، لم تثبت أمام الانتقادات التي وجهها اليها عدد من الباحثين الذين من بينهم المستشرق الإسرائيلي شيرمان (H. Schirman) الذي يقع هذا الموضوع في مجال اختصاصه، والمستشرق الاسباني جارسيا جومث (Gracia Gómez) ومع ذلك فان باحثاً آخر، وهو أوليج جرابر (Oleg Grabar) قد اعتمد هذه النظرية واتخذها محوراً لعدة محاضرات.

وأما المؤرخ المعاري، جورج مارسى، فقد اكتفى في كتابه الذي خصصه للفن المعاري في المغرب (والأندلس) بالقول بأن القلعة الحمراء قد ظهرت الى الوجود في أواخر القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) في عهد بني أمية، كما لاحظنا ذلك. ولكن الهضبة الضيقة التي تمتد على طول سبكة (Sabika) والتي يسقيها نهر شنيل إنما حصنت في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) على يد الزيريين<sup>(22)</sup>. على أن الحصن الذي يدور بمساحة 740 متراً طولاً و 220 متراً عرضاً، إنما بني في عهد الدولة الناصرية (وعلى وجه التحديد، في عصر محمد الأول ومحمد الثاني) التي اتخذت غرناطة عاصمة لها.

وقصر الحمراء، مع مجموعة من المباني، تمثل مدينة سلطانية قائمة بنفسها، وتشرف على المدينة الشعبية التي تمتد تحت أقدام هضباتها. وهي تحتوي على الثكنات العسكرية والمخازن، كما تحتوي على صهاريج المياه الضخمة التي تسمح للمدينة بتحمل الحصار مدة طويلة<sup>(23)</sup>.

---

(22) المصدر المذكور (ص 304).

(23) نفس المصدر.

وكذلك تشتمل مباني القصر على عدد كبير من المنازل السكنية والقاعات والحمامات، وعلى المسجد الجامع الذي سبقت الإشارة إليه والذي وصفه العمري بأنه « من أبدع الجوامع وأحسنها بناء، وبه الثريات الفضية معلقة، وبجائظ محرابه أحجار ياقوت مرصعة في جلة ما نثق به من الذهب والفضة » (24).

ونحن لا نعرف ما إذا كانت الثريات والتنميقات التي يذكرها صاحب مسالك الأبصار ترجع إلى العهد الزييري الذي بني فيه الجامع، أم أنها كانت من ضمن ما استحدث عند تجديد القصر في عهد الدولة الناصرية.

ومباني غرناطة الزيرية تعتبر مندثرة كلها، ولم يبق من آثارها غير القطع التي سبقت الإشارة إليها، وسوى حمام يسمى Bañuelo وهو يحتوي على قاعة لخلع الملابس والاستراحة، وفي وسطه حوض، تأتي بعده ثلاث قاعات ذات قباب تفصل بينها عرصات تعلوها أقواس، وحيطان الحمام مبنية بالاسمنت الصلب، ولكن الأقواس مبنية بالطوب المكوي.

ومدينة غرناطة التي تقع عند أقدام جبل سيرانيفادا بين هضبتين تشرف عليهما الحمراء، ويفصل بينهما نهر دارو، وكلتاها تحيط بها سهول، تطل على الفحص المشهور، فحص غرناطة الذي يحمل الآن اسم Vega de Granada وهذا الفحص كان أيام الدولة الإسلامية من أنظر وأخصب أراضي الأندلس (25).

وقد اشتهر فحص غرناطة بعدد من المنتجات الزراعية الرقيقة والوافرة المحاصيل، أهمها، من الفواكه، التفاح والقراصيا البعلبكية (26) التي يقول

(24) نقلاً عن القلقشندي في المصدر المذكور.

(25) راجع وصف موقع غرناطة وسهولها من الناحية السياحية في الوقت الحاضر. E. Sordo,

l'Espagne mauresque, Paris, 1964., p. 108 y ss. (26)

يشبه شجر الإجناس. وفاكهته تشبه العنب الأسود. وهو يعرف في مصر باسم الدب، راجع

(Dozy, Suppl., II, 335.)

عنها ابن فضل الله العمري انها « لا يكاد يوجد لها مثيل في الدنيا منظرًا، وحلاوة، حتى ليعصر منها العسل » (27).

وكذلك ينتج الفحص الجوز، «انقسطل، والتين، والأعناب، والخوخ، والبلوط، وقصب السكر، ومن المزروعات الصناعية التي تصلح فيه، الحرير، وعود اليلنوج الذي تنتجه ناحية دلابة (28) والذي ذكر الرازي انه لا يفوقه عود الهند ذكاء وعطر رائحة (29).

وفي جبل شلير الذي يشرف على غرناطة توجد أنواع مختلفة من العقاقير والأعشاب التي تستعمل في الأدوية، يعرفها الشجارون معرفة دقيقة، (وبعضها)، فيما يقول ابن فضل الله العمري لا توجد في الهند ولا في غيرها من البلدان.

وقد تعرض ابن الخطيب لذكر العقاقير المتوفرة في جبل شلير في العبارات التالية:

« وبجبل شلير منها سنبل فائق الطيب، وبه الجنطيانا، يحمل منه الى جميع الآفاق. وهو عقير رفيع، ومكانه من الأدوية الترياقية مكانة، وبه المرقشينة على اختلاف أنواعها، «اللازورد. وبفحصها (غرناطة) وما يتصل به، القرمز، وبها من العقاقير النباتية والمعدنية ما لا يحتل ذكره الايجاز، وكفى بالحرير الذي فضلت به فخراً وقيته وغلة شريفة وفائدة عظيمة تمتاز منها البلاد وتجلبه الرفاق، وهي فضيلة لا يشاركها فيها إلا البلاد العراقية. وفحصها الأفيح المشبه بالغوطة الدمشقية حديث الركاب، وسمر الليالي، قد

---

(27) نقلاً عن القلقشندي في المصدر المذكور.

(28) Dalios الحديثة، وهي بلدة صغيرة تقع قرب المربة في جنوبي جبل « غدر » (Gador) غير بعيد من شاطئ البحر.

(29) نقلاً عن ابن الخطيب في الإحاطة (9/1).

دحاه الله في بسيط سهل تخترقه المذانب وتتخلله الأنهار جداول، وتتراحم فيه القرى والجنات في ذرع أربعين ميلاً أو نحوها» (30).

وتمتاز أراضي فحص غرناطة (إلى جانب خصبها العظيم) أيضاً بما تحتوي عليه من معادن الذهب والفضة والرصاص والحديد والتوتة (31) التي كانت بدون شك توفر دعامة هامة لصناعات غرناطة، ولا سيما صناعة الأسلحة، ولوازم الخيل، والحلى، والأواني،... الخ.

وأما بساتين غرناطة وحدائقها ومنتزهاتها، فهي تمتد في معظمها خارج أسوار المدينة مباشرة وهي جنات (32) وارفة الأشجار كثيرة الكروم وتحمل أسماء مثل: فدان الميسة، والجنة المعروفة باسم عصام، والجنة التي كانت تحمل اسم المعروي، والجنة المنسوبة إلى قداح بن سحنون، والجنة المنسوبة إلى ابن المؤذن، وجنة النخلة السفلى، وهذه الأسماء ربما كان بعضها مما استحدث بعد عهد الزيريين، ولكن ابن الخطيب الذي ينقلها لنا لا ينسى أن يذكر بصفة خاصة سطوراً من شجر الحور، ينسب إلى مأمّل أحد خدام الدولة البادسية (33).

وسكان غرناطة يتميزون بخصائص اجتماعية وأخلاقية وخلقية، عني المؤرخ والأديب الكبير، لسان الدين بن الخطيب، بتسجيلها في فصل خاص في كتاب الإحاطة نقّبتس منه العبارة التالية:

«أحوال هذا القطر في الدين وإصلاح العقائد، أحوال سنية، والنحل

---

(30) الإحاطة (105/1) .

(31) نفس المصدر (104/1) .

(32) الجنة في لغة سكان غرناطة معناها الحديقة أو البستان .

(33) الإحاطة (123-122/1) .

فيهم معروفة، فمذاهبيهم على مذهب مالك بن أنس<sup>(34)</sup> أمام دار الهجرة جارية، وطاعتهم للأمرء محكمة، وأخلاقهم في احتمال المعاوز الجبائية جميلة، وصورهم حسنة، وأنوفهم معتدلة غير حادة، وألوانهم زهر مشربة بحمرة، وألسنتهم فصيحة عربية يتخللها غرب<sup>(35)</sup> كثير وتغلب عليهم الأمانة، وأخلاقهم أبية في معاني المنازعات، وأنسابهم عربية، وفيهم من البربر والمهاجرة كثير ولباسهم الغالب والفاشي بينهم الملف المصبوغ شتاء، وتتفاضل البرز بتفاضل الجدة والمقدار، والكتان والحرير والقطن والموعر، والأردية الإفريقية والمقاطع التونسية، والمآزر المشفوعة صيفاً، فتصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة في البطاح الكريمة، تحت الأهوية المعتدلة<sup>(36)</sup>.

وعلى عكس ما كان متبعاً في المغرب فإن ابن الخطيب يلاحظ أن لباس العائم قليل في زي أهل غرناطة، إلا ما شذ من شيوخهم، وقضاتهم، وعلمائهم، والجنود العربي منهم، وهذه العادة لا بد وأن تكون من بقايا العهد الذي كانت فيه الأغلبية الساحقة من سكان غرناطة وولايتها، من البربر. فإن البربر، فيما عدا العلماء والاشراف منهم، لا يلبسون العائم.

ويمضي ابن الخطيب فيقول:

«وأعيادهم حسنة مائلة الى الاقتصاد، والغناء بمدينتهم فاش، حتى في الدكاكين التي تجمع صنائعها، وقوتهم الغالب فيه البر الطيب، عامة العام، وربما اقتات في فصل الشتاء الضعة واليوادي والفعلة في الفلاحة، الذرة

(34) كان أهل الأندلس يعملون بمذهب الأوزاعي إمام أهل الشام قبل ذبوع مذهب مالك، أيام معاوية، هشام بن عبدالرحمن الداخل، وقد كان ذبوع هذا المذهب على يد جماعة من أهل الأندلس رحلوا الى المدينة وتعلموا على يد الإمام مالك.

(35) كذا في النص وربما كان الأفضل قراءة غريب.

(36) الإحاطة (140/1-141).

العربية، مثل أصناف القطني الطبية وفواكههم اليابسة عامة العام متعددة، يدخرون العنب سليماً من الفساد الى شطر العام الى غير ذلك من التين والزيتون والتفاح والرمان والقسطل والبلوط والجوز واللوز<sup>(37)</sup>.

وهذا الوصف لعادات سكان غرناطة وأخلاقهم على الرغم من أن ابن الخطيب قد سجله بعد أكثر من قرنين ونصف بعد سقوط دولة بني زيري، فإن من الممكن الاعتقاد بأن سكان غرناطة كانوا يتوارثون هذه الخصائص جيلاً عن جيل، وهذا يصدق بصفة خاصة على السمات الفيزيائية والملابس بالنظر الى تغلب العنصر البربري الذي أخذ معه كثيراً من عاداته من المغرب.



كان بودنا أن نضيف صفحة أو صفحتين لوصف الحياة الأدبية والثقافية بصفة عامة، في غرناطة ولكنه من سوء الحظ أن ما وصل إلينا من الأدب من إنتاج العصر الزيري، قليل بصورة تسترعي النظر.

هل كان مرجع هذه الظاهرة الى انغلاق قصور البربر نسبياً على الأدب والى قلة اكتشاف الزيريين بالأدباء على أثر الفتنة العظمى التي هدت الأندلس والى ما نجم عنها من الضغائن والأحقاد بين العرب والأندلسيين والبربر، أو أن مرجعه الى إهمال مؤرخي الأدب عمداً أو تناسياً، لإنتاج أدبي ترعرع في حضن غرناطة الزيرية تحت تأثير نفس العواطف؟.

ربما كان كلا الاعتبارين صحيحاً، بمعنى أن ملوك البربر الأوائل كانوا قليلي الميل الى الأدب، وان القليل الذي قيل في مدح هؤلاء الملوك قد ضاع، فعلاً بحكم هذا الإهمال.

ولربما كان للنزاع السياسي المستمر والمنافسة بين غرناطة واشبيلية أثر سلبي

---

(37) نفس المصدر.

على الأدب في غرناطة، بمعنى ان مدح بني زيري والتقرب اليهم يشكل عقبة في طريق الشعراء الذين يطمعون في الوصول الى مكان صغير في مجلس ابن عباد. ونحن نملك شواهد على أن بعض الشعراء حاولوا التقرب من بعض ملوك العرب والحصول على حمايتهم بهجاء بني زيري والبربر<sup>(38)</sup>.

على أن موقع غرناطة بجبالها وهضابها وأنهارها ومنتزهاتها وجبالها الخلاب، كان في جميع الأزمنة مجالاً لتأملات الشعراء والفنانين ومنبعاً فياضاً للوحي بروائع القصائد والقطع النثرية، في القديم والحديث.

وهذا الموقع وما يحيط به هو الذي أوحى بالمثل الأسباني الشائع:

- Quien no ha visto

Granada,

no ha visto nada

« من لم ير غرناطة لم ير شيئاً على الإطلاق، ومن بديع النثر الفني الذي قيل في غرناطة، تلك القطعة التي وردت في رسالة لابن البحر تصور

---

(38) والمثال الذي يتبادر الى الذهن في هذا السياق هو خلف بن فرج الألبيري الألبيري، فانه لما

بلغ المعتمد بن صهاح أنه هجاه، احتال في طلبه حتى وقع في قبضته ثم قال له: أنشدني ما

قلته في، فقال له: وحق من حصلني في يدك ما قلت فيك شراً وإنما قلت:

رأيت آدم في نومي فقلت له أبا البرية إن الناس قد حكموا

إن البرابر نسل فيك، قال إذن حواء طالقة إن كان ما زعموا

فندّر عبدالله بن بلكين دمي فخرجت هارباً الى بلادك، فوقع علي من أشاع ما بلغك لتقتلني

أنت فيدرك هو ثأره بك، ويكون الإثم عليك، فقال: وما قلته فيه (عبدالله) خاصة مضافاً

الى ما قلته في عامة البربر، فقلت:

يبني على نفسه سفاهاً وكأنه دودة الحرير

قال المعتمد: لقد أحسنت في الإساءة اليه.

مدن الأندلس العظيمة وكأن كلاً منها تتفاخر بمزاياها.

قالت غرناطة:

« لي المعقل الذي يمتنع ساكنوه من النجوم ولا تجري إلا تحته جياذ الغيم  
السحوم، فلا يلحقني من معاند ضرر ولا حليف، ولا يهتدي الى خيال طارق  
ولا طيف، فاستسلموا قولاً وفعلاً، فقد أفلح اليوم من استعلى. لي بطاح  
تقلدت من حد أولها أسلاكاً، وأطلعت كوكب زهرها، فعادت أفلاكاً،  
ومياه تسيل على اعطافي كأدمع العشاق، وبرد نسيم يَرْدُ دَمَاءَ المستجير  
بالانتشاق، فحسني لا يطمع فيه ولا يحتال، فدعوني، فكل ذات ذيل تختال،  
فأنا أولى بهذا السيد الأعدل، وما لي به من عوض ولا بدل، ولم لا يعطف  
على عنان مجده، ويثني، وإن أنشد يوماً فايأي يعني:

بلاد بها علق الشباب تمائمى وأول أرض مسَّ جلدي تراها<sup>(39)</sup>

ومن غرر الشعر الذي قيل في مدح غرناطة والحنين الى ربوعها، هذه  
الآبيات لابن الحجاج يوسف بن سعيد بن حسان:

أحن الى غرناطة كلما هفت	نسيم الصبا تهدي الجوى وتشوق
سقى الله من غرناطة كل منهل	بمنهل سحب مأوئن هريق
ديار بدور الحسن بين خيامها	وأرض لها قلب الشجي مشوق
أغرناطة العلياء بالله خبري	الهائم الباكي اليك طريق

---

(39) نفح الطيب (172-173) .



المهدية

من بداية عهدها حتى سقوط الدولة الزيرية



تقع المهديّة التي تسمى أيضاً العبيدية على الشواطئ الشرقية التونسية التي تمتدّ بين سوسة وسفاقس في شبه جزيرة كانت تسمى « جزيرة جة » ويبلغ طولها 1500 متر، وعرضها 500 متر، وترتبط باليابسة بمضيق يحيط به البحر من ثلاث جهات، ولا مدخل إليها إلا من الجانب الغربي، وهو أشبه ما يكون بمعصم اليد. والمرجح أن المهديّة التي تقع على مسافة 60 ميلاً من القيروان، كان موقعها من القواعد التجارية الفنيقية في الماضي، واحتله الرومان في مرحلة تالية، ولكنه لا يوجد لدينا ما يدل على أنه كانت في هذا المكان مدينة، قبل أن يكتشفه المهدي، العبيدي، كما زعم ذلك الواقدي<sup>(1)</sup>.

(1) اخترع الواقدي (محمد بن عمر 130-207) في كتاب فتوح إفريقية (طبعة تونس 1966) مدينة اسمها «المهديّة» وجعلها مسرحاً لأحداث غرامية ولمعارك حربية زعم أن عقبة بن نافع خاض غمارها، وكان محاطاً بكبار قواده مثل عبدالله بن جعفر، وعبدالله بن رافع، وعبدالله بن العباس وغيرهم. ولكن هذه الأحداث كلها، بما في ذلك غزو المهديّة التي لم تظهر إلى الوجود وتأخذ اسم بانها، إلا بعد وفاة هذا المؤلف بأكثر من قرن، تكتسي طابعاً أسطورياً، وبالتالي، فهي مما دسه متأخرون على روايات هذا الكاتب. ومن المؤسف أن مناظر تمثل بعض هذه الأحداث التي لا تمت إلى التاريخ بصلة قد اقتبسها مؤلفو سناريو فيلم «الرسالة» الذين ادعوا أن وقائعهم تمثل حقائق تاريخية. وقد مرت هذه الخرافات على اللجنة التي شكلت من جماعة من العلماء ولم يتاولوا تحقيقها. وقد زعم الذين حشوا كتاب الواقدي بهذه الأساطير، أن جيش عقبة الذي ضرب حصاراً على المهديّة، كان يتكون من 60 ألف مقاتل، وأن ملك المهديّة الروماني الذي تولى الدفاع عنها كان يركب في أربعمائة ألف مقاتل، وأن صاحب حيدرة (؟) قد أنجده بمائة ألف فارس، ومعهم ألف طبل من النحاس، وأن صاحب قسنطينة أمده بمائة وخمسين ألف فارس، ومعه ثلاثة آلاف طبل الخ... وأما المهديّة نفسها فحدث عن عمرانها وضخامة بنائها، ولا حرج. ويكفي لكي =

ويحيط بالمدينة سور يتابع تعاريج الشاطئء تخترقه أبراج هنا وهناك، ومن جهة البرّ يمتد حولها سور واسع محصن بأبراج مستديرة أو مربعة .

وفي أعلى مكان في هذه الجزيرة ترتفع قصبة تركية قديمة يرجح أن تكون قد بنيت في مكان قصر عبيدالله المهدي<sup>(2)</sup>، وقد تعرف العالم التونسي، المرحوم حسن حسني عبد الوهاب على القسم الأعلى منه في المكان الذي كانت تشغله قوة الدرك في عهد الحماية، وعلى القسم السفلي في الأنقاض التي بقيت من قاعة منه طولها عشرون متراً أو أكثر، مدموسة السقف ويرجح أنها كانت إحدى قاعات الاستقبال (التشريفات)<sup>(3)</sup> التي كان يستقبل فيها السلطان رجال الدولة وأعيان المملكة، أو هي مكان الاجتماع الذي يجري فيه الملك المشاورات والمخابرات مع مستشاريه ورجاله المقربين، والذي يسمى في المغرب والأندلس « المشور » . وسعة جدران انقاض هذا القصر تعطي فكرة عن سعة رقعته وعظمته .

وأمام القصر ميدان فسيح كان يمتد حتى القصر الذي بناه المهدي لابنه وخليفته، القائم بأمر الله . وكانت قد اجريت فيه حفريات بسيطة وكشفت عن سطوح مغطاة بالفسيفساء العربية ذات لونين، وتمثل باقات زهور جميلة، وقد حفظت قطع مما عثر عليه في متحف بارد<sup>(4)</sup> .

ندرس إلى أي مدى توغل الخيال بكتاب هذه القصص، أن عرف أن المهدية الوهمية التي يقولون أن عقبة استولى عليها، كان لها عشرون باباً، بعضها مذهبة وأخرى مفضضة، وأن عبدالله بن جعفر لما دخل على ملكها في قصره، وجده جالساً على سرير طوله عشرون ذراعاً من العاج المرصع بالدر والياقوت وله مائة قائمة مصنوعة من الرخام وقد صنع لابنة الملك التي وقعت في غرام عبدالله قبة طولها ألف ذراع في الهواء، رأسها من الزجاج الأحمر الخ... أنظر فتوح افريقية، 4/1 - 30 .

(2) أنظر مقالة جورج مارسى في دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الثانية) مادة « المهدية » .

(3) ودرقات في الحضارة العربية بافريقية 363/3 .

(4) نفس المصدر 364/3

تتفق الرواية العربية على أنه بعدما عاد أبو عبد الله (5)، الداعي بعبيد الله المهدي وابنه اللذين كانا محبوسين في سجون بني مدرار، بسجلماسة، ونزلوا برقادة في ربيع سنة 297 هـ.، حيث بوع المهدي البيعة العامة، واستقر له الأمر بعد ذلك (6).

ولكن تعدد الأجناس والمذاهب (وخصوصاً، قوة الخوارج) وانتشار روح الثورة بين كتامة وغيرهم في القيروان أمور جعلت المهدي يفكر في بناء مدينة بعيدة بالقدر المرغوب فيه عن العاصمة القديمة، على شاطئ البحر يتخذها عاصمة لدولته الجديدة، ومقرّاً لأهل بيته (7).

(5) الحسين بن أحمد، أبو عبدالله، المعروف بالشيوعي (ت 298 هـ) ناشر دعوة الفاطميين في المغرب، كان داهية شجاعاً من كبار رجال الباطنية، أصله من صنعاء. اتصل في صباه بالإمام محمد الحبيب (أبي المهدي)، فوجهه مع الحجاج إلى مكة حيث التقى برجال من كتامة، فأخذوا عنه المذهب الشيعي ورحل معهم إلى المغرب حيث دعا كتامة إلى بيعة المهدي (سنة 286 هـ) الذي لم يسمه، فتيهه جمع غفير منهم، ثم رحل إلى «إيقجان» بمنطقة سطيف، ونل بمدينة «ناصروت» وقاتل من لم يتابعه، وعظم شأنه، فزحف على ميلة وملكها. ولكن الأغلبية الذين استهانوا به واحتقروا أمره في البداية، بعثوا إليه جيشاً كبيراً، فهزم كتامة، وأحرق ميلة وناصروت، فامتنع أبو عبدالله في إيقجان، فبنى مدينة أسماها «دار الهجرة»، ومنها انطلقت قواته فاكتسح السهل والوعر، قبل أن يملك القيروان ويجلي الأغلبية عن أفريقية، ولما حضر المهدي إلى المغرب اتجه إلى سجلماسة حيث سار أبو عبدالله لاستقدامه إلى رقادة. وقد قتله المهدي، هو وأخاه وجاعة من كتامة بتهمة التآمر على نظام حكمه في سنة 298 هـ.

أنظر سيرته وأخباره في وفيات الأعيان 192/2 - 194 وافتتاح الدعوة للقاضي النعمان (الفهرست) والعبر 362/3 و 31/4 - 37 والكامل لابن الأثير 10/8 - 17 والبداية والنهاية 180/11 والبيان في عدة مواضع ولا سيما 164/1.

(6) صبح الأعشى 123-122/5.

(7) العبر 38/4. ولكن البكري صريح في أن سبب بناء المهديّة هي مؤامرة أبي عبدالله وشقيقه أبي العباس. أنظر المغرب، ص 30.

وأقدم رواية تصف خروج المهدي من رقادة للبحث عن مكان يصلح لبناء المدينة الجديدة، هي فيما أعتقد رواية أبي اسحاق الرقيق القيرواني (ت. بعد 417 هـ). الذي عاش في أوائل عهد الدولة الزيرية نحو نصف قرن، والذي ربما ولد بعد بناء المهديّة بوقت قصير<sup>(8)</sup>. وهذه الرواية نقلها إلينا التجاني في رحلته وأسندها إليه بالنص التالي:

« خرج عبيد الله المهدي<sup>(9)</sup> بنفسه في سنة 300 هـ. إلى مدينة تونس،

(8) وصفه ابن خلدون في المقدمة بأنه « مؤرخ إفريقية والدول التي كانت بالقيروان ولا يأت سن بعده إلا مقلد ».

(9) هو عبيد الله: (259-322 هـ 873-934 م) بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكنوم، من ولد جعفر الصادق، مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب. ولد بسلمية (سورية) وبها كان يقيم (وفي رواية ولد بالكوفة). أرسل أبوه الدعاة، وفي مقدمتهم أبو عبدالله الشهير بالشيخي، فمهد له بسانه قبيل كتامة، في منطقة سطيف، ثم وجه إليه الرسل تستدعيه إلى المغرب، فبلغ ذلك المكتفي العباسي فطلبه وأفلت منه ففر من سلمية إلى العراق ثم لحق بمصر، ومنها سار متخفياً مع التجار إلى سحلماسة، حيث لحق به أبو عبدالله وخلصه هو وابنه من سجون بني مدرار وباعه هنالك، ثم عاد به إلى القيروان، حيث تلقى البيعة العامة في سنة 297 هـ.. واستوطن رقادة، قبل أن يبتني المهديّة، بعث المهدي الولاة إلى طرابلس وبرقة وصقلية، وطوح بالدولة الرستمية في تيهرت، ووجه حملتين عسكريتين لفتح مصر ولكن فشلت كلتاها، وفيما يتعلق بنسب المهدي فيحيط به كثير من الشك والغموض، وقد أنكر انتسابه إلى سلالة الرسول أكثر من واحد من الثقات، انظر ترجمته في: الكامل لابن الأثير 90/8 والعبر 11/4، 30-40 واتعاظ الحنفا ص 60-73 ورسالة افتتاح الدعوة ص 32-34، 45-48، 127-130، 149-152، 248 - 251، والدرّة المضيئة، ص 108 والسان 158/1 وخطط المقرئ 349/1 وعبر الذهبي 193/2، والمؤنس ص 56، وشذرات ابن العماد 294/2 والآثار الباقية للبيروني، ص 39 (وفيه: « فلا يحتاج في تصحيحه (النسب) إلى بذل الأموال والجعل، كما بذلها عبيد الله بن الحسن بن أحمد بن عبدالله بن ميمون القداح لنقباء العلويين حتى أرضاهم وأسكتهم) وتاريخ ابن الخميس 385/2 (وفيه ورد اسمه: عبيد الله بن الحسين ابن واوصل نسبة بعبد الله بن ميمون القداح) وأعمال الأعلام 22/3 ووفيات 116/3 (وفيه وإنما تسمى عبيد الله « المهدي » استئثاراً، هذا عند من يصح نسبه، ففيه اختلاف. وأهل العلم بالأنساب يتكون دعواه في النسب) =

فاجتاز قرطاجنة وغيرها، ومرّ على جميع السواحل يرتاد موضعاً على ساحل البحر يتخذ فيه مدينة تحصره وتحصر بنيه من بعده، وقد كان عندهم علم حدثاني بقيام قائم على ذريته، فأقام يلتمس ذلك مدة، فلم يجد موضعاً أحسن ولا أحسن منه من موضع المهديّة، فبناها هناك وجعلها دار مملكة<sup>(10)</sup>.

ولكن هذه الرواية البسيطة والتي لا يوجد ما يحمل على التشكك فيها تناولتها أيدي الكتاب والمؤرخين عبر العصور بالتنميق والتوسيع وأضافوا إليها تفاصيل مستوحاة بدون شك، من رغبة بعض عناصر الشيعة في أن تسبغ على المهدي صفات العلم بالغيب والتنبؤ بالأحداث التي ستقع في عهد أبنائه من بعده، وهي نزعة ستتبلور فيما بعد إلى محاولة لتأليه المهدي وإعطاء المهديّة وضع الأماكن المقدسة، كما سنرى.

وقد قيل إنه لما اختط المدينة وابتدأ في بنائها وارتفع سورها قليلاً، أمر عبيدالله ناشباً أن يرمي فوقه بسهم إلى ناحية الغرب، فنظر إلى المكان الذي انتهى إليه السهم قائماً بصلبه، وهو مكان المصلّى، قال «إلى هذا المكان ينتهي صاحب الخبار» يعني أبا يزيد<sup>(11)</sup>.

ونقل عن معلم الفتیان، محرز بن خلف (ت 413 هـ) أنه أمر المهدي بقياس مسافة هذه الرمية، فكانت مائتي ذراع، فقال المهدي: «هذا منتهى ما تقم المهديّة في أيدينا من السنين»، ولما تمّ بناء السور هنأه أولياؤه بذلك قال

---

= وجهرة ابن حزم، ص 60-61 (وفيه: وادعى عبيدالله القائم بالمغرب أنه أخو الحسن البغيض، وشهد له بذلك رجل من بني البغيض، وشهد له (أيضاً) بذلك جعفر بن محمد بن الحسين بن أبي الجن... وكل هذه دعوى مفتضحة، لأن محمد بن اسماعيل بن جعفر لم يكن له قط ولد اسمه الحسين. وهذا كذب فاحش).

(10) رحلة التجاني، ص 320-321. قارن: صورة الأرض لابن حوقل، ص 73 واطعاف الحنفا، ص 70 ومعجم البلدان 229/5 والبيان 169/4 والعبر 38/4 والكمال لابن الأثير 94/8-195.

(11) قارن العبر 38/4 ورحلة التجاني، ص 321 والكمال لابن الأثير 94/8.

لهم: « إن جميع ما ترون إنما عمل لساعة واحدة، يعني ساعة وصول أبي يزيد إلى المهديّة (12) »

وقالوا أيضاً إن المهدي ورفقائه وجدوا في موضع المهديّة راهباً في مغارة فقالوا له: « بم يعرف هذا المكان؟ » فقال: « إنه يسمى جزيرة الخلفاء » فأعجبه هذا الاسم فبناها. ونحن نذكر أن قصة الراهب المتعبد في مكان مدينة قد أوردتها المؤرخون أيضاً بما يشبه التواتر في سياق بناء تونس وفاس، وهي توحى بقداسة المكان وباستمرارية وظيفته الدينية.

وكذلك نقلت أقوال أخرى حول بناء المهديّة نتركها لأنها تحمل طابع الدعاية الذي سبقته الإشارة إليه.

ابتدأ العمل في بناء المهديّة تحت إشراف عبيد الله المهدي الذي كان يقف على فرسه فيأمر العمال والصّنا (13) وكان ذلك يوم السبت لخمس خلون من شهر ذي القعدة، سنة 303 هـ (14). وكان أول ما ابنتى منها سورها الغربي، وقد رصّع سور المدينة بستة عشر برجاً، ثمانية منها في السور الأصلي، وثمانية في السور المحيط بالمساحة التي ردمت من البحر. وقد كانت هذه الأبراج تسمى بأسماء شخصيات من ذوي العلم والفضل، مثل برج أبي الوزان الحموي، وبرج الدهان الخ..، وذلك بسبب قرب ديارهم منها. والمسجد الجامع ودار المحاسبة بني كلاهما فيما ردم من البحر.

---

(12). حلة التجاني.

(13) صورة الأرض لابن حوقل، ص 73 ورحلة التجاني، ص 322.

(14) هذا هو التاريخ الذي تحدده مراجعنا للمشروع في بناء مدينة المهديّة، وقد انفرد ابن عذارى الذي أوردته ضمن حوادث سنة 300 هـ..، وربما كان ذلك سهواً من النساخ فأتى على محققى كتاب البيان.

ولما تم بناء السور<sup>(15)</sup>، أمر المهدي بصنع بابين من حديد للمهدية، فجعلها صفائح مصصاة يزن كل مصراع باب منها مائة قنطار.<sup>(16)</sup> ثم أثبت في كل منها مسامير زنة كل مسمار منها ستة أرتال.

ولما رأى المسامير تتقلقل، أمر بإيقاد النار تحت الباب حتى التهبت واتصلت المسامير بالصفائح، فعادت كلها قطعة واحدة. ولما تم صنع الباب، رقبيل تركيبه، أراد المهدي أن يعرف وزنه، فقبيل له إنه لا سبيل الى ذلك لإفراط ثقله، فأمر فوضع أحد مصراعيه في سفينة، وسجل مدى غوص السفينة في الماء ثم أنزله، وشحن السفينة بالرمل والحجارة حتى وصلت إلى درجة مصراع الباب في الغوص، ثم أمر بوزن الرمل، فعرف بعد ذلك وزن الباب الذي يبلغ طوله 30 شبراً<sup>(17)</sup>

ولما ركبوا الباب صعب عليهم فتحه وإغلاقه، فاحتاج الأمر الى مائة رجل، فيما قبيل، للقيام بهذه العملية، فأمر المهدي أن يصنع له مدار من الزجاج، فسهل عليهم بعد ذلك فتحه وإغلاقه.

وقد وصف الإدريسي البابين قائلاً إنه ليس يدرى في معمور الأرض مثلها صنعة ووثاقة، وهما من عجائبها الموصوفة<sup>(18)</sup>

وقال ابن حوقل إنه « ليس لها فيما رأيت شبة ولا نظير، غير البابين اللذين على سور الرافقة »<sup>(19)</sup>.

---

(15) في شهر ربيع الأول من السنة. وفي رواية ياقوت أن بناء السور تم في سنة 305 هـ.

(16) كذا في جميع مراجعتنا، فيما عدا البكري الذي يذكر أن وزن كل باب 1000 قنطار، وقد تبعه في ذلك ياقوت الذي ينقل كثيراً من معلوماته عن المغرب عن الجغرافي الأندلسي.

(17) المغرب للبكري.

(18) صفة المغرب، ص 107.

(19) صورة الأرض، ص 73.

وبعد ذلك، أمر المهدي بحفر مرسى المدينة الذي يتسع لثلاثين سفينة، فنقر في الحجر الصلد على عمق 12 متراً<sup>(20)</sup> راقام على قسم لمرسى الذي يبلغ اتساعه 15 متراً، سلسلة من حديد ربطت ببرجين بنيا على طرفيه فإذا أريد إدخال سفينة فيه أرسل الحرس في البرجين طرفي السلسلة حتى تدخل السفينة، ثم مدوها كما كانت بعد ذلك، لثلا تطرقها مراكب الروم<sup>(21)</sup>

وهذا المرسى الذي يعتبر من أعظم منشآت المهدي كان الفاطمي يريد أن يستغني به عن مرفأ سوسه الذي أسسه الأغالبة<sup>(22)</sup>.

وبعد ذلك، أمر المهدي ببناء القصور والدور وبنقر الأهرأ<sup>(23)</sup> في الصخر وملئها بالحبوب التي لا تنفع إلا في أوقات الشدة. وكان من بين القصور التي بناها قصره الخاص الذي تقول الرواية أن بعض طيقانه من الذهب، وقصر ابنه الذي كان يقع بجواره.

وكذلك أمر ببناء دار الصناعة<sup>(24)</sup> الذي يتسع لمئتي سفينة، والذي كان،

---

(20) رحلة التجاني، ص 322 .

(21) وراقات لحسن حسني عبدالوهاب، ص 365 . وانظر وصف هذا الميناء كذلك في الاستبصار، ص 117 .

(22) المغرب للبيكي، ص 29 .

(23) جمع هرو = انبار (Grenier) في الأصل: بيت كبير يجمع فيه طعام السلطان للطواري. ولكنه جرى استعمال الكلمة في الحديث عن الأماكن التي تخزن فيها الحبوب والتبن التابعة للسلطان. انظر الكلمة في لسان العرب لابن منظور (طبعة العلايلي وآخرين) 186/4 ، والسلوك للمقرئزي 508/1 وإغاثة الأمة، ص 28 (هامش 4).

(24) اختلط الأمر على المقرئزي حين يقول في الخطط (397/3) « وأمر (المهدي) أن تنقر دار صناعة في الجبل تسع مائة شيني » (ج . شواني = سفينة حربية)، لأن الذي نقر في الجبل، كما ذكرنا، هو الميناء. وأما دار الصناعة التي أنشئت في المساحة المردومة، فهو، كما يعرفها نفس المؤلف مكان قد أعد لإنتشاء المراكب البحرية. وكلمة « دار الصناعة » =

حسب وصف البكري، من «عجائب الدنيا». وقد زودت دار صناعة السفن بقبوين طويلين لاستعمالهما لخزن آلات المراكب وأدواتها للمحافظة عليها من الشمس والمطر<sup>(25)</sup>

وأما المياه الضرورية للمدينة فقد جلبها المهدي إليها من قرية ميانس لتي تقع غير بعيد من المهدي في قنوات (افداس) تصب في صهرج داخل المدينة عند جامعها، ويرفع الماء من الصهرج إلى القصر الذي كان في موقع مرتفع بواسطة دواليب وكذلك يرفع الماء بالدواليب من ميانس ويصب في محبس تنطلق منه تلك القنوات<sup>(26)</sup>

وبالإضافة إلى موارد الماء التي تزود بها المهدي بواسطة القنوات، كان يوجد في المدينة عدد من الجباب وثلاثمائة وستون من المواجل العظام التي تحتزن بها المياه في الشتاء وتمد المدينة بجزء من حاجتها من هذه المادة الحيوية<sup>(27)</sup>.

كان اتساع المهدي في أول بنائها من الجوف إلى القبلة قدر غلوة سهم، فاستصغر المهدي هذه المساحة وأمر بردم مثلها من البحر وضمها إلى المدينة. وفي هذه المساحة بنى الدار التي تسمى «دار المحاسبة» والجامع الأعظم، كما سبقت الإشارة. وهذا الجامع كان، فيما يقول البكري، متقن البناء، وكان له

---

= العربية هي التي حرفها الأوروبيون إلى: Darsena بالأسبانية، و Arsenal بالفرنسية و Arsenal بالانجليزية، وكذلك وقع انحراف عن مدلول الكلمة الأصلي، حيث يعرفها قاموس «لاروس» الذي يرد الكلمة إلى أصلها العربي، بأنها تعني مصانع الأسلحة والذخيرة الحربية وأحواضاً لبناء السفن وتصليحها، وقد تطلق على كمية كبيرة من الأسلحة.

(25) المغرب للبكري، ص 30.

(26) نفس المصدر.

(27) نفس المصدر.

سبع بلاطات<sup>(28)</sup> وكذلك أحاط المهدي مدينته بعدد من الأرباض، مثل ربح الحمي الذي كان مخصصاً لسكنى الجنود من العرب والبربر، وقصر أبي سعيد، وربض قفصة الخ...، ولكن أهم أرباض المدينة وأوسعها وأقربها إليها بحيث يعتبر مكملاً لها، (يقع على مسافة غلوة سهم) هي مدينة زويلة التي خصصها لسكنى العامة، من أصحاب الدكاكين وأرباب الحرف، وجعل فيها الأسواق والحمامات والفنادق، وأحاطها بسور وأدار حولها خنادق متسعة تجتمع فيها مياه الأمطار، وقد كان بخارج زويلة الحمي المعروف بحمي زويلة، كله جنات وبساتين تنتج مختلف أنواع الفواكه والثمار<sup>(29)</sup>.

وقد علل المهدي بناء زويلة وفصل سكانها من العامة عن سكان المهدية التي تساوي الارستوقراطية والأعيان الخ...، بقوله: «لآمن غائلتهم، فامواهم عندي وأهاليهم هناك، فإن أرادوني بكيد وهم في الزويلة، كانت أمواهم عندي، وإن أرادوني بكيد وهم في المهدية خافوا على عيالهم في الزويلة، فانا آمن منهم ليلاً ونهاراً، لأنني أفرق بينهم وبين أمواهم ليلاً، وبينهم وبين حرمهم نهاراً<sup>(30)</sup>».

وقد تم بناء المهدية في سنة 305 هـ<sup>(31)</sup>. ولكن المهدي لم ينتقل إليها إلا في سنة 308 هـ (يوم الخميس 8 شوال). ولما أراد مغادرة رقادة صعب على

---

(28) نفس المصدر.

(29) قارن المغرب للبكري، ص 30 ورحلة التجاني، ص 324 ومعجم البلدان لياقوت 231/5.

(30) معجم البلدان 231/5.

(31) رواية البكري. وفي العبر أن بناء المهدية تم في سنة 306 هـ.. ولكنه ربما كان ابن خلدون يؤرخ لإنعام المرافق مثل المساجد والأسوار والقصور الخ..، بل إن ابن عذارى ليخبرنا بأن البنيان الذي تم في المدينة عند انتقال المهدي إليها، هو قصر عبيدالله وقصر ولده القائم، وسور المدينة البحري، وبعض دور رجاله «ولم يكمل كل».

أصحابه وجنده ترك هذه المدينة التي تربطهم بها مختلف الروابط ، فاستبقاهم حيث كانوا ، ووعدهم بإجراء الصلوات والأرزاق عليهم كما كان الحال قبل انتقاله . ولكنه لم يمض سوى وقت قصير حتى هطلت أمطار غزيرة خربت بنيان مدينة رقادة وهدمت دورها ، وهلك من جراء ذلك خلق كثير ، فخرج الناس إلى العراء ، ثم كتبوا إلى عبيد الله يسألونه الإذن بالانتقال إلى المهديّة ، فأجابهم إلى ذلك وكملت عمارة المدينة<sup>(32)</sup>.

وحدث إتمام بناء المهديّة وانتقال جهاز الدولة إليها وعلى رأسه الخليفة ، لم يكن من الأحداث العادية ، وقد احتفل به الناس وتبارى الشعراء في الإشادة بالمدينة ومدح عبيد الله المهدي ، صاحبها . ولكن هذا الحدث كان أيضاً مناسبة للمتنافسين في التزلف والتملق للتفوه بكثير من السخافات . ومن القصائد التي قيلت في تهنئة عبيد الله المهدي بعاصمته الجديدة قصيدة جاء فيها (وافر):

ليهنك أيها الملك المهام	قدوم فيه للدهر ابتسام
لقد عظمت في أرض المغرب دار	بها الصلوات تقبل والصيام
حططت الرحال في بلد كرم	رعته لك الملائكة الكرام
عي المهديّة الحرم الموحى	كما يتهمّة البلد الحرام
كأن مقام إبراهيم فيه	ثرى قدميك إن عدم المقام
وإن لثم الحجيج الركن أضحى	لنا بعراض قصركم التثام
لملك أيها المهدي ملك	غلام والزمان به غلام
لك الدنيا ونسلكم حيث كنتم	فكلكم لها أبداً إمام

ونحن يجب أن نذكر بأن هذه المبالغات في التشبيه والمقارنات المصطنعة ليست حدثاً عرضاً وبمجرد كلمات زلت بها ألسنة الشعراء . فإن حركة غريبة تهدف إلى إحلال المهديّة محل الكعبة كانت قائمة في هذا الوقت في القيروان ،

(32) البيان 185/1 - 186 .

والمهدي لا يزال في رقادة. فقد ذكر ابن عذارى<sup>(33)</sup> أن عدداً كبيراً من الأشخاص من أهل القيروان وباجة وتونس، كانوا قد أظهروا التشريق، وجأهروا بتحليل المحرمات، وأكلوا لحم الخنزير وشربوا الخمر في رمضان جهاراً، وقد علم بذلك العام والخاص، وأن هذه الأعمال قد عير بها فيما بعد، أبو القاسم بن المهدي أثناء وجوده في الفيوم<sup>(34)</sup>.

كان بعض غلاة الشيعة، وفي مقدمتهم أحمد البلوي النحاس، لم يرَ عملاً يتقرب به إلى الله أفضل من تغيير قبلته؛ فكان يصلي مولياً وجهه إلى رقادة، أيام وجود عبيدالله فيها. ولما انتقل المهدي إلى عاصمته الجديدة، المهديّة، حوّل قبلته إلى هذه المدينة التي كانت بالقياس إليه في الغرب. وقد كان هذا النحاس يصرح بدون أدنى حرج أمام من يريد أن يسمعه من المسلمين بقوله: «لست ممن يعبد من لا يرى»، وكان كثيراً ما يحذر أهل القيروان من انتقام المهدي، قائلاً: «إنه يعلم سركم ونجواكم!».

وذات يوم اقترب منه رجل ونطق في أذنه: «عبيدالله زان وابن زانية! فإن كان يعلم ما قلت فلينتقم!» فرد عليه النحاس في صيحة عظيمة: «يا مسكين... إنه حليم. لا يعجل!»<sup>(35)</sup>.

ومثل هذه الادعاءات التي تمس صميم العقيدة الدينية، لا بد وأن تكون قد بلغت أسماع المهدي من حاشيته وأعوانه. بل إن ابن عذارى ليخبرنا أن هذا البلوي نفسه، كان يعترض طريق المهدي ويصيح عند اقترابه منه: «إرق إلى السماء! كم تقيم في الأرض وتمشي في الأسواق!».

---

(33) البيان 185/1-186.

(34) نفس المصدر.

(35) نفس المصدر.

ولما استقر المهدي في المهديّة أمر أن يكون مرور الحجاج على هذه المدينة بطريقة إجبارية، وأن لا يكون لهم طريق آخر إلى الأماكن المقدسة، وذلك لكي يؤدوا ما فرضه عليهم من المغارم<sup>(36)</sup>.

وفي سنة 309، أظهر منيب بن سليمان المكناشي، الداعي للشيعة في منطقة تيهرت التشريق واستباحة المحرمات، وقد عزى إلى عبيدالله أنه هو الذي وجهه هو وغيره إلى هذه المناطق لإظهار التشريق، فإن احتمله الناس وأغضوا عنه نشره عند العامة. وقد كان منيب هذا في جبل ونشريس يدخل إلى حليّة جاره ويطأها أمام زوجها، ثم يخرج فيبصق في وجهه ويصفع قفاه، قائلاً: «تصبرا». فإذا صبر على ذلك وغيره عدّ كامل الإيمان، وسمي من «الصابرة»<sup>(37)</sup>.

وهذا الاتجاه يفسر إلى حد ما صبر المهدي وسعة صدره إزاء أولئك الذين كان يعملون لإفساد العقيدة ويدعون الوهية في القيروان. فلربما كان ينتظر لأن يرى ردود فعل العامة ورجال الدين، فإذا قبلوا كل ذلك أو بعضه، فهو لا يأمر به...

ولكن الناس في جبال ونشريس لم يحتملوا الداعي منيب ولا دعوته، فقاموا عليه وقتلوه هو وأصحابه.

وفي هذه السنة نفسها (309 هـ) أمر عبيدالله بقتل حسن بن مفرح، أبو علي، الفقيه، ومحمد الشذوني. الزاهد، حينما بلغه أنها قالوا بتفضيل بعض الصحابة على عليّ.

وهكذا، فإن عقيدة جديدة بدأت تتبلور في المغرب وتستقطب المهدي والمهديّة، لم يكن عبيدالله ساخطاً عليها، وإذا كان مصيرها الفشل، فذلك

(36) نفس المصدر.

(37) نفس المصدر.

لأن الجمهور الإسلامي في المغرب لم يكن يتسع صدره لفرق غلاة الشيعة من أمثال الجعفرية والجناحية والسبائية<sup>(38)</sup> التي تعتبر الإمام إلهاً، و من أصل إلهي - تلك الفرق التي وجدت أرضاً خصبة خصوصاً في إيران والهند. فقد قبل المغرب حكم الفاطميين السياسي عدة أجيال، وكان الناس مغتربين خصوصاً بذلك النسب المشكوك فيه والذي يرقى بسلالة عبيد الله إلى الرسول. وأما عقيدة الشيعة فإن جذورها لم تمتد إلا سطحياً في هذه الأرض. وقد تخلص الناس منها بمجرد ما زال قهر السلطان الذي يدعمها، وكان ذلك في عهد حاد، في المرحلة الأولى<sup>(39)</sup> ثم في عهد المعز بن باديس في المرحلة الأخيرة والنهائية.

منذ بناء المهديّة حتى وفاة المهدي، وهي فترة تقرب من ربع قرن، وقعت ثورات وأحداث سياسية كثيرة وخطيرة هزت المغرب هزات عنيفة، وليس أقلها شأنًا توغل جيوش المهدي في الغرب حتى استولت على تيهرت وسجلماسة، وتوجيه الأساطيل لغزو شواطئ بلاد الروم. وهذه الأحداث لا يتسع لها النطاق الذي حددناه لهذه الدراسة، وذلك فضلاً عن أن أقلام بعض المحدثين عاجته بتوسع وبما ينبغي من الدقة في التحليل<sup>(40)</sup>

عهد القائم محمد أبو القاسم بن عبيد الله<sup>(41)</sup>.

توفي عبيد الله المهدي في المهديّة في شهر ربيع الأول سنة 332 هجرية عن

---

(38) أنظر عن هذه الفرق وغيرها من فرق الشيعة، كتابنا: معجم الفرق والمذاهب الإسلامية.

(39) راجع كتابنا: دولة بني حاد، في عدة مواضع، وخصوصاً، ص 109 وما يليها.

(40) أنظر خصوصاً، «عبيد الله المهدي» لطله شرف وحسن إبراهيم حسن، القاهرة 1947.

(41) راجع ترجمة أبي القاسم في العبر 38/4 وما يليها، والكامل لابن الأثير 284/8 والبيان 208/1

والنجوم الزاهرة 287/3 وفيات الأعيان 20-19/5 وأعمال الأعلام 53/3 والفاطميون في مصر لحسن إبراهيم حسن (الفهرس).

عمر يناهز ثلاثاً وستين سنة، فأخفى ابنه خبر موته خوفاً من أن يختلف الناس عليه إذا علموا بموته<sup>(42)</sup>.

فاشدد حزنه على أبيه حتى قيل إنه لم يركب سائر أيامه إلا مرتين<sup>(43)</sup>. ولما أظهر وفاة والده بويج له بالخلافة من بعده واستقر له الأمر.

ولد أبو القاسم ونشأ في سلمية (سورية) ونزح إلى المغرب مع أبيه . ولما استقر الأمر لأبيه في هذه البلاد، اعتمد عليه اعتماداً كبيراً في الإدارة وقيادة الجيوش . وقد كان من بين المهام العظيمة التي كلفه بها انه وضعه على رأس الأسطول والجيوش الذي قام بغزو مصر مرتين (سنة 301 وسنة 307 هـ) . وقد ملك الاسكندرية ثم زحف على الجيزة والفيوم والاشمونين، واستولى على كثير من بلاد الصعيد . ولكن جيوش المقتدر وظروف الوباء قد أضطرتته إلى الرجوع إلى افريقية خائباً مدحوراً<sup>(43)</sup>

وبعد ذلك بعثه والده غازياً إلى بلاد المغرب على رأس جيوش من كتامة وأنصار الشيعة في سنة 315 هـ، فحدر زناتة بقيادة محمد بن حزون ودفع بهم إلى رمال الصحراء. وقد فتح أبو القاسم من ضمن ما فتحه في هذه الغزوة بلاد مزانة ومطاطة وهوارة، وسائر المناطق التي كانت تحت سيطرة الخوارج من الأناضية والصفرية، بما في ذلك منطقة تبهرت<sup>(44)</sup> ثم زحف على المغرب الأقصى، فافتتح بلاد الريف ونازل جراوة التي كانت تحت الحسن بن أبي العيش الإدريسي.

وفي طريق عودته إلى افريقية عقب هذه الحملة المظفرة توقف أبو القاسم في مكان المسيلة، وكان من الأراضي التابعة لقبيلة بني كملان، من قبائل

(42) كذا في الكامل لابن الأثير . وفي البيان: ببيع يوم مات أبوه .

(43) العبر 39-38/4 .

(44) نفس المصدر.

هواره، فاخط هذه المدينة وأمر علي بن حدود المعروف بالأندلسي، والي العبيدين على الزاب ببنائها<sup>(45)</sup>.

ولما تولى القائم الحكم، أصبحت المهديّة قاعدة لفتوحات أخرى فيما وراء البحر، ولا سيما في صقلية، حيث استولى جيشه على عدد من المدن.

وكذلك جهز أبو القاسم أسطولاً ضخماً من المهديّة بقيادة يعقوب بن اسحاق وغزا به بلاد الافرنج وأنخن في جزر سردانيا وقورسيقة ونازل جنوه وافتتحها، ثم بعث بأسطوله الى مصر بقيادة خادمه زيدان، فاستولى على الإسكندرية، وقد هزمته جيوش الاخشيد وعادت فلوله الى المهديّة<sup>(46)</sup>.

وكذلك واجه القائم عدداً من الثورات التي قامت في مختلف أنحاء

---

(45) ذكر ابن الأثير في الكامل (179/8) بناء المسيلة ضمن حوادث سنة 315 هـ.، ولكن ابن عذاري أرخ لهذا الحدث في سنة 313 هـ. (البيان 191/1). والملاحظ ان هذا المؤرخ يتفق مع ابن الأثير وابن خلدون (العبر 39/4) في القول بأن خروج القائم الى المغرب في هذه الحملة كان في سنة 315 هـ. وابن خلدون الذي لا يحدد تاريخاً لبناء المسيلة يقتصر على القول بأنه لما مر القائم بمكانها أجلّ عنه بني كملان الذين كان يتوقع منهم شراً، وانه لما تقلهم أمر ببناء المسيلة في بلدهم وسماها «المحمدية». وأما البكري (المغرب، ص59) فينتق قوله مع تحديد ابن عذاري، وهذا أيضاً هو ما ذهب إليه ياقوت الذي ينقل كثيراً عن البكري، ولكن صاحب معجم البلدان (65-64/5) يضيف ان القائم نقل إليها (المسيلة) الذخيرة في سنة 315 هـ. وتاريخ 313 هـ. هو الذي حدده صاحب كتاب الاستبصار (ص171) لبناء المسيلة. ويبدو أنه من الممكن التوفيق بين هذين التاريخين بإنتاج أن القائم قد أمر ببناء المسيلة في سنة 313 هـ.، ولكن إتمام بنائها ونقل الذخيرة، إليها وتعميرها، لم يتم إلا في سنة 315 هـ.، عقب الحملة التي قادها الأمير أبو القاسم. أنظر غير ما ذكر عن المسيلة: المغرب للدريسي (الذي لم يورد تاريخاً لبنائها) ص85-86، وصورة الأرض لابن حوقل، ص85-86 والمؤنس ص57 وكتاب الجغرافيا لابن سعيد (تحقيقنا) ص126 وتقوم البلدان لأبي الفداء، ص138-139 وصبح الأعشى 107/5 وكتابتنا: المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي.

(46) قارن الكامل لابن الأثير 285-284/8 والبيان 208/1 والعبر 40/4 (ورد فيه اسم يعقوب: يقرب، وزيدان: زيزان بتحريف).

أمباطوريته، من أهمها ثورة طالوت الذي زعم أنه ابن المهدي، في طرابلس الغرب، وثورة أهل جرجنت في صقلية على عامله، سالم بن رشيد، في المرحلة الأولى، ثم ثورة جميع قلاع الجزيرة على عامله الآخر، خليل بن اسحاق في مرحلة تالية، في حوادث معقدة لا يتسع لها هذا المكان<sup>(47)</sup>.

ولكن أكبر الثورات التي هزت عرش الفاطميين، بل والمغرب كله وهددت سلطان أبي القاسم بصورة جدية ولا بد وأن تكون قد ساهمت بحظ غير قليل في اختلال عقله، وقد مات دون أن يدرك نهايتها، هي ثورة أبي يزيد الخارجي، صاحب الحمار<sup>(48)</sup>، والذي يهمننا من هذه الثورة، هو حصار أبي يزيد للمهدية التي أوشكت أن تسقط في يده، مثلما سقطت القيروان وغيرها من مدن المغرب الكبرى.

زحف أبو يزيد على الأربس، ثم على باجة التي أحرقها ونهبها وقتل

---

(47) أنظر تفاصيل في الكامل لابن الأثير 237/8-239 والبيان 251/1 .

(48) هو مغلد بن كيداد بن سعد بن مغيث الزناتي النكاري (ت 336 هـ)، كان معلم صبيان وزاهداً متقشفاً يلبس الصوف ويركب حماراً، ولد بقسطيلية ونشأ بتوزر وخالط السفرة وتنقل في المغرب، ثم أخذ نفسه بالحسبة وتغيير المنكر، فكثر أتباعه وقوي جانبه. وبعد وفاة المهدي خرج بجبل أوراس وتلقب بشيخ المؤمنين، فقاتله القوائم واشتد خطره، وزحف على رقادة في مائتي ألف مقاتل وامتلكها، كما أخضع القيروان واستباح سوسة وارتركب الفظائع في كل مكان حلت فيه حشوده، قبل أن يضرب حصاراً على المهدية نفسها. أنظر عن ثورة أبي يزيد: الكامل لابن الأثير 423/8 وما يليها والعبر 44-40/4 واتعاظ الحنفا، ص 109 وسير أبي زكريا، (تحقيقنا) ص 116-120 وفيات الأعيان 224/1، 235 وسيرة الأستاذ جوفر، ص 48 والنجوم الزاهرة 287/3 والبيان 193-194/1 والحلة السيرة 21/2 ورحلة التجاني (الفهرس) وصورة الأرض لابن حوقل، ص 94 ورسالة افتتاح الدعوة (تحقيق وداد القاضي) 277-279، ودائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية) 164/1 والمغرب للبكري (الفهرس) ومقالة إحسان عباس «مصادر ثورة أبي يزيد» في الاصلة، عدد 61/60 ص 65-81 .

أطفالها وأخذ نساءها ثم خضعت له تونس، قبل أن يحتل القيروان ورقادة<sup>(49)</sup> وفر منها أمامه أبو القاسم (سنة 333 هـ). بعدما سقط في الميدان عدد من قواده، وفي مقدمتهم ميسور الفتى الذي دوخ المغرب الأقصى، وبذلك انفتح أمام النكارى طريق المهديّة - تلك القلعة التي لو قدر لها أن تسقط لكان ذلك إيذاناً بانطواء صفحة في تاريخ المغرب.

كان لخبر هزيمة ميسور الفتى، ذلك البطل الذائع الصيت، ولمقتله وقع كبير بين سكان المهديّة، وخصوصاً بين سكان أرباض المدينة الذين أرادوا الانتقال إلى المدينة للتحصن بأسوارها، فإن قسوة الخارجي وسمعته الفظيعة كانت حديث الخاص والعام، وكان من الطبيعي أن يثير مقدمه المترقب في منطقة المهديّة موجة من الذعر. ولكن القائم رفض هذه الحركة التي كان من شأنها أن تزيد من صعوبة تموين المدينة والدفاع عنها. وكذلك حول جموع سكان الأرباض المتقاطرة إلى زويلة.

إن المهديّة المهددة محصنة بأسوارها المحيطة بها برّاً وبحراً، وليس لها، كما رأينا سوى منفذ واحد ضيق من البر، ومع ذلك، فإن القائم أمر بحفر خندق واسع حول المدينة زيادة في الاحتياط (أواخر سنة 333 هـ). كما كتب إلى زيري بن مناد، زعيم صنهاجة، وإلى زعماء كتامة يطلب إليهم المسير لنجدة المهديّة.

ولما بلغت أخبار تأهب صنهاجة وكتامة لنجدة المهديّة أدرك الخارجي ما ينطوي عليه ذلك من الخطر وقرر أن لا يترك فسحة من المدينة لتعزيز وسائلها الدفاعية، فصار لحصارها ونزل في مكان يسمى «خربة جميل»<sup>(50)</sup> على

(49) الكامل لابن الأثير 423/8 والبيان 218/1 .

(50) تختلف روايات المؤرخين بشأن بعد هذا المكان من المهديّة. في العبر: فنزل على خسة فراسخ من المدينة. وفي البيان: فنزل على خسة عشر ميلاً منها. وفي رحلة التجاني: على مسافة بضعة أميال منها.

رأس جيش عرمرم .

ومن موقعه هذا أخذ يوجه السرايا للسلب والنهب في المناطق المجاورة للمهديّة .

وذات يوم أبصر القائم معسكر أبي يزيد وجيشه مشتتاً مبعثراً بهذه الصورة، فبعث إليه بقوة من فرسان كتامة وغيرهم في أواخر جمادى الأولى لمقاتلته . وقد صادف ذلك وصول ابنه الفضل، على رأس قوة عظيمة من فرسان ضريسة، فأمرهم بالتصدي للكتاميين وأن يقاتلوهم إذا بدأوا بالقتال . وقد التقى الجيشان في منتصف الطريق بين المهديّة ومعسكر أبي يزيد في مكان يسمى « سوق الأحد »، وكانت الهزيمة من حظ الفضل . فلما بلغت أخبار هذا التطور في المعركة إلى أبي يزيد سار بجميع من كان معه لنجدة جيش ابنه . فلما رأى الكتاميون جموعه انهزموا بغير قتال والتجأوا إلى المهديّة، وسار أبو يزيد في أثرهم حتى اقترب من المدينة، فأشار عليه أصحابه بالرجوع إلى معسكره، فعاد أدراجه<sup>(51)</sup>

وبعد ذلك ببضعة أيام زحف على المهديّة حتى وصل إلى خندقها واقتحم الماء بمن معه حتى وصل الماء إلى صدور خيلهم، وقد وصل أبو يزيد حينئذ إلى مصلى المهديّة، فلم يبق بينه وبين المدينة سوى رمية سهم<sup>(52)</sup> وجيوش المهديّة لا تحرك ساكناً . وحينئذ ساد الاعتقاد بين المحاصرين، فيما تقول الرواية، بأن تنبؤ المهدي، باني المدينة، قد تحقق، وأن المهاجمين لا يمكنهم أن يتجاوزوا تلك النقطة .

وإزاء الخطر المحدق بالمدينة دخل رجل على إسماعيل بن أبي القاسم،

(51) قارن العبر 42/4-43 والبيان 218/1 والكامل لابن الأثير 426/8 ورحلة التجاني، ص 325 .

(52) وهي المسافة التي تنبأ المهدي بأن صاحب الحمار سينهزم عندها متى بلغها .

فوجده يلعب بسلباح<sup>(53)</sup> في صهريج، فقال له: «أتلعب وأبو يزيد بالباب!». فقال له: «أوقد فعل؟» فقال الرجل: «نعم!». فرد عليه الأمير قائلاً: «والله لا عاد إليها أبداً، وقد جاء حتفه. وهكذا رأينا في كتبنا.<sup>(54)</sup>

تراجع أبو يزيد إلى المكان المعروف باسم «ترنوط»<sup>(55)</sup>. وهو يقع على خمسة أميال من المهديّة، فعسكر هناك وواصل حصاره للمدينة. وهناك انهالت عليه حشود البربر خصوصاً، من جبال نفوسة والزاب. وقد اشتد حصار المهديّة وخرج منها أكثر سكانها، فلم يبق بها إلا الجند وقد نفدت الأطعمة فأكل الناس الميتة والدواب. وعند ذلك فتح القائم الأهراء التي ملأها المهدي ووزع منها على الناس<sup>(56)</sup>

وفي آخر جمادى الآخرة من السنة زحف مرة أخرى على المهديّة ووقعت معركة بين الطرفين سقط فيها خلق كثير، واقتحم أبو يزيد بنفسه الصفوف حتى وصل إلى باب المدينة، فعرفه بعض العبيد من صفوف المهديّة فقبض على لجانه وصاح: هذا أبو يزيد، فاقتلوه! ولكن أحد أصحاب النكاري بادره بضربة بالسيف وقطع يده، وخلص أبا يزيد من موت محقق<sup>(57)</sup>

ولما رأى أبو يزيد شدة حاس المدافعين عن المهديّة واستماتتهم في القتال،

---

(53) ج . سلايخ وسلايخ، سمك من فصيلة الشلوريات لا حراشف له . يرجح دوزي أن تكون

الكلمة بربرية معربة، أنظر: Supp, aux Dict. Arabes I/670-671.

(54) البيان 219/1 .

(55) وصف البكري ترنوط بأنه فحص يقع على ستة أميال من المهديّة «ومنها زحف أبو يزيد

على المهديّة، وبهذا الفحص كانت محلة أيام حصار المهديّة . وفي كتب الحدّثان: «إذا ربط

الخارجي خيله بترنوط، لم يبق لأهل السواد محلّ ولا مربوط [أهل السواد: أهل

الساحل] » [وقولهم] ويل لأهل السواد من مخلد بن كيداد . المغرب ص 31 .

(56) العبر 42/4 .

(57) الكامل لابن الأثير 428/8 .

استتجد بعامله في القيروان، وأمره بمده بالمقاتلين من أهل المدينة. ولما وصلته الامدادات المطلوبة، زحف مرة أخرى على المدينة في أواخر شهر رجب، وجرى قتال شديد بين الطرفين، انهزم فيه أبو يزيد هزيمة منكرة وقتل عدد كبير من أصحابه ومن الجيش الذي أمدته به القيروان<sup>(58)</sup> وتراجع الى معسكره. وفي أواخر شوال زحف أبو يزيد على المهديّة وجرى بينه وبين جيش القائم قتال شديد.

وفي 6 من شهر ذي القعدة سنة 333 هـ، بلغ القائم ان جيش أبي يزيد قد تشتت في عمليات للنهب والسلب، فأخرج للقائه جيش تمكن من النكاري في المرحلة الأولى، ولكن الأخير لم يلبث أن استعاد زمام المعركة نتيجة لقيام عاصفة نشرت كثيراً من الغبار في الجو مما جعل الرؤية صعبة، وانتهت هذه المعركة بهزيمة جيش المهديّة.

ومرة أخرى استسلمت المدينة الباسلة للحصار وأسلم سكانها أنفسهم لشعور اليأس القائم، فأخذ الكثيرون منهم يبحثون عن ملجأ لأسرهم في صقلية وطرابلس ومصر، بل وفي بلاد الروم أيضاً<sup>(59)</sup>

وفي آخر الشهر نفسه وصلت جموع كثيرة من البربر لتزيد من كثافة حشود أبي يزيد وسار على رأسها في اتجاه المهديّة، وقد تخير الكتاميون مئتين من أشجع فرسانهم فتصدوا له وقتلوا عدداً كبيراً وأسروا خلقاً كثيراً من أنصاره وجنوده، وكاد أبو يزيد نفسه أن يهلك في المعركة، لولا أن وجد من بين أصحابه من قاتل دونه بشجاعة فأسعفه الحظ ونجا بجلده مرة أخرى. ومع ذلك، فإن نتيجة هذه المعركة لم تزحزح الخارجي عن مواقفه في حصار المهديّة.

---

(58) نفس المصدر: 429/8 .

(59) قارن العبر 43/4 والكمال 435/8 ورحلة التنجاني 326-327 .

وقد فكَّ الحصار عن المهديّة نتيجة لعوامل داخلية بحثة في معسكر أبي يزيد، حيث ظهرت نزاعات لم تلبث أن تحولت إلى عداوات بين بعض العناصر القويّة التي كان يعتمد عليها، فانضمت بعض القبائل التي كانت تناصره إلى صفوف المهديّة فلم يبق مواليا له سوى هواره وسكان أوراس وبنو صملان الذين أجلاهم القائم عن أراضي المسيلة .

وقد خشيت العناصر التي بقيت مع أبي يزيد نتائج هذا التحول في ميزان القوى، فرأت في تعزيز صفوف القائم بهذه الطريقة التي لم يكن ينتظرها خطراً جدياً، فقرر رؤساؤها العودة إلى القيروان متجاهلين أوامر أبي يزيد الذي سار في أثرهم (صفر 334 هـ) تاركاً وراءه كل معسكره الذي غنمه المدافعون عن المهديّة . ولما وصل إلى القيروان لم يجد في استقباله سوى عامله على المدينة .

وعند هذه المرحلة انكسر جيش أبي يزيد، ولو انه لم يتحطم بعد، حيث ان معارك ضارية وقعت بعد ذلك، بين الطرفين، خصوصاً، حول مدينة تونس .

وفي قمة عنف هذه الأحداث الدامية، مات أبو القاسم القائم بأمر الله (15 شوال 334 هـ) . بعد أن عهد بالأمر من بعده إلى ابنه، إسماعيل، الملقب بالمنصور وقد كتم إسماعيل خبر موت أبيه خشية أن يعرف به أبو يزيد الذي كان في ذلك الوقت يحاصر سوسة ويستغله سياسياً وعسكرياً، فلم يتسم بالخليفة ولا غير السكة ولا الخطبة ولا البنود حتى فرغ من أمر أبي يزيد، صاحب الحمار، في سنة 336 هـ .

\* \* \*

## عهد اسماعيل بن أبي القاسم<sup>(60)</sup>

كان أبو يزيد صاحب الحمار محاصراً لسوسة عندما توفي أبو القاسم وتولى زمام الأمر بعده إسماعيل. وقد كان أول إجراء اتخذهُ المنصور أن وجه أسطول المهديّة الذي وضعه تحت قيادة رشيق الكاتب ويعقوب بن إسحاق إلى سوسة، وخرج هو نفسه على رأس قوة من الجيش بطريق البر متجهاً إلى نفس المدينة، ولكن رجال دولته نصحوه بالعودة، فرجع إلى المهديّة.

وصل الأسطول الى سوسة، فخرج الجيش منه إلى البر وانضمت اليه عساكر سوسة لقتال أبي يزيد الذي كانت قواته تبلغ، فيما يقول المؤرخون، المائة ألف مقاتل، وكانوا يسكنون في أخصاص<sup>(61)</sup> وينزل البيت ثلاثة أو أربعة فما فوق، وكذلك حل بسوسة الجيش الذي جاء من المهديّة عن طريق البر، وكانت قوته لا تزيد على أربعمائة مقاتل. كان اليوم قائظاً غائماً، فأشعلوا النار في أكوام الخطب، وسرعان ما تطاير الشر الى أخصاص جيش أبي يزيد، فاشتعلت النيران فيها ولم يلبث الجو أن أظلم من الدخان وتحاذل أنصار النكاري وأصابهم الملح من النار، وقتل منهم خلق كثير، وتراجع هو إلى القيروان، ولكن القيروانيين لم يكتفوا برفضه في هذه المرة، بل قاتلوه وقتلوا عدداً من أنصاره ولاذ هو بالفرار.

وعقب ذلك خرج المنصور على رأس جيشه فلم يزل يتعقبه ويلحق به الهزيمة تلو الهزيمة حتى أخذه حياً في جبل كيانة، جبل القلعة، وذلك في شهر المحرم 336 هـ.

---

(60) أنظر سيرة إسماعيل المنصور (302-341 هـ) في وفيات الأعيان 1/234-236 واناظر الحنفا، ص 126 والدرّة المضيئة، ص 116 والعبر 4/43 والبيان 1/218 وأعمال الأعلام 3/54 والكامل لابن الأثير 8/497 ورحلة التجاني، ص 327.

(61) حُص: بيت من قصب أو من الشجر.

ولما مات متأثراً بجراحه سلخوه وحشوا جلده فطيف به في جبال صنهاجة بالمغرب الأوسط إلى المهديّة حيث صلب وبقي هناك حتى مزقته الرياح .

وبعد مقتل أبي يزيد سيطر المنصور على زمام الأمور في مملكته، ولم يعد في حاجة إلى أسوار المهديّة وخنادقها لتحميّه من الاضطرابات الخطيرة، فبنى مدينة صبره التي تحمل اسمه (المنصورية)، وهي ملاصقة للقيروان واستوطنها، وكان انتقاله إليها سنة 337 هـ .

وفي غضون تلك الفترة الحرجة من تاريخ المهديّة (فترة حصار أبي يزيد) ظهر ولاء بني زيري بقوة . فبمجرد ما وصلته رسل القائم، سارع زيري بن مناد (ت 360 هـ) . فوجه إليه حل الف جل من الخطة، وأخرج معها من المقاتلين مائتي فارس و 500 من عبيده، ولما وصلت هذه الإمدادات إلى المهديّة كان لها الوقع الذي نتصوره، وبعث القائم إليه في مقابل ذلك بهديّة « لم يسمع بمثلا من كساء جليل وخيل مسومة وسروج محلاة »<sup>(62)</sup> وقد اشترك زيري بنفسه في الحملة المظفرة التي قام بها المنصور في المغرب الأوسط لمطاردة حشود أبي يزيد النكاري . ويقول ابن خلدون، نقلاً عن ابن الرقيق إن المنصور رحل عائداً إلى القيروان، بعدما خلع على زيري بن مناد ودخل معه المنصورية في جمادى سنة ست وثلاثين (وثلاثمائة)<sup>(63)</sup> .

وحقّ تسترجع المهديّة مكانتها بوصفها العاصمة الأولى لأمبراطورية الفاطميين في عهد بني زيري، ستظل المدينة الأولى في المملكة للتبادل التجاري مع البلدان الأوربية والشرق الإسلامي ومركز القوة البحرية التي تنطلق منها الأساطيل للغزو والفتح في الشواطئ الأوربية.

وكذلك كانت المهديّة حلقة وصل بين جزيرة صقلية ومملكة المنصور،

---

(62) العبر 4/45

(63) أنظر كتابنا: دولة بني حماد، ص57 وما قبلها .

وقد عقد على هذه الولاية للحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي في سنة 339 هـ. ، بعدما خرج منها خليل بن اسحق .

ولما بلغ المنصور ان ملك الإفرنج يستعد لغزو بلاد المسلمين، أخرج أسطول المهديّة وشحنه بالعساكر ووضعه تحت قيادة موله، فرج الصقلي، كما أمر الحسين بن علي الكلبي بالخروج معه بأسطوله، فاجتازوا البحر ونزلوا شواطئ قلورية<sup>(64)</sup> حيث نشبت معارك بينهم وبين ملك الإفرنج انتهت بهزيمة الأخير « وكان فتحاً لا كفاء له » حسب تعبير ابن خلدون<sup>(65)</sup> رجع الأسطول الى المهديّة غانماً مظفراً.

### عهد المعز الفاطمي

توفي المنصور اسماعيل بن أبي القاسم في سلخ شوال<sup>(66)</sup> سنة 341 هـ.. وكان قد ولّى ابنه المعز لدين الله، أبو تميم، وعمره اثنتان وعشرون سنة<sup>(67)</sup> وقد كان من بين الأعمال الأولى التي قام بها عقب توليه الحكم، خروجه في سنة 243 هـ. على رأس جيشه إلى جبال أوراس لإخضاع بني كملان ومليّة من

---

La Calabre. (64)

(65) العبر 45/4

(66) كذا في الكامل لابن الأثير والبيان لابن عذارى. وفي العبر: سلخ رمضان.

(67) أنظر سيرة المعز لدين الله الذي ولد في المهديّة (319-365 هـ) في وفيات الأعيان 375/1، 380 و 228-224/5 وتاريخ ابن اياس 45/1 وأعمال الأعلام 55/3 واناغاز الحنفا ص 134 والعبر 45/4 - 51 والكامل لابن الأثير 620/8، والخلاصة النقية، ص 41 والبيان المغرب 223-221/1 وبلغة الظرفاء، ص 70 وهديّة العارفين 465/2 ورحلة التجاني، ص 16-17 والمنتظم 82/7 والدرة المضيئة، ص 119. وخطط المقرئ 251/1 وعبر لذهبي 239/2 وشذرات الذهب 25/3. وللمحدثين: Brock. S. I: 324 والمعز الفاطمي لابراهيم جلال والمعز لدين الله لحسن ابراهيم حسن بالاشتراك مع طه أحمد شرف (وفي آخر هذا الكتاب ثبت واف بالمراجع العربية والأوربية الأساسية.

هوارة فدخلوا في طاعته وأمنهم، كما استأمنه محمد بن خزر، بعدما قتل أخاه، معبدًا، فأمنه ثم عاد إلى القيروان، وترك مولاه، قيصرًا، على رأس الجيش في المغرب الأوسط، فأحسن هذا القائد إلى الناس وعمل على إزالة الأحقاد والضغائن، وألف قلوب الشاردين من البربر، فأكرمهم المعز ووصلهم، ثم وفد على المعز أمير مغراوة، محمد بن خزر، فأحسن استقباله وأكرم وفادته.

ومما يستلفت النظر في غضون هذه الفترة الأولى من حكم المعز لدين الله، عدم ورود ذكر اسم بني زيري في هذه الأحداث التي كانت تجري غير بعيد من معاقلهم، وفي مناسبة تهنئته بالولاية. لماذا لم يشترك بنو زيري في حملة أوراس، كما ساهموا في جميع الحملات التي قام بها العبيديون في هذه المناطق والتي كان آخرها حملة المنصور لقمع ثورة أبي يزيد؟ ولو اشتركوا فيها لكان من المستبعد أن يهملوا عند توزيع المكافآت والصلوات. فهل مال المعز في هذه الفترة إلى زناتة في هذه الفترة في محاولة للاستعاضة بهم عن صنهاجة واتخاذ تلك القبيلة عماداً للدولة (كما استبدل أجداده من قبل كتامة بصنهاجة) كما يشير إلى ذلك ما أحيط به أمير مغراوة من الخفاوة والإكرام؟ والمؤكد أن بني زيري لم يكونوا ليتقاعسوا عن المساهمة في هذه الحملة لو وجهت إليهم الدعوة لذلك.

وأول خير يبلغنا عن اتصال المعز ببني زيري يرجع إلى سنة 343 هـ.. حين جاء زيري بن مناد، أمير صنهاجة إلى القيروان، فأجزل صلته، كما يقول ابن خلدون<sup>(68)</sup>

والأرجح في رأينا أن يكون مرجع خلو التاريخ من ذكر أسماء بني زيري بكل بساطة إلى إهمال المؤرخين الذين لا يوردون أية تفاصيل عن حملة أوراس، لانتنا نعرف أن زيري بن مناد حينما قدم على المعز في القيروان، كان

---

(68) العيز 46/4.

لا يزال عامله على أشير وجزء هام من المغرب الأوسط . فإن ما ذكره ابن خلدون من أنه بعد هذه المقابلة « رده إلى عمله »<sup>(69)</sup> له دلالة واضحة .

والتطور الكبير الذي يسترعي الانتباه في أوائل عهد المعز والذي يعتبر سابقة خطيرة، هو أن السلطان الفاطمي قرر شن حرب بحرية على شواطئ الأندلس . ولكنه لسبب نجهله لم يكلف بهذه العمليات أحداً من قواد أسطول المهديّة، بل هو أسند مهمة الغزو إلى عامل صقلية، الحسن بن علي الكلي، وقد عاث فساداً في البلاد الأندلسية ولاسما في المرية، وعاد إلى المهديّة بكثير من الغنائم والاسلاب في سنة 344 هـ.<sup>(70)</sup>

وعقب هذه العمليات قام الخليفة الأموي، الناصر لدين الله، بأخذ الثأر فوجه أسطولاً بقيادة مولاه غالب المشهور، إلى شواطئ افريقية، ولكنه فشل، فيما يبدو في مهمته . وفي سنة 345 هـ . أعاد الأندلسيون الكرة فغزوا هذه البلاد بأسطول يتكون من 70 قطعة واختاروا هدفاً لعملياتهم مكاناً بعيداً نسبياً عن كل من المهديّة وصقلية، بحيث يأمنون من وصول النجديات البحرية إليه في وقت ملائم، وهي مرسى الخرز وسواحل سوسة وطبرقة .

على أن أنظار المعز لدين الله كانت تتجه إلى الشرق، وبعبارة أدق، إلى مصر التي حاول الاستيلاء عليها جده الأول والثاني وفشلا، وليس إلى الأندلس . ولذلك، ولربما أيضاً بسبب قوة أسطول الأمويين الرادعة، فنحن لا نعرف خبر غزوة أخرى لشواطئ هذه البلاد سواء من المهديّة أو من صقلية . أضف إلى ذلك أن أسطول المهديّة كان لديه ما يشغله في الدفاع عن صقلية نفسها ولمواجهة أسطول القسطنطينية . فإن ابن الكلي، صاحب الجزيرة قد استمد المعز لدين الله بقطع من الأسطول حينما أصبح تهديد النصارى

---

(69) نفس المصدر .

(70) نفس المصدر .

للجزيرة جدياً . وقد زادت جرأة النصارى الذين يؤيدهم أسطول صاحب القسطنطينية خصوصاً ، بعدما استولوا على جزيرة أقریطش ( كريت ) في سنة 350 هـ . ، وفي نفس الوقت ، كان أسطول المهديّة منهمكاً في شن الغارات على شواطئ بلاد الروم ، قبل أن يصلح أمبراطور القسطنطينية الفاطميين في سنة 354 هـ . (71) .

★ ★ ★

(71) أنظر التفاصيل في العير 47/4.

## دولة بني زيري

### عهد بلكين<sup>(1)</sup> بن زيري

ولما أزمع أبو تميم الرحيل إلى مصر التي كان قد فتحها جوهر الصقلي لحسابه، حرص على استبقاء ملك المغرب وصقلية ليكون قاعدة للملكه بالشرق، فأعمل النظر فيمن يستخلفه في افريقية ممن يكون له من الجاه والشجاعة ما يسمح له بمواجهة أمراء زناتة المواليين لبني أمية في الأندلس، فلم يجد قبيلة غير صنهاجة أعداء زناتة التقليديين وجيرانهم في الديار، ومن بين صنهاجة سوى أسرة بني زيري.

كانت صنهاجة منذ عهد عبيد الله البديل لكتامة الذين رحل العديد منهم في جيش جوهر إلى الشرق، بوصفها دعامة للملك الفاطميين، وذلك منذ فشل ثورة أبي عبيد الله الشيعي التي كان وراءها عدد من كبار شيوخ كتامة. وكذلك أثبت رئيس صنهاجة، زيري بن مناد الذي دوخ أصقاع المغرب بأدلة حاسمة ولاءه للعبيديين - ذلك الولاء الذي كلفه حياته في معمة القتال من أجل توسيع أطراف إمبراطوريتهم.

(1) هكذا ضبطه ابن خلكان وابن خلدون. وفي البيان: بلجين، وأورده ابن الخطيب في الأعلام: بلقين، والحرف بربري ينطق بين الكاف والجيم، ومثله «باء» بجاية. أنظر سيرة بلقين في أعمال الأعلام 67-66/3 (وفيه: توفي سنة 372) وفيات الأعيان: 286/1 والبيان 229-228/1 والكامل لابن الأثير 623/8، 664 و34/9 والعبر 155/6.

ولما كان بلكين (ابنه) أبعد بني مناد صبتاً وأوسعهم صيتاً وأشدّهم بأساً في القتال، فقد اختاره المعز لدين الله ليكون خليفة له. وفوض إليه أمر إفريقيا والمغرب، ما عدا طرابلس وصقلية، عندما سار الى مصر، وذلك بعدما غير اسمه البربري الذي كان يبدو له غير ملائم، وسماه يوسف، وكناه أبو الفتوح.

رحل المعز لدين الله في وجهته إلى مصر في أواخر شوال سنة 361 هـ وأقام في سردانيا (مكان يقع قريباً من القيروان) حتى فرغ من أعمال الاستعداد ولحقته جيوشه وأهل بيته وعمله، ورافقه يوسف مشياً حتى مكان يعرف بآبار الخشب ثم أمره الخليفة بالرجوع إلى إفريقيا، وارتحل في شوال<sup>(2)</sup> سنة 362 هـ.

وقد كان من أهم الأعمال الأولى التي قام بها بلكين بعد رحيل المعز، زحفه على المغرب لقمع ثورة قام بها جعفر بن علي، أمير الزاب (مدوح بن هانيء) وصاحب المسيلة الذي كان يرشح نفسه للولاية بعد انتقال العبيديين، وقد هزمه وفرّ جعفر أمامه وعبر البحر إلى الأندلس.

وعقب ذلك تحرك بلكين إلى المغرب لأخذ الثأر لوالده من زناتة، فهزم هذا القبيل شر هزيمة وأخذ أموالهم وسبى ذراريهم، وانتهت به هذه الحملة إلى سجلماسة واستولى على هذه العاصمة العتيقة، ثم قفل راجعاً إلى أشير. وفي طريق عودته توفي بلكين في مكان يقع بين سجلماسة وتلمسان يسمى «واركنفو» وذلك في يوم الأحد لسبع بقين من ذي الحجة سنة 373 هـ.<sup>(3)</sup>

(2) قارن العبر 49/4 وأعمال الأعلام 65/3 (وفيه أن رحيل المعز كان في ثمان خلون من ربيع الأول) والبيان 228/1 (وفيه أن الرحيل وقع لثمان بقين من شوال). وأما ابن الأثير (الكامل 620/8) فيذكر مثل ابن خلدون أن الانتقال من المنصورة تم في شوال سنة 361.

(3) قارن البيان 239/1 وأعمال الأعلام 67/3.

## عهد المنصور بن بلكين

ولي الأمر من بعد بلكين ابنه المنصور<sup>(4)</sup> لذي بويغ له بالإمارة في مسجد القيروان، وقلده العزيز نزار بن معد الفاطمي أمر إفريقية والمغرب، وقد قضى ردها من الزمن في محاربة زناتة، ولا سباً زيري بن عطية، فهزمهم في عدة وقائع، وعقد لعمه حماد على أشير. ومن أهم الحوادث التي يذكره بها المؤرخون، فتكه بعبده الله الكاتب، عامله وعامل أبيه على القيروان لتهم وسعايات فيه (سنة 379 هـ).

## عهد باديس بن المنصور

توفي المنصور في سنة 385 هـ.، وقام بالأمر من بعده ابنه باديس<sup>(5)</sup> أبو مناد، الملقب نصير الدولة. ومثل أبيه كان أهم ما شغل باله في بداية الأمر، حرب زناتة الذين وجه إليهم جيشاً بقيادة عميه، حماد ويطوخت، ولما رجعا منهزمين إلى أشير (سنة 389 هـ) نهض بنفسه لمحاربة زيري بن عطية، ثم حارب فلغل بن سعيد في فترة لاحقة. وقد خرج على طاعته عمومته ماكسن وزاوي وجلال ومعتز وعزم، مستغلين صغر سنه، فقتل بعضهم وهرب البعض الآخر إلى الأندلس. وقد كان حماد بن بلكين الأداة العسكرية الأساسية التي حققت لباديس النصر في بعض هذه الحروب العائلية وفي المعارك التي خاضها مع فلغل بن سعيد.

وفي عهد باديس اختط حماد القلعة التي تحمل اسمه. ولما طلب اليه باديس أن يتنازل عن عمله في تيجست وقسنطينة رفض ذلك فحاربه باديس وهزمه

---

(4) أنظر سيرته وأخباره في أعمال الأعلام 67/3-68 والخلاصة النقية، ص45 وخلاصة تاريخ تونس، ص89 والعبر 157/6.

(5) أنظر سيرته وأخباره في العبر، 157/6 والكامل لابن الأثير 86/9 والبيان 247/1 وأعمال الأعلام 28/3 ووفيات الأعيان 265/1 وكتابنا، دولة بني حماد (الفهرس).

في منطقة شلف، وانشئ حاد راجعاً إلى القلعة حيث حاصره باديس الذي مات أثناء هذا الحصار لعشرين بقين من ذي القعدة سنة 406 هـ.<sup>(٦)</sup>

ومن الأحداث التي يبرز المؤرخون أهميتها والتي وقعت في عهد باديس، وصول مركب إلى المهديّة (سنة 403 هـ) يحمل هدية جليلة من الحاكم بأمر الله، عاهل مصر، إلى نصير الدولة وإلى ولده، عزيز الدولة (منصور)، وقد استقبل السفينة عزيز الدولة بالطبول والبندود، كما وصلت سجلات منه إلى باديس بإضافة برقة وأعمالها إلى ملكه<sup>(٧)</sup> وبذلك امتدت حدود مملكة بني زيري شرقاً حتى حدود مصر.

وفي السنة التالية وجه نصير الدولة هدية ثمينة إلى الحاكم وشيعة من المهديّة وركب البحر معها يعلى بن فرج<sup>(٨)</sup>

### عهد المعز بن باديس

بويح للمعز بالمهديّة لتسع بقين من ذي الحجة سنة 406 هـ<sup>(٩)</sup>، وقد حضر

---

(6) قارن العبر 157/6-158 والبيان 1/247 وما يليها، وأعمال الأعلام 3/69 والكامل لابن الأثير 256/9 .

(7) البيان 1/259

(8) نفس المصدر.

(9) راجع سيرة المعز (398-454) الصنهاجي وأخباره في وفيات الأعيان 5/233 والحلة السراء 21/2 والعبر 6/58 والمقتبس من نهاية الأرب للزيري في المكتبة العربية الصقلية لآماري، ص447 (وفيه انه توفي سنة 453 هـ) والخلاصة النقية، ص87 والكامل لابن الأثير 9/87 و 10/5 (وفيه أيضاً انه توفي سنة 453 هـ) والبيان 1/267 (وفيه ان مولده كان في سنة 399 هـ. وانه ولي في سنة 407 هـ. وتوفي في سنة 455 هـ.) وأعمال الأعلام 3/29 وهديّة العارفين 2/465 ورحلة التجاني، ص17-20 و28-29 و Brock. 1: 315, 268 والمعز بن باديس هو مؤلف كتاب «عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب» الذي حققه عبدالستار الخلوji وعلي عبدالمحسن زكي، ونشر في مجلة معهد المخطوطات العربية - المجلد 17 جزء أول. 1971 .

إلى المهديّة وفد من القيروان تتقدمه الطبول والبندول للتعزية وللتهنئة، كان من بين رجاله منصور بن رشيق القيرواني وقاضي القيروان وعدد من شيوخ البلد. وبعد إتمام مراسم البيعة عاد الوفد إلى القيروان وبقي المعز في المهديّة ليشرف بنفسه على ترتيبات دفن جثمان والده، نصير الدولة الذي حمله الجيش من المحمدية (المسيلة) في تابوت تتقدمه البندول والطبول في الطريق، وقد وصل التابوت إلى المهديّة لثمان بقين من شهر ذي الحجة..

قد يجد الباحث أن من الغريب أن المؤرخين لا يذكرون شيئاً عن مراسم دفن جثمان باديس ولا عن تجهيز جثته، ذلك التجهيز الذي لا بدّ وأن يكون قد أحيط بكثير من مظاهر البذخ والترف، إذا اعتبرنا ما يرويه ابن عذارى عن تكاليف دفن السيدة زوجته التي توفيت في سنة 412 هـ. فقد ذكر هذا المؤرخ أنها «كفنت فيما لم يذكر أن ملكاً من الملوك كفن بمثله، وبلغت قيمة كفنها مائة ألف دينار، وجعلت في تابوت من عود هندي قد رصع بالجواهر، ودفنت في المهديّة»<sup>(10)</sup>

وفي أواخر ذي الحجة تلقى المعز الخلع التي سيرها إليه الحاكم بأمر الله

(10) أنظر البيان 270/1: والجدير بالذكر أن ظاهرة الاسراف في نفقات كفن الملوك وتجهيزهم للدفن ليست غريبة حتى بين الملوك المسلمين. وما يروى أنه لما مات سيف الدولة الحمداني (سنة 356 هـ.) غسل تسع مرات، أولها بالماء ثم بزيت النيلوفر، ثم بالصندل، وبعد ذلك بالضريرة، ثم بالنمر، ثم بالكافور، ثم بماء الورد. وغسل بعد ذلك ثلاث مرات بالماء المقطر، ونشف بعد غسله بدبقي ثمّ قيمته خمسون ديناراً، أخذته الغاسل، وهو قاضي الكوفة، إلى جانب أجرتة، ثم دهن بالزعفران والكافور، ووضع على خده ورقبته مائة مثقال من الغالية، وفي أذنيه وعينيّه ثلاثون مثقالاً من الكافور، وبلغ مجموع ثمن كفنه ألف دينار وغني عن البيان أن هذه كلها عادات غريبة عن روح الاسلام أنظر وفيات الأعيان (طبعة وستفولد 22/3). ولما مات غم بن المعز الفاطمي (في سنة 375 هـ) كفن في ستين ثوباً. وقيل إن الوزير ابن كلثوم لما توفي (سنة 380 هـ.) كفن فحفظ بما قيمته عشرة آلاف دينار. أنظر تفاصيل أخرى في «تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع» لأدم ميتز، ترجمه عبدالمهدي أبو ريده 235-234/2.

الفاطمي من مصر ومعها سجل بلقب « شرف الدولة »<sup>(11)</sup>.

وفي المحرم سنة 407 هـ. رحل المعز عن المهديّة فكان دخوله المنصورية يوم الجمعة في منتصف الشهر، وكان يسير بين يديه حاملو البنود وضاربو الطبول، ونزل بقصره هناك.

خرج المعز في بعض الأعياد إلى المصلّى في زيه الرسمي وفي موكبه، وهو لا يزال بعد غلاماً فكما به فرسه فنادى مستغيثاً: «أبا بكر وعمر!» فسمعه الشيعة الذين كانوا في جيشه فبادروا إليه ليقتلوه، فجاءه عبدة ورجاله ومن كان يكتّم مذهب أهل السنة من أهل القيروان وحوه، ووضع السيف في الشيعة، فقتل منهم ما ينيف عن ثلاثة آلاف، في رواية ابن عذارى<sup>(12)</sup>، ثم اتسعت حركة مطاردة الشيعة فشملت إفريقية كلها.

وفي ذلك يقول الشاعر (رمل):

يا معز الدين عش في رفعة وسرور واغتباط وجذل  
أنت أرضيت النبي المصطفى وعتيقاً في الملاعين السفّل  
وجعلت القتل فيهم سنة بأقاصي الأرض في كل الدول

وفي سياق هذه الأحداث يقول ابن الأثير:

« فانصرف لعامة إثر ذلك مباشرة إلى دارالملقى من القيروان (وهو مكان كانت تجتمع فيه الشيعة) فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، خصوصاً، طمعاً في النهب، وأغراهم عامل القيروان وحرضهم، فاتسع نطاق القتل حتى قتل

(11) البيان 268/1

(12) نفس المصدر 274/1. قارن العبر 159/6. وأما رواية ابن الأثير فهي تختلف بعض الشيء، ومؤداها أن المعز ركب وسار في القيروان والناس يسلمون عليه فاجتاز بجموع وسأل عنهم، فقيل له: هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر، فقال: «رضي الله عنها!» فقامت الفتنة عقب ذلك كما سيأتي أنظر الكامل 257-256/9.

الشيعة وأحرقوا بالنار ونهبت ديارهم. ثم امتد القتل ليشمل افريقية كلها، حتى قتلوا عن آخرهم<sup>(13)</sup> وقد التجأ قوم منهم إلى المسجد الجامع بالمهدية طلباً للحماية، ولكنهم قتلوا عن آخرهم<sup>(14)</sup>.

وهذه الأحداث التي لا بد وأن تكون قد بلغت سادة القاهرة أولاً بأول، لم يكن لها أي تأثير على العلاقات بين العبيدين والزييرين الذين ظلوا على ولائهم السياسي الاسمي الذي يرمز له بذكر اسمهم في خطبة الجمعة وينقش في البنود والرايات وباستمرار تداول عملة الفاطميين في افريقية، وكذلك استمرت الحالة مضطربة بعد هذه الأحداث حتى سنة 440 هـ (أي نحو 35 سنة). بل إن إعلان المعز بن باديس ولاءه وتبعيته للدولة العباسية وتلقيه عهد القائم بأمر الله (سنة 433 هـ) كان إجراء لم يؤثر هو أيضاً على العلاقات الشكلية القائمة بين افريقية والقاهرة.

وفي سنة 440 هـ. قرر المعز قطع الخيط الواهي الذي كان لا يزال يربطه بالفاطميين، فألغى الخطبة لصاحب مصر، وأمر بحرق البنود التي تحمل اسمه، كما أمر أن يدعى على منابر افريقية للعباس بن عبد المطلب، فدعا الخطباء للخلفاء الأربعة وللعباس<sup>(15)</sup> وأمعن المعز في الاستفزاز وفي إهانة العبيدين واحتقارهم، فأمر بلعنهم في خطبة عيد الأضحى من تلك السنة.

وفي شعبان من السنة التالية، أمر المعز بتبديل السكة فنقش على أحد وجهي الدينار الجديد: «ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين» وعلى الوجه الثاني: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وكذلك أمر بصهر الدنانير التي كانت متداولة وبإعادة سكها، كما قطع أسماء

(13) الكامل 257/9 .

(14) نفس المصدر.

(15) البيان 280/1 .

العبيدين من البنود والرايات الجديدة .

وقد أكمل هذه الإجراءات كلها في سنة 443 هـ . حين أعلن لباس السواد، وهو شعار بني العباس . وينقل ابن عذارى عن ابن شرف التفاصيل التالية :

« وفي جمادى الثانية أمر المعز بن باديس بإحضار جماعة من الصباغين، وأخرج لهم ثياباً بيضاً من فندق الكتان، وأمرهم أن يصبغوها سوداً، فصبغوها بأحلك السواد، وجمع الخياطين فقطعوها أثواباً، ثم جمع الفقهاء والقضاة إلى قصر [ وجمع معهم ] خطيي القيروان وجميع المؤذنين وكساهم ذلك السواد، ونزلوا بأجمعهم، وركب السلطان بعدهم حتى وصلوا إلى جامع القيروان، ثم صعد الخطيب المنبر وخطب خطبة أتى فيها على جميع الأمر بأجزل لفظ وأحسن معنى، ثم دعا لأبي جعفر القائم بأمر الله العباسي ودعا للسلطان المعز بن باديس ولولده أبي الطاهر تميم، ولي عهده <sup>(16)</sup> .

ولما احتج المستنصر الفاطمي على هذه الاجراءات، غلظ له المعز في الجواب .

### نأر العبيدين

كان الحسن بن علي اليازوري<sup>(17)</sup> يشتغل بالزراعة قبل أن يصادفه الحظ ويصبح وزيراً للمستنصر العبيدي . ولربما كان أصل هذا الشخص الريفي وحرفته الزراعية من الأسباب التي جعلت المعز بن باديس يستهين بهذا

(16) قارن البيان 277/1 والكامل لابن الأثير 567/9 وأعمال الأعلام 72/3 .

(17) ولد الحسن في يازور من قرى فلسطين وسكن الرملة، وقد استوزره المستنصر الفاطمي، صاحب مصر في سنة 442 هـ وجعله قاضي القضاة ولقبه بسيد الوزراء . وقد ظل في الوزارة حتى قبض عليه المستنصر وقتله . انظر ترجمته في الإشارة الى من نال الوزارة لابن الصيرفي، طبع القاهرة 1924 ص 40-45 .

الشخص، فلم يكن يخاطبه بمثل ما كان يخاطب الوزراء من قبله . وقد أثر هذا الموقف في نفس الوزير وعظم عليه، فكان يكثر الوقعة فيه وإغراء المستنصر به، وذلك قبل أن تتفتح عبقريته عن خطة جهنمية أعطت للمغرب تاريخاً مأسوياً جديداً لم يعرف له مثيلاً منذ عهد الوندال، وأغرقت هذه البلاد بسيول من الدماء، وهدمت كل مرافقها العمرانية التي استغرق تشييدها أجيالاً من العمل المتواصل .

كانت الخطة بسيطة في ذهن اليازوري، وكان من الطبيعي أن تنال موافقة المستنصر، لأن الانتقام المقترح من المغرب لا يكاد يكلف خزينة مصر شيئاً، ولا يتطلب توجيه الجيوش، والنصر في هذه المعركة التي يخوضها الفاطميون بواسطة مضمون . وبالتالي فإن الخطة لا تنطوي على أي احتمال للهزيمة . والميزة الأخرى للخطة هي انها ستخلص مصر من عناصر الشغب والاضطراب التي تتكون منها قبائل بني هلال وحلفائهم الذين اشتبهوا بتاريخ طويل في قطع طرق الحجاج والنهب والسلب في الجزيرة العربية . أضف إلى ذلك أن هؤلاء العربان الذين يملكون طاقة كبيرة للتدمير المادي قد كسبوا أيضاً تجارب كثيرة في تخريب العقيدة الإسلامية باتصالحهم بالقرامطة<sup>(18)</sup> .

ومجموعة قبائل الهلالين تشمل الاثبيج ورياح وزغبة وعدي وغيرهم، وكانوا قد أخرجوا من الجزيرة العربية لعتوهم وجراتهم على قطع طرق الحجاج وسكنوا الضفة الشرقية لنهر النيل ومنعوا من عبوره . وكانت ديارهم من قبل تقع بالقرب في طريق اليمن التهامي، ووادي جلدان شرقي الطائف، ومياه البقعاء، وقد اشتهروا بأعمال العنف والغارة منذ العصر الجاهلي، من أيامهم غارة على نعم بني نهشل، بالوندة، ولكن الدائرة انقلبت عليهم فلم يفلت من بني هلال من القتل سوى رجل واحد . وفي يوم حنين

---

(18) المير 159/6 .

خرجت بني هلال مع هوازن لمقابلة النبي ﷺ (19).

والمهم في سياق النزاع الذي يعنيها هو أنه بعدما أصلح اليازوري بين زغبة ورياح الذين كانوا في نزاع شديد، أعطاهم أموالاً وصرح لهم بعبور النبل (وكان ذلك غير مسموح لهم به، كما أشرنا) وملكهم باسم سيده كل ما يفتحونه من أراضي المغرب، ولما اطمأن إلى حسن سير العملية التي دبرها، كتب إلى المعز بن باديس رسالة جاء فيها قوله:

«لقد أرسلنا إليكم خيولاً فحولاً وحلنا عليها رجالاً كهولاً، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً».

كل شيء يدل على أن المعز لم يفهم شيئاً من خطط عدوه وأنه استهان بهذا التهديد إلى أقصى حد كما كان يستهين بصاحبها. وبعد التهديد شرع في التنفيذ ووقع ما يسميه ابن عذارى «الداية العظمى والمصيبة الكبرى».

وبعدما احتل العربان برقة من أعمال بني زيري ونزلوا بها كالجراد لا يبقون على شيء وقع في طريقهم، ملكوا طرابلس (سنة 446 هـ). ثم تابعت زغبة ورياح والاثنج وبنو عدي زحفها المخرب بزعامة مؤنس بن يحيى الصري إلى إفريقية (20).

---

(19) أنظر أخبار بني هلال في الصحاح للجوهري 354/2 وصبح الأعشى 341/1 وصفة جزيرة العرب للهمداني، ص121 ونهاية الأرب للنويري 337/2 والعبر 310/2، 3116 و62/4 و11/6، 12، 13، وكتاب البلدان لليعقوبي، ص103 ومعجم ما استعجم للبكري 90/1، 294 وتاريخ الطبري 82/6 و13/11، 14 والاعراب للمقريزي ص37-5 ومسالك الممالك للاصطخري، ص22 والبيان 289/1 وما يليها، والعقد الفريد 36/2 ولسان العرب لابن منظور 235/14 وتاريخ أبي الفداء 111 والكامل لابن الأثير 566/9 وتاج العروس للزبيدي 67/4 و170/8 ومعجم البلدان 34/1 و353/2 وأعمال الأعلام 74/3 (وفيه غلط أن موجه بني هلال إلى إفريقية هو الوزير الجرجاني).

(20) الكامل لابن الأثير 567/9.

ولما حل عيد الأضحى، سنة 443 هـ، مشى السلطان على رأس جيشه إلى ناحية قرية تعرف ببني هلال، فلما انتصف النهار بلغته الأخبار بأن العربان قد اقتربوا منه بأجمعهم، فأمر بالنزول في أوعار وأودية ولم يكد ينتهي من هذه المناورة حتى حل العرب عليهم حملة رجل واحد، فانهزم جيشه وصبر المعز في شجاعة نادرة، وكانت رماح العرب تصل إلى شخصه، وسقط كثير من عبيده الذين أحاطوه بأجسادهم وفدوه بأنفسهم.

وأما بنو مناد وجميع صنهاجة وغيرهم من القبائل، فإنهم فرّوا وانتهب العرب خيامهم، كما استولوا على معسكر المعز بن باديس، وكان فيه من الذهب والفضة والأمتعة والأثاث والتحف ما تتجاوز قيمته عشرة آلاف دينار، ومن الجمال خمسة عشر ألفاً<sup>(21)</sup>.

وفي ثالث يوم العيد، عاد السلطان إلى القيروان في حالة انهزام وانهباء معنوي تام.

ويقول ابن عذارى نقلاً عن ابن شرف أن عدد الجيش الصنهاجي المنهزم كان عدده ثمانين ألفاً (وفي رواية تبدو لنا أقرب إلى المعقول: ثلاثون ألف مقاتل من الفرسان، ومن الرجالة ما يماثل ذلك) وأما العرب فقد كان عددهم ثلاثة آلاف فارس ومثل ذلك من الرجالة:

وفي هذه المعركة قال علي بن رزق (طويل):

وإن ابن باديس لأفضل مالِك ولكن لعمرى ما لديه رجال  
ثلاثون<sup>(22)</sup> ألفاً منكم هزمتهم ثلاثون ألفاً إن ذالك كمال

ولما خرج المعز للقاء العرب مرة ثانية، لم تكن نتيجة هذه المعركة أفضل من الأولى. وعقب ذلك دخل المنصورية واعتصم بها، ولكن العرب لم تتركه ينعم بالراحة في ملجئه، لأنهم لم يلبثوا أن اتخذوا القيروان والمنصورية هدفاً

(21) قارن البيان 290/1 والكامل 566/9.

(22) وفي رواية ثمانون.

لهجئاتهم فراح سكان المدينتين يهجرانها ويلجأون إلى المهديّة.

وفي سنة 448 هـ، وقبل أن ينتقل هو نفسه إلى المهديّة كان المعز قد ولّى ابنه تميماً على هذه المدينة (سنة 445 هـ). وعمره كان إذ ذاك لا يتجاوز الثالثة والعشرين، فأقام بها حتى لحق به أبوه.

وفي سنة 448 هـ، وقعت منازعات خطيرة في المهديّة بين عبيد المعز الذين قويت شوكتهم واشتدت قبضتهم على المدينة، وعبيد تميم المقيمين معه بها، وقد اتخذت هذه النزاعات ابعاداً سياسية خطيرة وتحولت إلى حرب أصطف فيها رجال الأسطول وسكان زويلة في صف عبيد تميم. وقد عمد تميم إلى إخراج عبيد المعز من المهديّة بعدما قتل عدداً كبيراً منهم، فاتجهوا إلى القيروان. ولكن تميم لم يكتف بما صنعه بهم، فأغرى بهم العرب فتعرضوا لهم في الطريق وقتلوا منهم جمعاً كبيراً<sup>(1)</sup>.

وفي أواخر شعبان سنة 449 هـ، قرر المعز الانتقال إلى المهديّة هرباً من عيث العرب الذين أفسدوا الزرع وخرّبوا المدن وعرضوا الأمن لاضطراب خطير، ليتحصن بأسوارها المنيعّة. وكان من سخریات القدر أن السلطان الذي يهرب من العرب لم يجد من يحمي طريقه بين المنصورية والمهديّة إلا رجلين من العرب كان قد زوجها ابنتيه، يسمى أحدهما الفضل بن أبي علي، وهو مرداسي، ويعرف الآخر باسم فارس بن أبي الغيث. فقد توجهوا إليه واستخرجاه من صبرة سراً وقد أحسن باقي الاعراب بخروجه فلحقوا به أثناء الطريق لسلبه، فوقف في وجههم فارس بن أبي الغيث في جماعة من قومه، وجعل يؤنبهم على الاستخفاف بخفارتة، فقالوا له: «إنك قد أعظمت التحامل علينا في خفارة مثل المعز، وتركنا له عظيم والفائدة في أخذه كبيرة، فلا تمنعنا منه!»<sup>(24)</sup>.

(23) الكامل لأبن الأثير 617/9-618.

(24) رحلة التجاني، ص 329-330.

فلم يزل يراجعهم ويوافقهم حتى خلص المعز برفقة صاحبه الآخر، الفضل ابن أبي علي (25).

ويذكر التجاني أن المعز كان قد أخرج بعض قطع أسطوله وسيرها في البحر بحاذية طريقه على الشاطئ، خوفاً مما عساه أن يعرض له في طريقه. فلما لحقه الأعراب ناداه رؤساء الأسطول وطلبوا إليه أن يلجأ إلى المراكب ليعتصم بها، ولكنه رفض أنفة منه وجلداً، وواصل سيره حتى لحق بالمهدية (26).

والمشكلة الأساسية التي كان يواجهها المعز في غضون هذه الرحلة والتي لا بد وأنها قد أقلقته باله كثيراً، هي أنه كان يتخوف من انعكاسات نزاع العبيد الذي سبقت الإشارة إليه على وضعه الشخصي. فهاذا يمنع تميم بعدما انتصر عبيده على عبيد أبيه وتمكن من جر السكان والأسطول إلى جانبه، من أن يتنكر لأبيه ويخلعه ويعلن نفسه سلطاناً في مكانه، ولا سيما وأن المعز الآن وحيد تطارده العرب ولا يجد من صنهاجة وغيرها من القبائل نصيراً؟

ولكن مفاجأة سارة كانت تنتظر السلطان البائس لدى اقترابه من المهدية. فقد خرج ابنه، تميم، ومعه حاشيته ورجاله لاستقباله، وعند رؤية والده ترجل وقبل الأرض بين يديه، ومشى راجلاً أمامه وأظهر من طاعته له ما أبان كذب ما نسب إليه من النفاق علياً (27) ندعا له وأمره بالركوب وسار معه إلى المهدية، فنزل المعز بالقصر وأقام ابنه متكفلاً بشئون الدولة.

وعند هذه المرحلة كان سلطان المعز بن باديس في حكم المنتهي. لأن مملكته قد تقلصت عملياً إلى حدود نواحي المهدية، ولأن السلطة الفعلية كان

(25) نفس المصدر.

(26) نفس المصدر.

(27) البيان 298/1.

يتولاها ابنه تميم تحت إشرافه، قبل أن يستبد بالأمر بعد وفاته في سنة 454 هـ.

### عهد تميم بن المعز

كان تميم<sup>(28)</sup> حسن السيرة محباً للعلم معظماً لأصحابه وكان يميز الجوائز السنية ويعطي العطاء الجزل، خصوصاً، للشعراء الذين يمدحونه والذين كان من أنبغهم وأبرعهم الحسن أبو علي بن رشيق القيرواني<sup>(29)</sup> وقد كان هو نفسه

(28) ولد تميم بن المعز الصنهاجي في المنصورية في سنة 422، ومات في المهديّة في سنة 501 هـ. أنظر ترجمته وأخباره في وفيات الأعيان 306-304/1 والحلة السيرة 21/2 والبيان 298/1 والعبر 60-159/6 والخلاصة النقية، ص 49- والنجوم الزاهرة 198/5 وتاريخ ابن الوردي 19/2 والكامل لابن الأثير 158/10 ومرآة الزمان لسبط بن الجوزي 28/8 ورحلة التجاني، ص 330 وما بعدها.

(29) الحسن بن رشيق القيرواني (390-436 هـ) الأزدي كان أبوه من أصل رومي من موالي بني أزد. ولد بالمسيلة بالجزائر ودرس في هذه البلدة حيث تعلم أيضاً الصياغة، وهي صناعة أبيه، ثم رحل إلى القيروان في سنة 406 هـ.، فعينه المعز شاعر بلاطه. وقد أثار هذا الاختيار حفيظة ابن شرف (أبي عبد الله محمد) القيرواني الذي كان شاعراً وكاتباً وانتهى به الأمر بالهجرة إلى صقلية. ولما انتقل المعز إلى المهديّة اصطحب معه شاعره المفضل. وقد هاجر ابن رشيق هو أيضاً إلى صقلية بسبب سوء الأحوال في إفريقية، وأقام بمارزه (Mazzara) إحدى مدن الجزيرة إلى أن توفي هنالك، وقد عرف ابن رشيق بأنه مؤرخ أصيل، وذلك إلى جانب تضلعه في الشعر ومن أهم أعماله: «العمدة في صناعة الشعر ونقده» (طبع) و«قراءة الذهب» (طبع) و«الشذوذ في اللغة» و«انموذج الزمان في شعراء القيروان» و«ديوان شعره» (طبع) و«ميزان العمل في تاريخ الدول» و«شرح موطأ مالك» و«الروضة الموشية في شعراء المهديّة» و«تاريخ القيروان» و«المساواة في السرقات الشعرية». أنظر ترجمته في وفيات الأعيان 85-89/2 ومقالة عبدالعزيز الراجحي في مجلة الزهراء 592/1 و622 والحلل السندسية في الأخبار التونسية ص 99 وأنباء الرواة 298/1 (وفيه ان مولده كان سنة 370 ووفاته في حدود 405 هـ). والعمدة (طبع القاهرة 1325 هـ) وإرشاد الأريب لباقوت 70/3 وبغية الوعاة ص 220 وبساط العتيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق لحسن حسني عبدالوهاب (طبع تونس 1330) ص 65-90 والمكتبة الصقلية لاماري،

ص 644 و De Sacy: Antologie Granm ص 442 و Wüstenfeld, Die Geschichte der Araber Scheiber.

شاعراً مجيداً. ولكنه في مقابل ذلك ورث تركة سياسية ثقيلة، فقد كان لا يملك بعد وفاة أبيه «إلا ما ضمه سور المهديّة» حسب تعبير ابن خلدون، وذلك بسبب ما نشره العرب من الخراب والفوضى، وبسبب سيطرة قبائل العربان على كثير من المناطق والبلدان. وكذلك زالت هيئة الدولة في عين السكان، فكثرت المطامع والخزانات، وغمت روح الاستهتار والثورة على سلطان المهديّة.

ولكن تميم بن المعز كان يتمتع بقدرة خاصة على تفريق العرب وتسليط بعضهم على بعض، وكانت الضرورة تلجئه إلى مخالفة فريق منهم ضد فريق آخر في بعض الأحيان، حسب قول التجاني، حتى يفسحوا له الطريق للخروج لمقاتلة الثوار الذين رفعوا راية العصيان. ومنذ سنة 455<sup>(30)</sup> ثار عليه حو بن مليل<sup>(31)</sup> البرغواطي، صاحب سفاقس، واستعان بالعرب وزحف على المهديّة ليحاصرها<sup>(32)</sup>.

ولما ورد خبر هذا الزحف إلى تميم، سار للقائه على رأس جموع كبيرة من عرب زغبة ورياح، بينما كان العرب الذين يرافقون حو من عدي والأثنج، واقتتل الفريقان حتى أصيب حو وأنصاره بهزيمة، فولوا الأدبار وعمل فيهم عسكر المهديّة السيوف، والتجأ حو بعد ذلك إلى القيروان.

كان الزيريون قد جروا على تولية أحد أبناء صنهاجة على سفاقس، وذلك بسبب أهمية هذه المدينة السياسية، ولكن المعز بن باديس عدل عن هذا التقليد، فولى عليها منصور البرغواطي الذي كان أحد الفرسان المشهورين

---

(30) كذا في العبر وفي الكامل. وأما صاحب البيان فيؤرخ لهذه الثورة في سنة 456 هـ.

(31) ورد اسمه في الكامل بتحريف: حو بن ملك.

(32) قارن العبر 160/6 والبيان 293/1 والكامل لابن الأثير 16/10 و9 ورحلة التجاني ص 330.

بالشجاعة والإقدام. وفي مرحلة تالية، سوّلت له نفسه الثورة فتحالف مع العرب لهذه الغاية، فعاجله ابن عمه، حوّ المذكور، وقتله غدرًا في حمامه (سنة 450 هـ).

ولما تسامع العرب بمقتل حليفهم، زحفوا لمحاصرة سفاقس ولما بعث إليهم حوّ يسألهم عما إذا كانوا يريدون الثأر أم المال أجابوه بأنهم لا شأن لهم بالثأر، حيث إن القتل من أقاربه هو، وإنما هم يريدون المال، فاتفق معهم حوّ على مبلغ يرضيهم ثم انصرفوا عنه<sup>(33)</sup>. وكذلك أعلن حوّ ثورة على المعز واستخلص نوعاً من الاستقلال الذاتي لمدينة سفاقس منذ سنة 454 هـ.

ولما توفي المعز، طمع حوّ في امتلاك المهديّة نفسها، وجند لهذه الغاية أنصاره من العرب، ولكن محاولته باءت بالفشل، كما رأينا<sup>(34)</sup>.

وبعدما استرجع تميم سفاقس، سار إلى سوسة التي كانت قد ثارت على أبيه، هي الأخرى، فأخضعها وعفا عن سكانها<sup>(35)</sup> ثم وجه جيشه إلى تونس، وكانت ولاية تابعة لبني حماد تحت بني خراسان، فحاصرها حتى أعلن صاحبها الطاعة للمهديّة.

وبينا كان تميم يقاوم عيث العريان وسطوهم ويحاول قمع الثورات هنا وهناك، كان التوتر على أشد ما يكون بين بجاية والمهديّة، وقد تمكن تميم من حل الخلافات القديمة المستحكمة بين فرع أسرته وأسرة حماد، بتزويج ابنته، بلآرة للناصر بن علناس. وقد جهزها إلى بجاية بأموال و ذخائر لا يمكن تقدير قيمتها بالأسعار والسلع الموجودة حالياً. وقد حمل الناصر على سبيل

(33) رحلة التجاني، ص 70 ، 71 ، 72 ، 97 ، 330 .

(34) نفس المصدر.

(35) اعتمدنا رواية ابن خلدون وابن الأثير في هذا التسلسل، وأما ابن عذاري فيذكر أن تميمًا قد

استرد سوسة في سنة 455 هـ.

الصدّاق إليه في المهدية 30 ألف دينار، أخذ تمم منها ديناراً واحداً وأعاد إليه الباقي. وكان من نتائج هذا الزواج الحميدة إتمام الصلح بين إفريقية والمغرب الأوسط في سنة 407 هـ<sup>(36)</sup>

وفي سنة 474 هـ. نهض تمم إلى قابس وحاصرها، وكان بها ماضي بن محمد الصنهاجي، ثم أفرج عنها.

وفي سنة 476 هـ. تعرضت المهدية لحصار ضربه عليها مالك بن علوي الصخري على رأس جوع العرب، فنهض إليه تمم وأرغمه على فك الحصار والرحيل عنها، فلم يظفر من المدينة بشيء. وبعد ذلك اتجه إلى القيروان وملكها، فجرد تمم جيشاً كبيراً وسار إليه فشدد الحصار على هذه المدينة. فلما رأى مالك أنه لا قبل له بتميم رحل عنها وتركها، واستولى عليها جيش المهدية وعادت إلى طاعة تميم بن المعز<sup>(37)</sup>

ولكن المهدية لم تكن عرضة للغزو والحصار البري فحسب بل إنها كانت كذلك هدفاً للغارات من البحر.

والكارثة البحرية التي حاقت بالمهدية في عهد تميم، هي الغزو الذي قامت به أساطيل بيش (بيزة) وجنوه المتحالفة للمدينة في سنة 480 هـ.، وقد استولت أساطيل النصارى التي يقول المؤرخون إنها كانت تتكون من 300 قطعة حربية تحمل 30 ألف مقاتل<sup>(38)</sup> لا على المهدية فقط، بل وعلى زويلة أيضاً، ربضها المكمل لها.

---

(36) قارن العبر 166/6 والبيان 300/1 والكامل لابن الأثير 132/10

(37) الكامل لابن الأثير 132/10 .

(38) رواية ابن عذاري وابن أبي دينار وابن خلدون والتجاني. وأما ابن الأثير فيذكر، كما سرى أن عدد السفن كان 400 سفينة.

وينقل التجاني وصف الشاعر أبي الصلت<sup>(39)</sup> لهذه الكارثة ولظروف الإهمال في الاستعداد التي أحاطت بها في العبارات التالية:

« وكان من أعظم الأسباب فيه (الغزو) مع قضاء الله الذي لا يرد ومشيئته التي لا تدفع، غيبة عسكر السلطان عن المهدية، ومفاجأة الروم دون استعداد لهم، وأخذ أهبة للقائهم، وخلو كافة الناس من الأسلحة والعدد، وقصر الأسوار وتهدمها، وتكذيب تميم، مع ذلك لما يرد عليه من أخبار النصرارى، وسوء رأي فلان، متولي تدبير البلد إذ ذاك، في المنع من الخروج إليهم وللقائهم في الماء، فتركوا إلى أن نزلوا في البر، فكان من تغلبهم على المهديتين وعيشتهم فيها ما هو مشهور معلوم<sup>(40)</sup> »

وما يشير إليه ابن الصلت إشارة مبهمة من « سوء رأي فلان الخ ». يتعرض ابن الأثير لذكره، نقلاً عن مصادر أخرى لا نعرفها، بالتفصيل والصرامة، كما يصف أسباباً أخرى لنجاح النصرارى في التغلب على هذه القلعة المنيعه. على أن الجدير بالملاحظة هو أن هذا الحدث الذي يؤرخ له ابن خلدون وصاحب البيان والتجاني في سنة 480 هـ، يوردها هذا المؤرخ ضمن

---

(39) أبو الصلت بن أمية بن عبدالعزيز (460-529 هـ)، ولد بدانية (الأندلس) وتعلم بأشبيلية ودرس الحكمة ومارس الفنون الجميلة، رحل إلى الشرق وأقام عشرين سنة بمصر قبل أن ينتقل إلى المهدية حيث نزل على أميرها، يحيى بن تميم بن المعز بن باديس، كما أقام ضمن حاشية ابنه علي بن يحيى، ثم لازم حفيده الحسن بن علي بن يحيى، وقد مات بالمهدية. كان شاعراً موهوباً وكتائباً وعالمًا. ومن مؤلفاته « الحديقة » نصح فيه منحنى بنبذة الدهر في الأسلوب و« الوجيز » في علم الهيئة و« رسالة العمل بالأسطرلاب » و« الأدوية المفردة » و« تقويم الذهن » في المنطق. أنظر ترجمته في المقتضب من تحفة القادم للبلنقي، نشر في مجلة المشرق (1/353-400، 543-585) ثم نشر منفرداً في بيروت، ونفع الطيب (الفهرس) وفيات الأعيان 1/243-247 وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة 2/52 وكذلك الفقرة التي خصصها لترجمته حسن حسني عبد الوهاب في وركات 2/227-230.

(40) رحلة التجاني، ص 331-332.

حوادث سنة 481 هـ<sup>(41)</sup>، وذلك فضلاً عن انه يقول إن الغزو وقع على زويلة دون المهديّة.

وفي هذا الصدد يقول ابن الأثير:

« في هذه السنة فتح الروم مدينة زويلة من إفريقية، وهي بقرب المهديّة. وسبب ذلك أن الأمير تميم بن المعز بن باديس صاحبها أكثر غزو بلادهم في البحر فخرها وشتت أهلها، فاجتمعوا من كل جهة واتفقوا على إنشاء الشوانى (السفن الحربية) لغزو المهديّة، ودخل معهم البيشانيون (البيزيون) والجنويون، وهما من الفرنج، فأقاموا يعمرّون الأسطول أربع سنوات واجتمعوا بجزيرة قوصرة<sup>(42)</sup> في اربعمئة قطعة، فكتب أهل قوصرة كتاباً على جناح طائر يذكرون وصولهم وعددهم وحكمهم على الجزيرة، فأراد تميم أن يسير عثمان بن سعيد المعروف بالمهر، مقدم الأسطول الذي له ليمنعهم من النزول، فمنعه من ذلك بعض قواده، واسمه عبدالله بن منكور، لعداوة بينه وبين المهر، فجاءت الروم، وطلّعو إلى البر، ونهبوا وخرّبوا وأحرقوا زويلة ونهبوها، وكانت عساكر تميم غائبة في قتال الخارجين عن طاعته.

وأما رواية ابن عذارى فإنها مطابقة لوصف ابن الصلت، وربما نقلها عنه،

---

(41) الكامل 165/10. قارن المؤنس، ص 86. وفيه «جاءت عمارة للمهديّة من الجنوي (كذا) والبنسيان (كذا) نحو ثلاثمئة مركب فنهبوا المهديّة وزويلة وأضرموا النار في البلد ولم يكن بها مدافع لهم لغلبة الجند عن المهديّة، وكان عدد الروم ثلاثين ألف مقاتل فغنموا ورحلوا عنها».

(42) قوصرة، أو بنتلارية (Pantellaria) جزيرة إيطالية بركانية (83 كلم<sup>2</sup>) ضبطها ياقوت بالفتح ثم السكون، وقال إنها تقع بين صقلية والمهديّة. وكان المسلمون فتحوها في أيام معاوية وبقيت في أيديهم إلى أيام عبدالملك بن مروان ثم خربت. ويذكر نفس المؤلف انه كان يسكنها قوم من الخوارج الوهبيّة. وقد ذكر أبو الغداء انه يوجد بها شجر المصطكى وانه يجلب منها التين والقطن الكثير. قارن معجم البلدان 413/4 وتقويم البلدان، ص 188.

وذلك فيما عدا تصريحه باسم عبدالله بن منكور الذي وصفه هو أيضا بسوء التدبير، وبأنه «متولي أمور الدولة»<sup>(43)</sup>.

وحدث نزول النصارى بالمهدية وصفه شاهد عيان معاصر، وهو أبو الحسن الحداد في قصيدة له مطلعها (منسرح):

أَتَى يَلْمُ الْخِيَالَ أَوْ يَقْفُ      وَبَيْنَ أَجْفَانِنَا ثَوَى النَّدْفُ  
غَزَا حَمَانَا الْعَدُوَّ فِي عَدَدِ      هُمَا الدَّمَا كَثْرَةُ أَوْ النَغْفُ<sup>(44)</sup>  
عَشْرُونَ أَلْفًا وَنَصْفَهَا ائْتَلَفُوا      مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَلَيْسَ مَا ائْتَلَفُوا  
جَاءُوا عَلَى غَرَّةٍ إِلَى نَفَرٍ      قَدْ جَهِلُوا فِي الْحُرُوبِ مَا عَرَفُوا

ويجب أن لا يفوتنا أن نلاحظ من بين ما يستحق الملاحظة في هذه الأبيات، تنديده بالذين «جهلوا في الحروب ما عرفوا» (وهو يعني، بدون شك، قواد الأسطول) وتحديده لعدد رجال الأسطول الغازي بخمسة وعشرين ألفاً (في مقابل رقم 30 ألفاً الذي أورده ابن خلدون وغيره). وقد صالح تميم النصارى على 30 ألف دينار على أن يردوا إليه ما أخذوه من السي.

ومن الأحداث الهامة التي وقعت في هذه الفترة أيضاً استيلاء تميم على مدينة قابس (سنة 489 هـ) التي أخرج منها أخاه، عمر بن المعز<sup>(45)</sup>.

كانت هذه المدينة تحت ولاية رجل اسمه قاضي (أو ماضي) إبراهيم بن بلمون، وكان نائراً على المهديّة مستقلاً بها. فلما مات ولّى أهلها على أنفسهم عمراً هذا فأساء السيرة فيهم. فلما أخرج تميم جيشه إلى قابس قال له بعض رجاله: «يا مولانا! لما كان فيها قاضي توانيت عنه وتركته، فلما وثيها

(43) البيان 1/301.

(44) النغف بالتحريك والغين المعجمة: دود يسقط من أنوف الأبل، واحدته نغفة. أنظر لسان العرب 3/687.

(45) كذا في البيان، وورد في الكامل لابن الأثير باسم عمرو.

أخوك جرّدت إليه العساكر». فرد عليهم قائلاً: «لما كان فيها غلام من عبيدنا كان زواله سهلاً علينا. وأما اليوم، وابن المعز بالمهدية، وابن المعز بقابس، فهذا لا يمكن السكوت عنه».

وفي فتح قابس يقول ابن خطيب ضمن قصيدة طويلة مطلعها:  
ضحك الزمان وكان يلتقي عابسا لما فتحت بحد سيفك قابسا  
الله يعلم ما حويّت ثمارها إلا وكان أبوك قبل الغارسا  
من كان في زورق الأسنة خاطباً كانت له قلل البلاد عرائسا  
فابشر تميم بن المعز بفتكة تركتك من أكتاف قابس قابسا

وفي منتصف رجب، سنة 501 هـ، مات تميم بن المعز، بعد حكم دام سبعاً وأربعين سنة، وخلفه على عرش المهدية ابنه، يحيى بن تميم بن المعز الصنهاجي.

### عهد يحيى بن تميم

كان أبوه قد ولاه على المهدية في سنة 497 هـ، ثم استقل بالأمر بعد وفاة تميم، وكان عمره إذ ذاك 43 سنة وستة أشهر<sup>(47)</sup> وقد كان يحيى أول من راجع العبيديين وجعل الخطبة لهم بعدما قطعها جده المعز بن باديس وأعلن ولائه للعباسيين. وقد وصلته الرسائل والهدايا الثمينة من مصر.

كان عهد يحيى يتسم بالعدل والشفقة على الرعية وكان هو شجاعاً حسن السلوك، وقد فتح عدداً من القلاع التي استعصت على والده، ومن بينها قلعة

---

(47) ولد يحيى وتوفي بالمهدية (457-509 هـ). أنظر ترجمته في العبر 160/6 والبيان 304/1 والكامل لابن الأثير 186/10 وأعمال الأعلام 32/3 ووفيات الأعيان 211/6-219 والخلاصة النقية، ص 50 وتاريخ ابن الوردي 23/2 ورواة الجنان 198/3 وتاريخ طرابلس لابن خليل غلبون، ص 39 والمؤنس، ص 90 ورحلة التجاني، ص 333.

أقلبية المنيع<sup>(48)</sup> فقد ضرب عليها حصاراً ولم يرحها حتى فتحها (سنة 503 هـ).

وقد استكثر يحيى في بناء الأساطيل وكان همه في ذلك غزو بلاد الروم، فكان يرسل الحملة تلو الحملة الى شواطئها، وخصوصاً إلى سردانيا وجنوه.

وفي السنة المذكورة جرد يحيى أسطولاً يتكون من 13 غراباً لغزو دار الحرب، فأصيب في العمليات ست وعاد الباقي الى المهدي<sup>(49)</sup> وفي سنة 507 هـ. قام أسطول المهدي بغزو شواطئ بلاد الروم وعاد بغزو كثير<sup>(50)</sup>.

وفي أيام يحيى نزل المهدي بن تومرت بالمهدي<sup>(51)</sup> قادماً إليها من طرابلس الغرب في طريق عودته من الحج، فنزل بأحد مساجد المدينة (سنة 505 هـ). فاجتمع إليه جماعة من السكان وقرأوا عليه كتباً في علم أصول الدين، وأخذ يعمل لتغيير المنكر. ولما رفع أمره إلى الأمير يحيى استدعاه اليه واستقبله بمحضر جماعة من الفقهاء. ولما رأى ما فيه من الخشوع والعلم والتقشف سأله الدعاء له، فقال له: «أصلح الله الأمير لرعيته ونفع به ذريته». وبعدما أقام في المهدي مدة قصيرة انتقل إلى المنستير حيث أقام مدة يسيرة قبل أن يرحل إلى بجاية.

كان يحيى بن تميم مولعاً بالكيمياء وبالبحوث والاختبارات التي كانت

---

(48) قارن المؤنس، ص 90 ووفيات الأعيان 212/6 والكامل 451/10.

(49) البيان 304/1.

(50) نفس المصدر.

(51) هذا ما يرجحه ابن خلكان الذي ذكر أيضاً عند ترجمته لثمم بن المعز أن ابن تومرت اجتاز المهدي في أيامه. أنظر وفيات الأعيان 305/1. وكذلك نقل نفس المؤلف عن القاضي ابن القفطي أن ابن تومرت مر بالمهدي في سنة 511 هـ. (نفس المصدر 47/1) وانظر كذلك المعجب في أخبار المغرب، ص 179 هامش 2.

تجرى في ذلك العهد سعيًا لتحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب، وقد أوشك هذا الولع أن يكلفه حياته.

ففي سنة 502 هـ، وصل رجلان أو ثلاثة من العرباء إلى المهديّة، فكتبوا إلى يحيى يقولون إنهم طلبة من المصامدة وإنهم يعملون في الكيمياء، « ونزيل من القصدير الصداً والصبر حتى يرجع لا فرق بينه وبين الفضة، ولمولانا من السروج والبنود والأواني ما يحتاج إلى قناطر من الفضة يعمل عوضاً منها ما يريد » ويستعمل جميع ذلك في مهاته ». وقالوا له أيضاً إنهم يصنعون النقرة<sup>(52)</sup>، فأحضرهم عنده وأباح لهم الدخول إلى المعمل

فلما أحكموا ما أرادوا تجريبه، استأذنوا على السلطان يحيى بن تميم، فقال لهم: « أوقفوني على حقيقة السرّ! ». فقالوا له: « على أن لا يضر إلا أنت ووزيرك ».

فحضر هو ووزيره، الشريف أبي الحسن والقائد ابراهيم، قائد الأعنة، فصنعوا البوط<sup>(53)</sup> والقوا الرصاص فيه، وتظاهروا وكأنهم يخرجون الأكسير، فأخرجوا خناجرهم، فقالوا للسلطان: « أيها الكلب! نحن إخوانك فلان وفلان، نفيتنا وبقيت في الملك » وكان يحيى جالساً على مصطبة، فضربه أحدهم بالسكين، فجاءت الضربة على أم رأسه فقطعت طاقات في العمامة ولكنها لم تؤثر في رأسه، واسترخت يده بالسكين على صدره فخدشه، وضربه يحيى برجله فألقاه على ظهره. وأما الشريف، فلم يزل الذي قصده يسدد إليه الضربات حتى قتله. وأما القائد ابراهيم فقد أشهر سيفه، ولم يزل يقاتلهم حتى سمع الخدم الجليلة وفتحوا الباب من عندهم ودخلوا عليهم وقتلوا العرباء الذين كانوا يرتدون زي الأندلس، وبسبب هذا الزي أطبق على كثير

(52) النقرة، ج. نقار، من الذهب والفضة: القطعة المذابة، وقبل هي ما سبك مجتمعاً منها.

(53) البوط: البوتقة، ما يذيب فيه الصائغ ونحوه من الصناعات المعادن.

من الأندلسيين المقيمين في المهديّة بتهمّة التآمر لقتل السلطان وقتل جماعة منهم<sup>(54)</sup>.

وفي هذا الحادث يقول ابن حديس الصقلي<sup>(55)</sup> (كامل):

من كان عنه يدافع القدر لم يُرْده جَنّ ولا بشر  
وثنى الردى عنه الردى جزعاً وسعت على غيراته غَيْرُ  
ورمى عباده بكل داهمة دهياء لا تبقي ولا تذرُ  
إن الملوك وإن هم عظموا تغى العداة بهم وإن حَقَرُوا  
والقدر قد ملئ الزمان به قدما ولم نطق به السير  
إلى أن يقول في آخر القصيدة:

با فاتكاً بعداته أبداً إن الذئاب تبدها المَصْر  
سكرا، فإن السُّد متصل وُصِلَتْ به أيامك الغرر  
واسلم فإنك في الندى مَطَرٌ يحو المحول وللهدى وزر<sup>(56)</sup>

وقد أبلغ المحققون السلطان بعد ذلك أن أولئك الغرباء شوهوا عند المقدم ابن خليفة. واتفق أن الأمير أبا الفتوح بن تميم، شقيق يحيى، وصل

(54) قارن البيان 305/1 والكامل 472/10 وفيات الأعيان 213-214 .

(55) عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حديس الأزدي الصقلي (ت 527 هـ) شاعر مبدع، مدح كلا فرعي أسرة بني زيري، ملوك بجاية وسلاطين المهديّة. ولد وتعلم في قبرص ورحل إلى الأندلس (سنة 471 هـ) حيث مدح المعتمد بن عباد. وفي إفريقية مدح يحيى بن تميم ثم ابنه علي ثم ابنه الحسن. وقد كانت وفاته بمجزيرة مايورقة. أنظر ترجمة ابن حديس في وفيات الأعيان 212-213/3 والكاملة، ص 637 ومطلع البدور 36/1 والذخيرة لابن بسام (الفهرس) والمكتبة العربية الصقلية لآماري (الفهرس) ومقدمة احسان عباس لديوان ابن حديس، وترجمة ابن حديس لمصطفى السقا والمشناوي (المطبعة الرحمانية- القاهرة 1929 . وكذلك- Breck S. I: 474 .  
Amari Storia dei Musulmani di Sicilia, Vol. II, PP. 522-602; Schack, Poesi und Kunst der

Araber in Spanien und Sicilien, Vol. II, P. 17-30

(56) ديوان ابن حديس، نشر احسان عباس، بيروت 1960، ص 218 .

تلك الساعة إلى القصر برفقة أصحابه وقد لبسوا السلاح، فمنع من الدخول إلى القصر.

وعند ذلك ثبت عند يحيى أن هذين الشخصين الآخرين هما اللذان دبوا المؤامرة لقتله، فأحضر المقدم ابن خليفة وأمر أولاد أخيه فقتلوه قصاصاً، بينما أمر بإخراج أخيه أبا الفتوح وزوجته، بلآرة بنت القاسم بن تميم، وهي ابنة عمه، ووكّل بها من يحرسها في قصر زياد الذي يقع بين المهديّة وسفّاقس فبقي هناك حتى مات يحيى، فسّيره ابنه، علي هو زوجته إلى مصر<sup>(57)</sup>

وفي سنة 505 توفي يحيى بن تميم في يوم عيد الأضحى. وقد اختتم ابن خلكان ترجمته ليحيى بالعبارّة التالية:

« كان يحيى عادلاً في دولته، ضابطاً لأُمُور رعيته، عارفاً بخبره ودخله، مديراً في جميع ذلك ما يوجبُه النظر ويقتضيه الرأي الحكيم، وكان كثير المطالعة لكتب الأخبار والسير، عارفاً رجباً للضعفاء، شفيقاً على الفقراء، ويقرب أهل العلم والفضل من نفسه، وساس العرب فهابوه، وانكفت أطعمهم، وكان له نظر في صناعة النجوم والأحكام. وكان عنده جماعة من الشعراء قصدوه ومدحوه، وخلدوا مديحه في دواوينهم، ومن جملة شعرائه أبو الصلت عبدالعزيز بن أمية بن عبدالعزيز بن أبي الصلت،<sup>(58)</sup>

وقد رثاه ابن حديس الصقلي بقصيدة جمع فيها بين التعزية والتهنئة هي من غرر الشعر العربي، مطلعها (بسيط):

ما أغمِدَ العُصبَ حتّى جُرِّدَ الذّكر      ولا اختفى قمر حتّى بدا قمر  
قد مات يحيى فمات الناس كلهم      حتّى إذا ما عليّ جاءهم نُشُروا

(57) الكامل لابن الأثير 512/10-513.

(58) وفيات الأعيان 213/6.

إن يبعثوا بسرور من تملّكه  
يا يوم ولّى عن الدنيا به طُمِست  
ومادت الأرض من فقدانها جبلاً  
لم تغن عنه غياض من قناً وظباً  
فمن مَنِيّة يحيى بالأسى قُبِروا  
بظلمة الزّوء من أنوارك الغرر  
ينابغُ الجود من سفحيه تنفج  
حُمّر لمحاليق فيها أسدّها الهُصُر<sup>(59)</sup>

### عهد عليّ بن يحيى

لما توفي يحيى كتب رجال دولته إلى علي الذي كان والياً على سفاقس<sup>(60)</sup>  
فوصل إلى المهديّة ثالث يوم عيد الأضحى، فأشرف على دفن جثمان والده في  
القصر وتقبل التعازي ثم تولى الأمر من بعده<sup>(61)</sup>

كان من بين الإجراءات الأولى التي اتخذها عليّ توجيه أسطول المهديّة إلى  
جزيرة جربة<sup>(62)</sup> التي كان أهلها في عصيان يقطعون الطريق ويستولون على  
التجار ويسلبونهم بضائعهم، فشدد الحصار عليها واستمر على ذلك حتى أعلنت  
الجزيرة خضوعها لسلطانها وطاعتها له، والتزموا بالكف عن نشاطهم وتحسين  
سلوكهم<sup>(63)</sup>

(59) ديوان ابن حمديس، ص 221-223 .

(60) أنظر سيرة علي بن يحيى في البيان 306/1 والعير 161/6 وتاريخ ابن الوردي 28/2 وأعمال  
الأعلام 33/3 والمؤنس، ص 91 ورحلة التجاني، ص 333 والكامل لابن الأثير 570-569/10  
ووفيات الأعيان 216/1 .

(61) قارن الكامل لأبن الأثير 513-514/10 .

(62) جزيرة تونسية تقع في خليج قابس (ولاية مدنين)، 514 كلم<sup>2</sup> ويبلغ عدد سكانها حالياً  
65000 نسمة، كانت جربة مركزاً تجارياً فينقياً مهماً يسمى «مينيكس»، وهي شهيرة عبر  
التاريخ بصناعة السجاد والفخار. وأهم إنتاجها الزراعي الزيتون والنخيل. أنظر أقوال  
الجغرافيين العرب عن جربة ووصفهم لهذه الجزيرة في مختلف العصور في كتابنا: المدن  
المغربية في الأدب الجغرافي العربي .

(63) قارن الكامل 514-513/10 والبيان 306/1 .

وفي سنة 511 هـ، جهز علي بن يحيى أسطولاً ووجهه إلى قابس وحاصرها .

كان رافع بن مكّي<sup>(64)</sup> قد أنشأ مركباً بساحل قابس للركاب من التجار، وكان بناء هذا المركب قد بدأ في أواخر أيام تميم، فلم ينكره شيئاً من ذلك . فلما توفي يحيى استنكف على واعتبر هذا العمل خرقاً للاحتكار الذي تمارسه الدولة للنقل البحري وإعتداء على حقه في تسيير الأساطيل، فمنعه من إنزال سفينته الى البحر .

ولما خشي رافع من عواقب هذا المنع، التجأ إلى روجر الصقلي وطلب مساعدته لمقاومة المهديّة، وقد كانت هذه فرصة لم يكن الملك النصراني ليفوتها على نفسه ليضرب إسفيناً في العلاقات بين السلطان وعامله على هذه المدينة المهمة، فوعده روجر بأن يساعده على تسيير سفينته في الحال، وأنفذ لهذه الغاية أسطوله إلى قابس ولاستظهار قوته أمر أن يمر الأسطول بمياه المهديّة<sup>(65)</sup>

وبعد مرور الأسطول الصقلي بالمهديّة، أخرج عليّ أسطوله في إثره متخذاً قابس وجهته، ولما وصل أسطول المهديّة إلى قابس وجد الروم قد نزلوا من قطعهم للتمتع بضيافة رافع، فلم يرعهم إلا وأسطول المهديّة قد أطبق على أسطولهم، فبادروا للالتحاق بقطعهم، ولكن بعد فوات الأوان، وقد أعمل المسلمون السيف فيهم وقتلوا عدداً كبيراً منهم<sup>(66)</sup>

وينقل التجاني عن الشاعر أبي الصلت الذي كان معاصراً لهذه الأحداث قوله :

(64) كذا في رحلة التجاني . وفي الكامل : رافع بن مكن الدهماني .

(65) الكامل 530-529/10

(66) رحلة التجاني، ص 98 .

«سلم من سلم منهم (النصارى) فلاذ بالفرار وطار من خفة الخوف، لا من خفة الطرب، وكان ذلك أشد الأسباب في الوحشة التي وقعت بين رجار وابنه (الحسن) بعده، حتى أدت إلى تغلب الروم على المهديّة وانقراض دولة بني مناد (٦٧)»

وبمناسبة هذا النصر الذي كلل به أسطوله، مدح محمد بن عبدالله الكاتب السلطان علي بن يحيى بقصيدة جاء فيها (طويل):

ليهنّ المعالي أن تملّك رقهـا      علي بن يحيى بالحجا والتكرّم  
جرى وجرى صيد الملوك فبذّهم      إلى غاية في المجد لم تتقدّم  
وصمّم تصميم الحسام مبادراً      لاطفاء نار آذنت بالتضرم  
تعدّى على الاعلاج في بحر قابس      وسار إليهم في الخميس العرمرم  
فولوا على الادبار كلّاً واجفلوا      بناب نبا عنهم وظفر مقلّم

وقد هجا محمد بن بشير رافعاً بقصيدة منها (بسيط):

سل رافعاً ما الذي أجرى تنصره      وهل نفى الذل عنه من به وثقا  
لو لم يرّ الروم أهلاً والصليب أباً      لم يشك من عيشه في قابس رنقا

وفي مرحلة تالية استأنف رافع حركته الثورية وبلغت به الجرأة أن جمع قبائل العرب وسار على رأسهم حتى نزل المهديّة محاصراً لها، ولكنه خادع علياً وأوهمه أنه إنما جاء للصّلاح، على أن علياً لم ينخدع بأقواله، فلم يجبه الى طلبه، بل أخرج جيشه وحل على رأسه على جيش رافع حملة صادقة فصدّهم عن هدفهم، ثم أعادوا الكرّة ولكن الهزيمة كانت نصيب رافع وأصحابه في نهاية الأمر، وقد قتل منهم عدد كبير، بينما لم يقتل من جيش علي سوى رجل واحد. وقد التجأ رافع بعد ذلك إلى القيروان، فمنعه أهلها من الدخول فقاتلهم أياماً ثم دخلها، فأرسل إليه علي جيشاً حاصره فيها. فلما رأى أنه لا

(67) نفس المصدر.

قبل له بجيش المهديّة خرج منها وعاد إلى قابس . وفي مرحلة تالية تدخل  
جماعة من رؤساء العرب وتمّ الصلح بين الطرفين<sup>(68)</sup>

وبعد معركة قابس بين الأسطولين، حلت الوحشة بين علي بن يحيى  
وروجر الصقلي محل المودة وحسن الجوار .

وفي سنة 512 هـ .، استقبل علي رسولاً من قبل روجر يطلب إليه تجديد  
اتفاقيات معقودة بين البلدين وتأكيدهما كما طلب إليه إعادة أموال له كانت  
بالمهديّة . ولكنه ردّ الرسول بدون جواب بسبب اللهجة التي استعملها والتي  
يجمع المؤرخون على أنها كانت تتسم بالغلظة والخشونة .

ومنذ ذلك الوقت أخذ كل من الطرفين يتحرز من الآخر ويعمل بدون  
كلل لتجديد أسطوله . وقد عمل علي من جانبه على تعزيز أسطول المهديّة  
استعداداً للقاء عدوه<sup>(69)</sup>، كما كاتب أمير المسلمين المرابطي في مراكش يدعوه  
إلى إقامة تعاون بين أساطيل الدولتين لمواجهة أطماع صاحب صقلية .

وفي أواخر ربيع الأول، سنة 515 هـ .، توفي السلطان علي بن يحيى  
وخلفه على عرش المهديّة ابنه الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز  
الصنهاجي .

\* \* \*

### عهد الحسن بن علي

كان والده قد فوض الأمر إلى الحسن في حياته . وفي ثاني يوم وفاته خرج  
للناس فسلموا عليه مهنتين بالولاية ومعزين بالوفاة، فبريع له وهو ابن اثنتي

---

(68) الكامل لابن الأثير 530-529/10 والمؤنس، ص 91 .

(69) قارن البيان 307/1 والكامل 589-588/10 والمؤنس ص 91 ورحلة التجاني، ص 99 .

عشرة سنة وستة أشهر<sup>(70)</sup> وأنشد الشعراء أمامه، وتكفل بإدارة شئون دولته خادمه، صندل الخصي. ولكن صندلاً الذي لم يكن يتمتع بالكفاءة الضرورية لتسيير أمور البلاد، لم يلبث أن مات.

وعقب ذلك اشتد الخلاف بين القواد وأصحاب السلطان وتنازعوا على الرئاسة والحل والعقد. وقد استمر الأمر على ذلك حتى فوض الحسن أمور دولته إلى أحد قواد أبيه، واسمه أبو عزيز موفق.

وفي سنة 516 هـ، غزا أسطول أمير المسلمين، علي بن تاسفي<sup>(71)</sup> بقيادة أحمد بن ميمون شراطيء جزيرة صقلية، وافتتح بها مدينة نقوطره<sup>(72)</sup>، بساحل قلورية<sup>(73)</sup> فانتهبها وسبى نساءها وأطفالها، وقتل

(70) ولد الحسن بن علي (سنة 562 أو 563 هـ) بسوسة (هكذا في البيان وفيات الأعيان وغيرها من المصادر، ولكن الزركلي ذكر في الأعلام (220/3) أن مولده كان بالمهدية. وأنا لا أعرف المراجع التي استند عليها الباحث المرحوم في ذلك). أنظر سرّة الحسن وأخباره في البيان 308/1 والعبر 161/6 وأعمال الأعلام 83/3 وتاريخ ابن الوردي 47/ والخلاصة النقية، ص 51 والمؤنس، ص 92-93 والكامل لابن الأثير 611/10 ورحلة التجاني، ص 334 وفيات الأعيان 217/6.

(71) علي بن يوسف بن تاسفين اللمتوني (477-537 هـ) أبو الحسن، ثاني ملوك المرابطين. ولد بسبتة وبويع له بعد وفاة أبيه بعهد منه، وسلك طريق أبيه في الحكم فساد الهدوء والرخاء مملكته التي اتسعت رقعتها على ما كانت عليه في عهد أبيه. جاز إلى الأندلس (سنة 503 هـ) مجاهداً على رأس جيش تعداده مائة ألف فارس، وفتح عدداً كبيراً من المدن والحصون. وفي أيامه ظهر أمر محمد بن عبدالله بن تومرت الذي أحدثت دعوته اضطراباً كبيراً في أمور دولته، وقد مات غمّاً لهذه التطورات في مراكش. أنظر أخباره في وفيات الأعيان (الفهرس) والاستقصا 123-126 والحلل الموشية، ص 61-90 وجذوة المقتبس، ص 291.

(72) أنظر المكتبة الصقلية لآماري، ص 282 والعبر 161/6.

(73) قلورية (Calabre) المنطقة التي تمتد في أقصى جنوب إيطاليا يفصلها عن صقلية مضيق مسينا، من مذهبها القديمة ربة (جراجة) والمدينة الرئيسية الحالية فيها هي ريجيودي كلابريا (Reggio di Calabria) ومن أعلام المسلمين الذين ينسبون إلى قلورية، أبو العباس القلوري، روى عن أبي إسحاق الحضرمي وغيره، وحدث عنه أبو داود في سننه.

شيوخها، وقد تيقن روجر الصقلي أن هذه العملية لم تتم إلا بتواطؤ بين المرابطين وسلطان المهديّة، وأن الحسن بن علي كان هو المحرك لهذا الغزو والمسبّب له<sup>(74)</sup>، فأضمر الانتقام وجَدّ في تعزيز أسطوله وتجديده، فحشد السفن الحربية العديدة واستقر سكان مملكته « واجتمع لديه من الجيوش ما لم يكن له عهد به من قبل »، ومنع السفر من صقلية إلى الشواطئ الإفريقية رغبة في كتم أخبار استعداداته العسكرية وعدم تسرب أسرارها إلى المهديّة.

ولكن أخبار هذه الاستعدادات وصل منها إلى الحسن، مع ذلك ما يكفي لكي يحفزّه على العمل لتجديد أسطول المهديّة وترميم ما كان يحتاج إلى ترميم من أسوارها وتحصيناتها، وجمع جيشاً كبيراً من العرب والبربر، وقد جاءته الحشود من كل صوب لمواجهة الصقليين.

وفي شهر جمادى الآخرة<sup>(75)</sup> سنة 517 هـ، سار أسطول صقلية في ثلاثمائة قطعة تحمل ألف فارس وفارس واحد. على أن هذا الأسطول واجه رياحاً معاكسة فعاقت مسيرته وأغرقت كثيراً من قطعه. ولما وصلت القطع التي سلمت من الغرق إلى شواطئ إفريقية، أرست عند جزيرة الأحاسي<sup>(76)</sup> ونزل قائدا الأسطول إلى الجزيرة، وهما جرجير الأنطاكي وعبدالرحمن، وضربت لهما ولمقدمي الافرنج مضارب هناك، وكان وصولهم في آخر النهار. وفي الليل خرج عدد من الغزاة الصقليين وانبسوا حتى ابتعدوا عن الشاطئ ثلاثة أميال<sup>(77)</sup>.

---

(74) قارن البيان 308/1 والكامل لابن الأثير 612-611/10 .

(75) كذا في الكامل. وفي البيان: أواخر جمادى الأولى. وفي رحلة التجاني: لخمس بقين من جمادى الأولى.

(76) جزيرة تقع على عشرة أميال من المهديّة.

(77) رحلة التجاني، ص 333 .

وفي اليوم التالي لنزولهم سار قائد الأسطول في 23 سفينة حربية في حركة استطلاع في اتجاه المهديّة لمعاينة تحصيناتها واستعدادها الدفاعي . وبعدما عاينوا أسوارها المنيعّة وشاهدوا حشود المسلمين التي تقف على قدم وساق للدفاع عن المدينة، رجعوا أدراجهم .

وفي هذه الأثناء كان النصارى قد احتلوا قصر الديماس، وهو حصن منيع مشرف على البحر، وتحصن فيه نحو مائة منهم بمساعدة بعض الأعراب بمباطنتهم وبذل المال والوعود لهم . وقد كانت خطة الصقليين تقضي بالزحف من هناك بالخيّل والرجال برباً على المهديّة .

ولما وصل القائدان ومن معها إلى الجزيرة التي اتخذوها قاعدة لهم، وجدوا أن طائفة من العرب وجنود المهديّة قد دخلوا إليها وكشفوا من كان بها من الروم عن مواقعهم وغنموا بعض أسلحتهم<sup>(78)</sup> .

فلما جاء اليوم الرابع لنزول القوات الغازية، اجتمع المسلمون وخرجوا من المدينة وكبروا تكبيرة راعت من بالجزيرة من النصارى، فظنوا انهم داخلون إليهم، فانهزموا الى مراكبهم وقتلوا خيولهم بأيديهم، ودخل المسلمون الجزيرة وليس بها أحد منهم ووجدوا فيها بعض الخيول وآلات وأسلحة أعجلهم لهرب عن حملها<sup>(79)</sup> .

وفي نفس الوقت سير الحسن حشوداً من المقاتلين الى الحصن وأقام هو في المهديّة على رأس جموع أخرى مستعدة للدفاع عن المدينة .

وأما الجموع التي سارت لمحاصرة قصر الديماس، فإنهم لم يلبثوا أن أحاطوا بالحصن وضيقوا الخناق على المتحصنين بها . وذات ليلة وكان ما لديهم من

(78) نفس المصدر، ص 335-336 .

(79) نفس المصدر . قارن البيان 308/1 .

الطعام والماء قد نفذ، سمع المحاصرون تكبيرة هائلة ارتج لها الحصن وأوقعت الذعر في نفوسهم، لأنهم يثقون أن المسلمين قد شرعوا في الهجوم عليهم، فتمسوا طريقهم إلى شوانتهم وقتلوا كثيراً من خيولهم بأيديهم، ولكن المسلمين غنموا مع ذلك، أربعمئة فرس منها، كما استولوا على جموع أسلحتهم ومعداتهم الحربية، وعملوا فيهم السيف، فكانت رؤوسهم تتساقط كالثمار الناضجة وإخوانهم يشاهدون ذلك في البحر من سفنهم دون أن يقدروا على إنقاذهم، واستمر القتال حتى طلب النورمانديون الأمان من السلطان الحسن بن علي، ولكن العرب رفضوا إعطاءهم الأمان. فلما خرج من بقي منهم في الحصن في منتصف جمادى الآخر<sup>(80)</sup> أخذوهم بالسيف وقتلوه عن آخرهم<sup>(81)</sup>

فلما يؤس الافرنج من خلاص رفقاتهم الذين احتما بقصر الديماس، فتحوا أشرعتهم للريح وعادوا أدراجهم يحدوهم شعور الهزيمة .

ابتهج الحسن بن علي بهذا النصر الحاسم وأصابته نشوة الغرور، لأنه لم يكن يدرك ما يخبئه الغد له ولمملكته الهشة .

وهذا الشعور نستشفه بوضوح فيما نسميه اليوم « البلاغ الحربي » عن هذه المعركة وجهه إلى عماله في مختلف الولايات، ونحن ننقله بالنص الذي أورده به التجاني وبالعبارة التالية :

« إن صاحب صقلية لجّ في طغيان غيه، واستمر على عدوانه وبغيه، وحله سوء تقديره، وفساد تدبيره على اهتمام جانب الإسلام، وظن أن ذلك سهل الملتص، قريب المرام، فاستجاش وحشد، واستنفر واستمد .

---

(80) كذا في البيان . وفي الكامل : في منتصف جمادى الآخرة .

(81) |أقارن الكامل 512/10 والبيان 309/1 ورحلة التجاني ص 336-337 .

« ولما استتمت له في ظنه أموره، وكمل تدبيره الذي كان فيه تدميره، سَير أسطوله نحو المهديّة - حاماها الله - في نحو ثلاثمائة مركب حمل على ظهرها نحو ثلاثة آلاف راكب، وزهاء ألف فارس، وكان إطلاعه من طالع مقارن للنحوس، فاض عليه بتلف أموال وهلاك النفوس، فمن أول ما أسناه الله فيه من صنعه الجميل، وأظهره من عنايته التي لا يؤدي حقها بغير الشكر الجزيل، أن أرسل عليهم زيجاً صيرت جميعهم إلى التبار، وأصلتهم ببرد الماء حر النار، ونابت في إهلاكهم مناب زرق الأسنة وبيض الشفار. وكان رجار<sup>(82)</sup> قد رام إخفاء كيدِه ومكره بمنع السفر إلى سواحل المسلمين وحظره، فسقط إلى الساحل مركب من جملة أسطوله يعرفنا من ركاياه صورة أمره، وما يسر الله سبحانه من تشتيت شمله ونثره، ولم نكن قبل ذلك مهملين لما يقتضيه هذا الحادث من التأهب والاستعداد، واستضافة الأجناد إلى الأجناد، فاستظهرنا باستقدام قبائل العرب المطيفة بنا، فأقبلوا أفواجاً أفواجاً، رجاءً واهجبي السيل يعتلج اعتلاجاً، ويتدفق أمواجاً، وكلهم على نيات في الجهاد خالصة، وعزمات غير مترددة في مواقف الموت ولا ناكسة. ووصل الأسطول المخذول بمن أسلمه السوق إلى حد الحسام، وتخطاه الغرق فنجا من الحُمام إلى الحُمام، ونزلوا على عشرة أميال من المهديّة بجزيرة هناك ذات إحساء، بينها وبين البحر<sup>(83)</sup> مجاز متداني المعبرين، قريب ما بين الشطين، حين مرّاه سهل على الفارس والراجل خوضه واقتحامه، فتسرع إليهم من جندنا، ومن انضاف إليهم من العرب المنجدة لنا، طائفة أوسعت أعداء الله طعنًا وضربًا، وملأت لنوهم خوفاً ورعباً. فلما عاينوا ما نزل بهم، أنزلوا عن ظهور مراكبهم ما كان أبقاه الغرق من أفراسهم، وكانت نحو خمسمائة

(82) في الأصل: لجار.

(83) كذا في الأصل. والأولى: بينها وبين البر.

فرس، وظنوا انهم إن امتطوا متوتها متسنين<sup>(84)</sup> رصدموا بها جيوش المسلمين، أمكنهم بها انتهاز فرصه فاكذب الله ظنونهم، وخيب آمالهم، وجعل الدائرة عليهم لا لهم، وخامرهم من الرعب الذي نصر الله به المسلمين وخذل به المشركين، ما ولو به أدبارهم، يرون الهزيمة والهرب غلباً، وتركوا كثيراً من خيلهم وأسلحتهم نهياً مقتسماً، فيئاً مغتناً. واتفق ي مدة مقام هذا الأسطول في الجزيرة أن رجلاً من طغاة العرب ومردتهم دعاه فساد دونه وضعف يقينه، أن غتال لهم قصرأ على المجاز المذكور، شديد الامتناع، فحصل به منهم رهاء مائة عالج، وتسربت العرب إليهم من كل فج، فجردنا من خيلنا من تولى أمره، وباشر حصره، إذ كانت العرب لا تباشر مثل هذا، وإنما الحصن لا الحصون، وإنما يعظم غناؤهم في السهول لا الحزون، ثم ألقع جميع الأسطول حين علم عجزه عن استنقاذ أصحابه، ولبثوا بعده والقتل يمحققهم، والنار تحرقهم، إلى أن استوصلوا عن آخرهم، وكبهم الخنف على جباههم ومناخرهم، وجرى أمر هذا العدو المخذول من أوله إلى آخره، وفاتحته إلى خاتمته، على ما قاله سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ فالحمد لله الذي أمد الاسلام ونصره، وأعلاه، وأظهره، وأباد الشرك ودمره وأذله ودحره<sup>(85)</sup>.

فلما ألقع أسطول صقلية ورجع أدراجه خائباً، كان وقع هزيمة هذه الحملة التي أنفق روجر الثاني أموالاً طائلة ووقتاً طويلاً لإعدادها شديداً على نفسه، فصتم على الانتقام من خصمه بغزو المهديّة مرة ثانية، وذلك على الرغم من عقد صلح صوري بينه وبين الحسن بن علي، وكذلك استغل فترة الهدوء التي ضمنها هذا الصلح لإعداد حملة أخرى. وبما زاد من عزمه

(84) في الأصل: المستسلمين. وقد اعتمد تصحيح المحقق في ص 338 هامش 1.

(85) رحلة التجاني، ص 336-339.

وتصميمه على أن يعطي درساً للمسلمين، انه اتفق أن وصل أسطول المارابطين بقيادة ابن ميمون إلى صقلية مرة أخرى، عقب رجوع أسطوله المنهزم مباشرة، فعاث فساداً في مملكته، وأخذ معه أسلاباً كثيرة ونساء من السبايا .

★ ★ ★

كانت العلاقات بين بلاطي بجاية والمهدية في هذه الفترة تتسم بالجفاء والعداء، وذلك على الرغم من أن الطرفين يدركان تماماً خطر النصارى المحقق بالمملكتين معاً .

وفي سنة 529 هـ .، وجد يحيى بن العزيز الحمادي<sup>(86)</sup> الفرصة سانحة لمحاولة غزو المهدية بأسطوله وبجيش بري وضعه تحت قيادة الفقيه، مطرف بن علي ابن حمدون، وبمرافقة حشود من العرب . وسبب هذا الغزو هو أن الحسن بن علي، صاحب المهدية كان يحب أمير طائفة كبيرة من العرب، اسمه ميمون بن زياد، فقربه إليه وفضله على سائر شيوخ العرب، فحسده هؤلاء على مكانته ولم يطيقوا البقاء في مملكة المهدية، فارتحلوا بأولادهم والتجأوا إلى مملكة يحيى ابن العزيز الحمادي، وجعلوا اولادهم رهائن في يد هذا السلطان لضمان ولائهم له، بعدما طلبوا إليه أن يوجه معهم جيشه ليملكوه المهدية . وافقهم يحيى على ما أرادوا، ولكن في غير حاسن ودون أن يعقب هذه الموافقة شروع في تنفيذ مشروع الغزو . ولكنه لما وصلته كتب من شيوخ المهدية تحثه على العمل والإسراع إلى بسط سلطانه على هذه المدينة، أدرك ما تنطوي منه فكرة عربه من الامكانيات الجديدة، ففقت نفسه وزاد أمله في نجاح العمل<sup>(87)</sup>

---

(86) أورد التجاني نسبة غلطاً باسم يحيى بن المعز بن باديس، وقد فات هذا الخلط على المحقق . والصواب انه يحيى بن العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس . أنظر شجرة نسب بني حاد في كتابنا : دولة بني حاد، ص 27 .

(87) راجع عن هذه الحوادث وغيرها، كتابنا : دولة بني حاد ملوك القلعة وبجاية .

نزل مطرف بن حمدون بجيشه بظاهر زويلة، في الوقت الذي ضرب فيه أسطول بجاية حصاراً على المهديّة .

وإزاء هذا التطور الذي لا بدّ وأن يكون مفاجأة للحسن، سارع للاستنجاد بروجر الثاني الذي أمده بقطع من أسطوله - 20 قطعة في رواية التجاني .

ونحن نجعل الدور الذي قام به أسطول صقلية على التحديد في هذا العراك الذي نشب بين البلدين الشقيقين، ولكن التجاني يخبرنا بأن أسطول روجر الثاني قد استغل مركز الضعف الذي يوجد فيه الحسن بن علي فأخذ يتحرش بأسطوله بعدما فك أسطول بجاية الحصار عن المهديّة .

وقد كانت لروجر الثاني جواسيس في المدينة أبلغته أن بمرسى المدينة مراكب قد استوفت وسقها، فأمر جرجير، قائد أسطوله الذي جاء لمناصرة المهديّة، بأن يستولي عليها، ففعل ذلك غدرًا وساقها إلى صقلية<sup>(88)</sup> وبعد ذلك هجم على مرسى المهديّة فأخذ مركباً يسمّى « نصف الدنيا » كان الحسن بن علي قد شحنه بذخائر ملوكية ليوجهها إلى الحافظ العبيدي صاحب مصر. ثم إن ملك صقلية لم يزل يوالي غزو المهديّة بأساطيله المقدم عليها جرجير المذكور، وهو العارف بالمهديّة، حاضرة وبادية، إلى أن دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة<sup>(89)</sup> .

وأما الفقيه، مطرف بن حمدون، فقد كان أبعد ما يكون، فيما يبدو، عن امتلاك الخصائص العسكرية الضرورية للقيام بمثل العملية التي كلف بتنفيذها، حيث كان، فيما تقول الرواية، رجلاً متقشفاً متورعاً عن سفك دماء المسلمين. وقد كان يعتقد أنه إنما جاء ليتسلم المهديّة بطريقة سلمية، بما وعد بذلك شيوخها الأمير يحيى بن عبدالعزيز.

(88) رحلة التجاني، ص 340 .

(89) نفس المصدر .

وبعدما فرض على المدينة حصاراً صورياً على المهديّة، بدون قتال بضعة أيام، نشبت معركة بين الطرفين انتصر فيها جيش المهديّة. وبعدما أعاد مطرف جمع قواته، شن هجوماً جديداً وعماماً من البر والبحر. ولما اشتد القتال، خرج السلطان، الحسن بن علي بن نفسه للقتال، فانهزم جيش بجاية «إجلالاً له». وكذلك استولى أسطول المهديّة على أربع سفن حربية<sup>(90)</sup> من سفن أسطول بجاية، وانهزمت القطع الأخرى وعادت أدراجها قانعة من الغنيمة بالإياب<sup>(91)</sup>

وفي نفس السنة (529 هـ) وجه روجر الثاني أسطولاً مشحوناً برجال من المسلمين من أهل صقلية ورجال من الإفرنج إلى جزيرة جربة ونازلوها ثم أخذوها عنوة بالسيف، دون أن يتدخل أسطول المهديّة، وقد قتل كثير من الجربيين في هذه العمليات وسبي نساؤها وبغى في أسواق النخاسة في صقلية. وقد ولّى روجر الثاني على الجزيرة عاملاً من قبله وكتب لمن بقي من سكانها أماناً وجعلهم خولاً ودانت له البلاد<sup>(92)</sup>

وفي سنة 536 هـ،، اعتدى أسطول صقلية على مراكب سیرت من مصر إلى صاحب المهديّة وأخذها، ولكن الحسن بن عليّ اضطر مع ذلك إلى مراسلة روجر الثاني لتجديد الهدنة معه، حيث كان في حاجة إلى استيراد الجبوب من صقلية للتخفيف من حدة المجاعة التي كانت تعاني منها مملكته في ذلك الوقت<sup>(93)</sup>.

---

(90) كذا في الكامل. وفي البيان: أسر أسطول المهديّة غرابين من أسطول بجاية، وأمر الحسن بن علي بسجن قائديها، مات أحدهما من جراء سهم أصابه، وأمره بقتل الثاني بعد ذلك.

(91) الكامل لابن الأثير 32-31/11.

(92) نفس المصدر.

(93) نفس المصدر.

وفي سنة 540 هـ.، غزا أسطول صقلية شواطئ افريقية واستولى على جزيرة قرقة، فقتلوا رجالها وسبوا نساءها. ولما كاتب الحسن بن علي روجر الثاني في ذلك يذكره باتفاقيات الهدنة المعقودة بين البلدين رد عليه معتذراً بأن المهاجرين للجزيرة غير مطيعين له<sup>(94)</sup>

\* \* \*

كانت قابس تابعة لرجل اسمه رشيد. فلما توفي هذا الرجل عمد مولى له اسمه يوسف إلى تولية الابن الصغير لرشيد، واسمه محمد، واستبدّ هو بالحكم باسمه، بعدما أخرج ولده الكبير، واسمه معمر، صاحب الحق وحرمه من الولاية. ويبدو أن هذا الرجل لم يقنع بما استحوذ عليه من سلطان مولاه اغتصاباً بل أراد كذلك أن ينصب نفسه سيداً على حريمه. ولكنه لسوء حظه رفضته سيدة ذات عزة نفس من بني قرّة. ولما حاول إرغامها على طاعته استنجدت باخوتها. فلما جاء هؤلاء إلى قابس لاصطحاب أختهم منهم يوسف من ذلك بالقوة.

وإثر ذلك سار معمر وبنو قرّة إلى الحسن بن علي في المهدية وشكوا إليه تعنت يوسف وبغيه. كاتبه الحسن في ذلك فلم يجبه، بل وصرح أمام الملأ بأنه إذا لم يكف الحسن عن مضايقته، فسوف يسلم قابس إلى ملك صقلية.

ولما بلغت هذه الأقوال إلى الحسن بن علي استفظعها وأخذ يجهز جيشاً ليسيره إلى قابس لمعاقبة يوسف. وبمجرد ما سمع يوسف بخبر هذه الاستعدادات، بعث إلى روجر الصقلي بطلب لمدة بخلة وعهد بولاية قابس بوصفه نائباً للملك النصراني.

كانت الفرصة ذهبية واستغلها روجر الثاني على أمل أن يضم قابس لتكون

---

(94) نفس المصدر/106 .

جوهره جديدة في تاجه، خصوصاً، وأن هذه العملية لا تكلفه شيئاً. وهكذا سارع إلى إرسال العهد والخلعة معاً، الخلعة التي لبسها يوسف باعتزاز والعهد الذي قرأه على الناس ليعلموا أنهم أصبحوا الآن من رعايا النصارى.

وأمام هذا التطور الذي فقد معه الحسن واحدة من أهم ولايات مملكته، لم يسعه إلا أن يجرد جيشاً ويوجهه الى قابس التي شدد الحصار عليها، وفي الوقت نفسه ثار سكان المدينة على يوسف لدخوله في طاعة الكفار، وسلموا المدينة إلى جيش المهديّة. وقد تحصن يوسف في قلعة القصر، فقاتلوه حتى استولى عليها جيش الحسن، وكل ذلك دون أن يحرك روجر الثاني ساكناً لنجدة عميله، ولما أخذوه أسيراً عذبوه ثم قتلوه.

وإثر ذلك تولى الأمر في قابس صاحب الحق الشرعي في ولايتها، معمر ابن رشيد. ولكن أخاً ليوسف، اسمه عيسى، أفلت مع ولده وقصد الى صقلية طلباً لحماية روجر الثاني، وقصوا عليه ما صنعه الحسن في قابس وصاحبها، يوسف، فغضب الملك لهذه الأعمال التي اعتبرها عدواناً على إحدى ولايات مملكة صقلية<sup>(95)</sup>.

وهذا الحدث يعتبر من الأسباب المباشرة التي حلت النورماندين على غزو المهديّة واحتلالها في السنة التالية (543 هـ.).

ولكن قبل أن نستعرض أخبار هذه الكوارث يجدر بنا أن نلقي نظرة على وضع صقلية الذي انقلب خلال فترة غير طويلة من ولاية إسلامية تابعة للمهديّة في عهد الفاطميين الى مملكة مسيحية تهدد شواطئ إفريقيا والمغرب الأوسط، قبل أن يستولي صاحبها على عدد من مدنها الهامة، وفي مقدمتها عاصمة البلاد، المهديّة.

---

(95) الكامل لابن الأثير 121-120/11 .

كانت صقلية من الأراضي التي احتفظ بها العبيديون لأنفسهم عندما سلم المعز لدين الله المغرب إلى بلكين بن زيري لدى رحيله إلى القاهرة .

وفي سنة 383 هـ ، ولّى العزيز بالله ( ابن معد ) ، صاحب مصر وإفريقية على جزيرة صقلية أبا الفتوح يوسف بن عبدالله . ولما أصيب يوسف بالفلج ، استناب ابنه جعفرأ في الإمارة ، وكان جعفر حسن السيرة ، مثل أبيه .

وفي سنة 405 خرج على جعفر أخوه علي الذي ساعده البربر والعبيد في ثورته ، ولما انتصر جعفر على أخيه قمع الثورة بكثير من العنف وقتل عدداً كبيراً من البربر الذين هرب كثير ممن بقى منهم على قيد الحياة إلى إفريقية . وفي مرحلة تالية أمر جعفر بنفي جميع البربر الذين كان يرى فيهم عنصراً خطيراً من جميع أطراف الجزيرة ، وأخذ في تطبيق سياسة تعتمد على العناصر المحلية ، وخصوصاً من المسيحيين . وهذه هي الخطوة الأولى في ضياع صقلية الإسلامية . فإن حملة التطهير التي قام بها جعفر كان من نتائجها ضعف الجيش الذي كان يتكون خصوصاً من البربر والعبيد واخلال صفوفه .

وكذلك شعر الصقليون المسيحيون الآن بأهميتهم وأخذوا يستهينون بالأمرء وقواد الجيش ، وانتهوا بالثورة على جعفر نفسه الذي حاصروه في قصره ( سنة 414 هـ ) . ولم ينج من عنفهم إلا بعد ما تدخل والده ، يوسف ، وهو في فراش مرضه .

وبناء على رغبة السكان . ولّى عليهم يوسف ابنه الآخر ، المعروف بالأكحل ، وهاجر هو وابنه جعفر . بثروة طائلة إلى مصر . وقد نجح الأكحل في إعادة الهدوء والنظام وبسط سلطانه على جميع أطراف الجزيرة كما خضعت له جميع قلاع المسلمين وحصونهم . ولكن النصارى كانوا يقومون بغارات متوالية للنهب والسلب في أراضي المسلمين . ولكن الأكحل إنما نجح ، خصوصاً بتطبيق سياسة تعتمد على التفرقة وإحداث الشقاق بين العناصر

الافريقية والسكان المحليين، وقد كان، مثل سلفه، يضطهد الافريقين وينكل  
٣٣٠

وفي سنة 427 هـ.، حضر وفد من الصقليين المسلمين إلى المعز بن باديس  
ليشكوه ما حل بهم وقالوا إنه لا خيار لديهم بين أن يكونوا تحت طاعته أو  
يسلموا الجزيرة إلى بلاد الروم.

وقد سّر معهم المعز جيشاً بقيادة ابنه عبدالله، حاصر الأكحل حتى تمكن  
منه الذين قاموا بهذا المسعى وقتلوه.

وعقب ذلك تحول الصقليون إلى جيش عبدالله بن 'المعز' ودخلوا معه في  
عدة معارك قتل فيها 800 من رجاله وانتهت بهزيمته وعودته بمن بقي معه إلى  
افريقية، في الوقت الذي ولّى فيه سكان الجزيرة على أنفسهم أخاً للأكحل  
يدعى الصمصام. وفي هذه الأثناء تفتت لجزيرة إلى ولايات وقلاع استقل  
بكل واحدة منها قائد أو زعيم.

وقد انفرد من بين هؤلاء القواد، علي بن نعمة المعروف بالحواس، بقصر  
يانة وجرجنت، وانفرد ابن الثمنة بمدنيتي سرقوسة وقصانيا، وقد تزوج بأخت  
الحواس التي كان يهينها، وقد أوشك ذات مرة أن يقتلها وهو في حالة  
سكر.

ولما التجأت إلى أخيها طلباً للحماية طلبها ابن الثمنة ورفض الحواس ردها  
إليه أعلن عليه الحرب وانتهت المعارك بهزيمة ابن الثمنة.

ولما رأى جيشه ممزقاً التجأ ابن الثمنة إلى مليطو التي كانت قد سقطت  
في يد الإفرنج منذ سنة 372 هـ.، وخاضعة لسلطة روجر الأول، فقصده  
وقال له: «أنا أملكك الجزيرة كلها»، فسار معه في شهر رجب سنة 444  
هـ.، فلم يجدوا في طريقهم مدافعاً لهم، واستولوا على كل ما مروا به من

القلع والحصون، وقد كان قصد ابن الثمنة الأول قصر يانة حيث اعتصم عدوه، ابن الخواس، وبعد معارك بين الطرفين انتهت بهزيمة ابن الخواس، رحل الإفرنج ورجع هو إلى قصر يانة.

وفي هذه المرحلة رأى العلماء والفقهاء والأعيان من السكان المسلمين أن مصير الجزيرة ميئوس منه، فأخذوا في الهجرة زرافات ووحدانا إلى افريقية.

ومرة أخرى حضرت جماعة من السكان إلى المعز بن باديس ليحيطوه علماً بالأحداث وليصوروا له وضع الجزيرة المتدهور مع مرور الأيام وانزلاقها تدريجياً إلى أيدي النصارى.

وجه المعز بن باديس أسطولاً من المهديّة إلى صقلية فصار الأسطول في اتجاه جزيرة قوصرة، وكان الوقت شتاءً، والبحر هائجاً، فغرقت معظم قطع الأسطول ولم ينج إلا القليل منها.

وبعد ذلك ترك المعز صقلية لمصيرها منشغلاً عنها بما دهمه من خطوب العرب الملاحين<sup>(96)</sup> وبذلك تجاوزت آثار هذه الهجرة المخربة افريقية والمغرب فكانت سبباً غير مباشر في سقوط جزيرة صقلية في يد النورماندين. وهذه نقطة فأت انتباه الباحثين المحدثين الذين عالجوا أحداث هذه الهجرة.

ولما ولي تميم بن المعز بن باديس، وجه أسطولاً إلى الجزيرة في محاولة يائسة لاسترجاعها، وضعه تحت قيادة ابنه أيوب وعلي، فنزل أيوب وجيشه المدينة بينما نزل علي جرجنت. وبعد وقت انتقل علي إلى جرجنت. ولكن فتنة وقعت في المدينة واضطر الاخوان إلى الرجوع إلى افريقية في سنة 461 هـ..، وفي طريق عودتهم صحبهم كثير من أعيان المسلمين في صقلية.

---

(96) استخلصنا هذا العرض التركيبي من رواية ابن الأثير في الكامل (193/10) ومن اقتباسات امامري من نهاية الأرب للنويري في المكتبة العربية الصقلية (ص 444).

وبذلك اسلمت صقلية نهائياً للنورماندين ولم يبق منها في يد المسلمين مؤقتاً سوى قصر يانة وجرجنت .

فأما جرجنت فقد حاصرها الافرنج وضيقوا عليها حتى أكل المسلمون الميئة، وقد استسلمت لهم في سنة 481 هـ .

وأما قصر يانة فقد قاومت بشجاعة نادرة ثلاث سنوات بعد هذا التاريخ ولم تسقط في يد النصارى إلا في سنة 484 هـ . ، وبسقوط هذه القلعة أصبح روجر الأول يسيطر على جميع أطراف الجزيرة مدناً وقلعاً . وقد جرد روجر الأول المسلمين من كل ما يملكونه ، فلم يترك لأحدهم ، حسب تعبير النويري « حتماً ولا دكاناً ولا طاحوناً ولا فرناً »<sup>(97)</sup> .

وبعد هذه الخلفية الضرورية لفهم التطورات التي انتهت بغزو عدد من مدن الشاطئ الافريقي تم باستيلاء أسطول روجر الثاني على المهديّة نفسها، نعود الآن لامسك خيط الأحداث حيث تركناه .

★ ★ ★

استغل روجر الثاني ظروف القحط والمجاعة الكبيرة التي اضطر الناس فيها إلى أكل لحم الآدميين، ورأى فيها عاملاً سياسياً إيجابياً سيساعده على فتح المهديّة بأقل ما يمكن من التكاليف، واتخذ ذريعة لهذا الغزو أحداث قابس التي شرحناها، فوجه اسطولاً ضخماً يتكون من نحو 300 سفينة حربية<sup>(98)</sup> ملأها بالرجال والذخيرة والسلاح ووضعه تحت قيادة جرجي (أو جرجير) بن

---

(97) إقتباسات من نهاية الأرب في المصدر المذكور، ص 448 .

(98) رواية ابن خلدون والتجاني . وأما ابن الأثير فيذكر أن عدد السفن كان نحو 250 سفينة .

ميخائيل<sup>(99)</sup> وسار الأسطول إلى جزيرة قوصرة<sup>(100)</sup> التي تقع بين صقلية والمهدية

وهناك وجد الأسطول الصقلي سفينة تابعة للمهدية، فأمر جرجي بإحضار رجالها إليه، وكان مع أحدهم قفص من الحمام، فسألهم عن شئون إفريقية وعما إذا كانوا قد أرسلوا رسائل مع حمامهم لينقلوا إلى المهدية أخبار تحرك أسطوله وغيرها، فأجابوه بالسلب وحلفوا أنهم لم يرسلوا منها شيئاً، فأمر صاحب الحمام أن يكتب بخطه :

« إننا لما وصلنا إلى جزيرة قوصرة وجدنا بها مراكب من صقلية فسألناهم عن الأسطول المخدول، فذكروا أنه أقبل إلى جزيرة القسطنطينية<sup>(101)</sup> ».

نجحت هذه الخدعة لأن الحسن بن علي سُرَّ كثيراً لهذه الأخبار التي توحى بأن الخطر قد ابتعد عنه، وقد كان جرجي ينوي تخدير المسؤولين ومفاجأة المهدية وقت السحر ليحيط بها ويستولي عليها قبل أن يستيقظ سكانها، ولكن

(99) ورد في العبر بتحريف: مناسل . وقد عرف التجاني بجرجير بالعبارة التالية :

« كان قد هاجر من المشرق إلى تميم [ بن المعز ] وكان قد عرف لسان العرب وبرع في الحساب، وتهدب بالشام وبإنطاكية وغيرها، فحكمه تميم في دخله وخرجه وجعل مصارف الأموال لنظرة، فصارت أموال المسلمين كلها في يده وأيدي أقاربه . فلما مات تميم خاف هذا النصراني من يحيى ( ابن تميم ) . فخاطب رجار صاحب صقلية وأعلمه أنه يجب الانتقال إليه، فوجه رجار إليه قطعة [ بحرية ] أظهرت أنها وصلت في رسالة، فخرج هذا النصراني وأقاربه يوم جمعة عند اجتماع الناس للصلاة وتزويوا بزي البحريين فقلعوا إليها وتم لهم أمرهم، فلم يفتن الناس لهم إلا وقد أقبلوا . ولما وصلوا إلى صقلية حكمهم عبدالرحمن النصراني صاحب أشغالها في الجبايات، فنصحوا وأظهروا . و [ لما ] احتاج رجار أن يوجه رسلاً إلى مصر، أشار عليه عبدالرحمن بجرجير هذا فأرسله فنصح وأقبل بذخائر ملوكية أحفظته عند رجار » - الرحلة، ص 333 .

(100) الكامل لابن الأثير 126/11 .

(101) أنظر أعلاه، ص 153 هامش 42 .

العناية الالهية شاءت أن تخفف من هول هذا الحدث، فهبت رياح معاكسة للأسطول الغازي فلم تكن سفنه تسير إلا بالتجديف فكان تأخير معتبر عن الموعد المحدد لوصوله إلى المهدف، حيث وصل إلى مياه المهديّة في مطلع النهار، يوم 2 من شهر صفر 543 هجرية.

ولما أدرك جرجي أن خدعته ومناوراتها باءت بالفشل، بعث إلى الحسن ابن علي ليقول له إننا حضر بهذا الأسطول مطالباً بئار محمد بن رشيد، صاحب قابس، وبإعادته إلى هذه المدينة<sup>(102)</sup> «وأما أنت فيبيننا وبينك عهد ومواثيق إلى مدة، ونريد عسكرياً يكون معنا»<sup>(103)</sup>. وعقب تلقي هذه الرسالة جمع الحسن أعيان المدينة وفقهاءها لمشاورتهم في الخطة التي يسلكها، فكان رأيهم أن الشرف يفرض القتال، ولا سيما وأن المدينة حصينة.

ولكن الحسن رد عليهم بأنه لا يوجد في المهديّة من الأقوات ما يكفي السكان شهراً واحداً، وأنه إذا ضرب العدو حصاراً عليها براً وبحراً، ومنع وصول المؤن إليها، فسوف تؤخذ المدينة حتّى.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى رأى الحسن أن من المستحيل أن يبعث بجيشه لمساعدة الكفار للاستيلاء على قابس. وإذا امتنع عن تقديم هذه المساعدة، فسوف يعتبر صاحب صقلية هذا الامتناع نقضاً للاتفاقات التي تربط بين المملكتين. وقال الحسن للجمع إنه لا طاقة له بأسطول روجر الثاني، وأن الرأي «أن نخرج بالأهالي والولد ونترك البلد» مضيفاً: «إن سلامة المسلمين من القتل والأسر، خير من الملك والقصر».

(102) كذا في الكامل. وفي رحلة التجاني: «فأرسل إلى الحسن يخادعه ويذكر أنه وصل لطلب عسكر يستعين به على أهل قابس ليوليها [محمد] بن رشيد» ص 340. والاختلاف بين الروایتين لا يمس المعنى في مجمله.

(103) الكامل لابن الأثير 126/11، وانظر كذلك البيان 312/1 والعبر 162/6.

وكذلك أمر آخر سلاطين بني زيري بالجللاء والرحيل عن عاصمته في الحال، فانتقل هو بما خف حمله، وفي إثره وجوه البلد وأعيانها بالأهل والولد<sup>(104)</sup>. وأما الأسطول الغازي، فقد منعت الرياح من الاقتراب من المهديّة حتى مضى ثلثا النهار<sup>(105)</sup>.

ولما دخل النصارى إلى المهديّة، اتجه جرجير إلى قصر الحسن بن علي الذي يعرف مداخله وأجنحته جيداً، لأنه كان يعمل فيه، فوجد كل شيء فيه على حاله، بما في ذلك خزائنه وجناح محظياته اللائي تركهن السلطان الهارب لمصيرهن<sup>(106)</sup>.

نهب الجيش الغازي مدينة الإسلام الأولى في إفريقية مدة ساعتين، ثم نودي بالأمان، فخرج من كان متخفياً بها من المسلمين. ومنذ تلك اللحظة خرجت المهديّة من سلك عواصم الإسلام، وأصبحت قاعدة بحرية ثانوية الأهمية يرفرف عليها علم الصليب. وستستمر على هذه الحالة حتى ينقذها عبدالمؤمن الموحد وتستنأف مسيرتها التاريخية، ليس كعاصمة، بل كمدينة عادية حرة يرفرف على أسوارها علم الموحيدين.

وفي الغد أرسل جرجير إلى العرب الذين يقيمون قرب المهديّة، فدخلوا إليه وأعطاهم أموالاً جزيلة، ثم أرسل جماعات من جند المهديّة الذين تخلفوا عن موكب الهاربين، ومعهم أمان لأهل المدينة الذين رحلوا عنها، كما أرسل إليهم الدواب ليحملوا على ظهورها النساء والأطفال، وكانوا قد أشرفوا على

---

(104) كان عدد من ملك إفريقية من بني زيري بن مناد لدى خروج الحسن بن علي من المهديّة تسعة ملوك، ومدة ملكهم نحو قرنين.

(105) كذا في الكامل. وفي رحلة التنجاني: «وبقي إلى الساعة السابعة من حين وصوله، ثم لانت له الرياح فدخل ووجد المهديّة خالية».

(106) الكامل لابن الأثير 126/11-127. وفي البيان: «وتعرف هذه الكارثة بكائنة يوم الاثنين».

الهلاك من شدة العطش والجوع، فلم يمض أسبوع حتى رجع أكثر الناس إلى المهديّة التي استأنفت نشاطها وحركتها اليومية العادية وكأن شيئاً لم يقع<sup>(107)</sup>.

وأما السلطان السابق، الحسن بن علي، فقد اتجه مع ابنائه الاثني عشر، غير الاناث، ومعه خدمه وحاشيته إلى محرز بن زياد، بالمعلقة، وكان الحسن قد أحسن إليه أيام ملكه، وقد وصله بالمال الكثير، فاستقبله محرز استقبالاً جيلاً، فأقام عنده شهوراً وهو كاره لهذه الإقامة. ثم أراد أن ينتقل إلى مصر، فاشترى لهذه الغاية مركباً وجهزه. فلما بلغ خبر هذا السفر المزمع قائد أسطول صقلية، جهز سفناً حربية لتعترض طريقه وتستولي على سفينته. وقد علم الحسن بخبر هذا التدبير في الوقت المناسب وتخلّى عن مشروعه.

ثم عزم على المسير إلى عبدالمؤمن الكومي بالمغرب، ولكنه أدرك أنه لا بد وأن يمر بمملكة بجاية في طريقه إليه، فبعث ثلاثة من أبنائه، يحيى وقيماً وعلياً إلى يحيى بن العزيز ببجاية، وهو من أولاد عمومته من بني حاد، يستأذنه في الوصول إليه، فأذن له يحيى، ولكنه لم يرد استقباله في بجاية، فسيره إلى مدينة الجزائر حيث رتب إقامته هو وأولاده ووكّل لهم من يراقبهم، واستمر الحسن في الإقامة في الجزائر حتى استولى عبدالمؤمن على بجاية سنة 547 هـ.

وفي هذه الأثناء، نظم جرجير احتلال المهديّة ثم سار أسطولاً إلى مدينة سفاقس وآخر إلى مدينة سوسة، ففيما يتعلق بسوسة، فإن واليها، الأمير علي ابن الحسن قد غادرها ولحق بأبيه بمجرد ما بلغه خبر سقوط المهديّة، وخرج السكان معه، ولذلك، فقد سقطت في يد الإفرنج بدون قتال في 12 صفر 543 هـ.

وأما سفاقس فقد حضر إليها كثير من العرب وتحصنوا بها مع سكانها، ولما سار إليهم الإفرنج خرج إليهم أهل المدينة للقتال، وفي أثناء المعركة

(107) قارن الكامل والبيان 312/1 ورحلة التجاني، ص 341.

تظاهروا بالهزيمة فتعقبهم الناس ولم يدركوا ما تنطوي عليه خطتهم من الحيلة . ولما ابتعدوا عن المدينة كرّ عليهم العدو وقطع عليهم طريق الرجعة . وبعد قتال شديد استولوا على المدينة ( في 23 صفر من السنة ) وأسروا من نجا من الموت من الرجال وسبوا النساء (108) .

وبعدما استقر الأمر للافرنج في المدينة نودي بالأمان، وعاد الهاربون من الرجال وافتكوا حرمهم وأولادهم من الأسر، وأخذهم النصارى بمثل ما أخذوا به أهل المهديّة من اللين والرفق (109)

وهكذا، فبعد سقوط المهديّة التي أصبحت تابعة لصقليّة - صقلية التي كانت ولاية تابعة للمهديّة منذ أقل من نصف قرن كان كل شيء يدل على أن النورماندين سوف يكتسحون شواطئ افريقية ويستعمرون هذه البلاد بنفس السهولة التي أخضعوا بها عاصمة افريقية . ولكن طاقة التوسع الصقلي كانت قد بلغت حدها الأقصى من التوتر منذ هذه المرحلة . والعائق الأول الذي واجهه الصقليون في طريق زحفهم كان ينتظرهم عند أسوار قلعة صغيرة محصنة - قلعة اقليية . بعد قتال شديد بين أهلها وبين الغزاة الذين تركوا عدداً كبيراً من القتلى في الميدان، تراجعوا منهزمين الى المهديّة .

وهذا الانتصار الصغير لا بدّ وأن تكون في تلك الساعات العصيبة من تاريخ هذه البلاد قيمة رمزية في نظر المسلمين ودلالة بأن أسلحة النصارى ليست غير قابلة للانكسار .

ومع ذلك، فإن المهديّة قدر لها أن تبقى في أيديهم نيّفاً وعشر سنوات، قبل أن يحررها عبد المؤمن الذي قصد إليها (سنة 554 هـ) على رأس جيش يتكون من مائة ألف مقاتل، بالإضافة إلى أسطول ضخم .

(108) الكامل لابن الأثير 128/11 .

(109) نفس المصدر

وقد شاءت الأقدار أن يكون تحرير المهديّة بحضور ذلك الملك نفسه الذي هرب منها لأنه لم يكن جديراً بشرف الدفاع عنها .

فبعدما استولى عبدالمؤمن على تونس وأخذها من بني خراسان نزل إلى المهديّة محاذياً للأسطول الموحدى ، فوصل إليها في 8 رجب<sup>(110)</sup> من السنة . ولدى اقترابه منها جلا لأفرنج عن زويلة لكي يركزوا كل وسائلهم الدفاعية وراء أسوار المهديّة . وبعدما دخل عبدالمؤمن زويلة بغير قتال وجه جيشه ومن انضم إليه من العرب والسكان لمنازلة المهديّة . وقد استمرت هجائهم أربعة أيام دون أن يحدثوا أثراً في أسوارها المنيعّة ، وذلك في الوقت الذي أحاط بها فيه الأسطول من البحر إحاطة السوار بالمعصم .

وبعد ذلك ، ركب عبدالمؤمن سفينة حربية وقام بجولة لاستكشاف تحصينات المدينة من جهة البحر ، فهاله ما رأى من مناعتها ، وأدرك أنه لا يمكن أخذها بالقتال براً ولا بحراً ، إذا لم تقتحم اقتحاماً . وفي غمرة الدهشة والانفعال ، لم يملك عبدالمؤمن نفسه عن أن يسأل رفيقه في هذه الجوه ، السلطان الزيرى السابق : « كيف نزلت عن هذا الحصن ! ... » .

ولما عاد عبد المؤمن من هذه الجولة أمر بجمع الغلات وترك القتال ، فلم يبق وقت حتى تراكمت أكوام القمح والشعير كالجبال .

وبينا كان حصار المهديّة قائماً على قدم وساق ، تمكن جيش الموحدين من تحرير سفاقس وطرابلس وأخضع جبال نفوسة وقصور افريقية وما والاها بالسيف ، كما فتح قابس ، وبادرت مدينة قفصة بإعلان الطاعة للموحدين .

وفي شهر شعبان من السنة وصل أسطول صقلية الذي كان يتكون من 150

---

(110) كذا في الكامل (242-243/11) . وأما التجاني فيذكر نقلاً عن ابن شداد أن عبدالمؤمن وصل إلى المهديّة يوم الأربعاء 12 رجب (الرحلة ص 347) .

قطعة حربية عدا الطرادات إلى مياه المهديّة قادماً إليها من جزيرة يابسة التي غزاها ونهبها وسبى أهلها .

فلما قاربوا المهديّة حطوا أشرعتهم استعداداً للدخول إلى مينائها، فخرج إليهم أسطول عبدالمؤمن الذي لم يكونوا يتوقعون وجوده في هذه المياه، فهال النصراري عدده ودخل الرعب إلى قلوبهم . وفي المعركة التي تلت هذا اللقاء، انهزم الأسطول الصقلي واستولى المسلمون على سبع من قطعه<sup>(111)</sup> .

وبعد هذه المعركة تبخر أمل المحاصرين من سكان المهديّة من النصراري ويثسوا من كل نجدة من ملك صقلية . ومع ذلك، فقد صبروا وتحملوا الحصار مدة ستة أشهر أخرى<sup>(112)</sup> حتى شهر ذي الحجة حين نزل فرسان الافرنج على عبدالمؤمن وسألوه الأمان لمن في المدينة على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها ويعودوا إلى بلادهم، وكانوا قد استفدوا كل ما كان لديهم من الأقوات، فعرض عليهم عبدالمؤمن الاسلام، فلم يجيبوه وظلوا يترددون عليه أياماً حتى أمتهم وأعطاهم سفناً وركبوا البحر إلى صقلية، ودخل عبدالمؤمن المهديّة بكرة عاشوراء، وأقام بالمهديّة عشرين يوماً بعد تحريرها فرتب أمورها ورمم ما يحتاج إلى الترميم من أسوارها، ونقل إليها الذخائر والأقوات والرجال والعدد، وأقطع الحسن بن علي، سلطان المهديّة السابق إقطاعاً وأعطاه دوراً نفيسة لسكناه، وصنع مثل ذلك لأولاده . وكذلك أصبح الحكام الزبريون السابقون رعايا دولة جديدة بعدما كانوا هم وأجدادهم أسياد البلاد مدة نحو قرنين من الزمن .

★ ★ ★

(111)الكامل لابن الأثير 245/11 .

(112)رواية ابن الأثير . وأما المراكشي فقد ذكر في المعجب (ص228-229) أن عبدالمؤمن أقام على حصار المهديّة سبعة أشهر إلا أياماً . ونحن سواء اعتبرنا رواية التجاني القائلة بأن عبدالمؤمن وصل إلى المهديّة يوم 12 رجب، أو ما قاله ابن الأثير من أنه قدم إليها م 18 من الشهر، فإن مدة الحصار في الحقيقة دامت ستة أشهر إلا أياماً .

في الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الأحداث الدامية التي تمثل امتداداً للحروب الصليبية التي كانت المواجهة فيها تامة بين الإسلام والنصرانية وانقطعت فيه كل الجسور بين الغرب والشرق، كان يعيش في صقلية ويعمل تحت رعاية روجر الثاني عالم من أعظم علماء الإسلام في جميع العصور والأزمنة، ونعني بذلك الشريف الإدريسي الذي ينحدر من سلالة الأدارسة، ملوك المغرب والأندلس. فقد دفعت بهذا الرجل أمواج الحظ العاثر إلى شواطئ صقلية بعدما أفنيت سلالته أو كادت، وهناك وجد الأمن والهدوء المنشود والرعاية التي سمحت له بإنجاز عمله العظيم. لقد انتهت أهوال تلك الحروب، وتوقفت قعقعة الأسلحة وانهارت العروش وسقطت التيجان من رؤوس الذين كانوا يديرونها منذ زمن طويل، ولكن عمل الإدريسي لم يؤثر فيه مرور الأيام والسنين. ووصفه الحي لمدينة المهدية في الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الحروب والذي سجل بعد سقوط هذه المدينة مباشرة، وصف لا مثيل له في الأدب الجغرافي العربي، وهو يكاد يكون وصف شاهد عيان<sup>(113)</sup> ونحن نقتبس الصفحة التي كتبت في منتصف العقد الرابع من القرن السادس الهجري من كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» لأنها تصور قمة ما وصلت إليه المهدية من التقدم في العهد الذي كانت فيه عاصمة بني زيري، وهو آخر عهود عظمتها :

« لم تزل (المهدية) ذات حط وإقلاع للسفن الحجازية القاصدة إليها من بلاد المشرق والمغرب والأندلس وبلاد الروم وغيرها من البلاد، وإليها تجلب البضائع الكثيرة بقناطير الأموال على مرّ الأيام، وقد قل ذلك في وقتنا هذا. ومدينة المهدية كانت مرسى وفرصة للقيروان، استحدثها المهدي، عبيدالله، وسماها بهذا الاسم، وهي في نحر البحر. ومدينة المهدية من مدينة القيروان على

(113) أنظر وصف الجغرافيين العرب للمهدية في مختلف العصور في كتابنا: المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي.

مرحلتين، وكانت فيما سلف المسافرين إليها كثير، والبضائع إليها مجلوبة من سائر البلاد والأقطار والأمتعة، والمتاجر بها نافقة، وفيها بائعة والهَمَم على أهلها موقوفة، وإليهم راجعة، ولها حسن مبان لطيفة، نظيفة المباني والمتنزهات، وديارها حسنة وحماماتها جليلة، وبها خانات كثيرة، وهي في ذاتها حسنة الداخل والخارج، بهية المنظر، وأهلها حسان الوجوه نظاف الثياب. ويعمل بها من الثياب الحسنة الدقيقة الجيدة المنسوبة إليها، ما يحمل ويتجهز به التجار في جميع الآفاق في كل وقت وحين، ما ليس يقدر على عمل مثله في غيرها من البلاد والأمصار لجودته وحسنه.

وشرب أهلها من المواجل، وآبارها غير عذبة (الماء)، ويحيط بالمهدية سور حسن مبني بالحجارة، وعليها بابان من حديد لفق بعضه على بعض غير خشب، وليس يدرى في معمور الأرض مثلها صنعة ووثاقة، وهما من عجائبها الموصوفة، وليس لها جنات ولا بساتين ولا نخل، وإنما يجلب إليها شيء من الفواكه من المنستير، وبينها في البحر 30 ميلاً، والمنستير قصور ثلاثة يسكنها قوم متعبدون، والأعراب لا تضرهم في شيء.

وهذا المكان، أعني المنستير، يدفن أهل المهدية موتاهم، يحملونهم في الزوارق إليها، فيدفنونهم بها ثم يعودون إلى بلادهم، وليس بالمهدية جبانة.

والمهدية في حين تأليف هذا الكتاب، مدينتان: إحداها مدينة المهدية، والثانية مدينة زويلة. ومدينة المهدية يسكنها السلطان وجنده، وبها قصره الحسن البناء والعجيب الإتيقان والارتقاء، وكان بها قبل أن يفتحها الملك المعظم، رجار، في سنة 543 هجرية طيقان الذهب، وكانت مما يفتخر به ملوكها.

وافتتحت المهدية وسلطانها يومئذ الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز ابن باديس بن المنصور بن بلقين بن زيري الصنهاجي.

ومدينة زويلة الأسواق الجميلة والمباني الحسنة والشوارع الواسعة، والأزقة الفسيحة، وأهلها تجار مياسير نبلاء ذوو أذهان ثاقبة، وأفهام ذكية، وجل لباسهم البياض، ولهم همم في أنفسهم وملابسهم وفيهم الجبال، ولهم معرفة رائدة في التجارات. وطريقتهم جيدة في المعاملات.

ولهذه المدينة أسوار عالية حصينة جداً تحيط بها من سائر جهاتها ونواحيها البرية والبحرية، وجميعها مبني بالحجر، وفيها فنادق كثيرة وحمامات جمة، ولهذه المدينة من جهة البرّ خندق كبير تستقر به مياه السماء، وبخارجها من جهة غربها حى كان قبل دخول العرب أرض إفريقية وإفسادهم لها فيه جنات وبساتين بسائر الثمار العجيبة والفواكه الطيبة، ولم يبق الآن منها بهذا الحمى المذكور شيء.

وعلى مقربة من هذه المدينة قرى كثيرة [هي] منازل وقصور يسكنها قوم بوادٍ لهم زروع كثيرة ومواش وأغنام وأبقار وإصابات كثيرة في القمح والشعير، وبها زيتون كثير يعتصر منه زيت طيب عجيب يعم سائر بلاد إفريقية ويتجهز به إلى سائر بلاد المشرق.

وبين هاتين المدينتين، أعني المهديّة وزويلة، فضاء كبير يسمى الرملة، مقداره أشف من رمية سهم.

والمهديّة قاعدة بلاد إفريقية وقطب مملكتها « (114) ».

---

(1) المغرب، وأرض السودان، تحقيق دوزي ودو خوية، ص 108-110.

## سياسة الناصر بن علناس تجاه

### بلاط المهديّة

يمكننا تقسيم عهد بني حماد لغرض هذا البحث الى ثلاث فترات أساسية متميزة:

شهدت الفترة التي تمتد بين سنتي 398-441 هـ (1007-1050 م) (وهذا التاريخ الأخير هو تاريخ تأسيس القلعة)، مولد قوة بني حماد ونموها في إطار المقومات المميزة للمغرب الأوسط وفي ظل تقاليد ومنشآت الرعيّل الأول من ملوك صنهاجة. والشخصية التي تطغى على الأحداث العسكرية والسياسية وتوجهها خلال هذه الفترة، هي شخصية حماد بن بلكين بن زيري، بن مناد. وقد كانت أهم الخصائص المميزة للاتجاه السياسي في المغرب الأوسط في هذه الفترة، هي العمل لتدعيم الدولة الجديدة، بحيث يصبح الانفصال عن القيروان شاملاً ونهائياً. وعلى الرغم من إقدام حماد على خلع طاعة العبيدين وإعلان الدعوة (للعباسيين) فإن مشكلة العلاقات الخارجية لم تطرح نفسها بوضوح في هذه الفترة. وهذا الإجراء نفسه الذي قد يبدو خطوة في طريق اعتماد سياسة خارجية مستقلة، إنما أوحى به في الحقيقة اعتبارات أيديولوجية تتصل بالدرجة الأولى بالسياسة الداخلية.

وفي غضون الفترة الثانية التي تمتد بين سنتي 441-481 هـ (1049-1050 م) شهدت دولة بني حماد استكمال نموها السياسي، كما شهد المغرب الأوسط ازدهاراً ثقافياً وعمرانياً لم يعرف له مثيل في تاريخه.

وفي هذه الفترة ظهرت القلعة التي خلفت القيروان على المسرح الدولي، عقب غزو بني هلال لأفريقية. وقد كان من نتائج هذا الغزو تدفق رؤوس الأموال والخبرات التقنية، والكفاءات العلمية مع سيل المهاجرين إلى القلعة وغيرها من مدن المغرب الأوسط، هرباً من عبث العربان ونهبهم لأفريقية، وبذلك اتسعت موارد المملكة المادية وامتدت آفاق النشاط العلمي والأدبي فيها، ووجد الخلق والإبداع الفني في قصورها ومساجدها الدعامة الضرورية. ولكن هذه أيضاً هي الفترة التي واجهت فيها المملكة مشكلة حفر العربان واضطرت إلى بناء عاصمة جديدة (بجاية) في سنة 457-458 هـ (1064-1065 م) للاستعاضة بها عن القلعة التي أصبحت مهددة بالاختناق الاقتصادي. وهذه الفترة هي التي تهمننا في هذا البحث.

وأما الفترة الثالثة التي تمتد بين 481-558 هـ (1088-1163 م)، فقد شهدت تقلص نفوذ بني حماد السياسي تدريجياً، وأما الحضارة التي أقاموا دعائمها في القلعة، فستفتح لها بجاية أبوابها وتحميها من حشود بني هلال المتوحشة بجبالها وتغذيها بعناصر جديدة نشيطة من البربر وغيرهم.

\* \* \*

حينما تولى الناصر بن علناس الحكم في القلعة، في سنة 454 هـ (1062 م)، كان سلفه (وضحيته) بلكين، بن محمد، بن حماد، قد مهد السهل والوعر ودوخ المغرب الأقصى كله واحتل مدينة فاس وسحق قوات زناتة وطرد جيوش يوسف بن تاشفين من سجلماسة ودفع بها في اتجاه الصحراء. ولكن اتساع رقعة الأمبراطورية الحمادية بهذه الصورة، إنما كان نتيجة لتوسع

عسكري بشأن فتوحات كبرى في المغرب الأقصى ولم تكن تدعمه إدارة منظمة ولا يقوم على عناصر اثنوغرافية منسجمة<sup>(1)</sup> ولذلك، فإن حدود بني حماد في الجنوب والجنوب الغربي، سوف لا تستطيع مقاومة ضغط الملمثين، على الرغم من أن سياستهم التوسعية كانت تتجه الى الأندلس، أكثر مما تتجه الى الشرق. وقد كان هذا من العوامل الأساسية التي قللت من أسباب الاصطدام بين بني حماد والمرابطين. والعامل الآخر المهم أيضاً، هو تقلص نفوذ زناتة الذين دفع بهم المعز بن باديس في أواخر حياته الى الصحراء في الشرق، وشتت الملمثون شملهم وقضوا على دويلاتهم في الغرب، وبذلك توزعت عناصر هذه القبيلة الخطيرة الشأن واندجت في مختلف التيارات السياسية السائدة في المغرب. بل إن فلول زناتة التي بقي لها شيء من التماسك ستجد في جوار أحفاد حماد الصنهاجيين، أعداء القبيلة التقليدية، شيئاً من الراحة والاستئناس. وقد وجد الناصر بن علناس في منح بني وامانو الذين يعترفون بسلطانه نوعاً من الاستقلال الذاتي<sup>(2)</sup>، ضماناً مزدوجاً، من حيث ان هذه الامارة تشكل حاجزاً بين مملكته وبين المرابطين على الحدود الغربية، من جهة ومن حيث ان الاعتراف بوجود أدبي لأحفاد زيري بن عطية، عامل من شأنه أن يكسر شوكة هذه القبيلة التي طالما كانت مثاراً للقلق في المغرب. وقد انتهى الأمر بالناصر انه تزوج إحدى بنات ماخوخ، زعيم هذه القبيلة، كما سيفعل ابنه، المنصور بعده.

وكذلك يمكن القول، بأن الوضع على الحدود الغربية يتسم بما يسمى في التعبير الحديث بتوازن القوى، وهو وضع مرض لبني حماد، من حيث انه يؤمن مؤخره بمملكتهم، ويسمح لهم بتوجيه اهتمامهم السياسي كلية

(1) قارن أعمال الأعلام، ص 88، والعبر 172/6 - 173.

(2) كان بنو وامانو من أشد بطون زناتة شوكة، وكانوا يحتلون الأراضي التي تمتد بين أسفل الشلف حتى قرب وهران. راجع بشأن هذه المصاهرة، العبر، 174/6.

لمتابعة التطورات الخطيرة التي تجري على حدودهم الشرقية، في افريقية.

ولكن ما هو الوضع في افريقية؟

كانت تونس منذ أواخر عهد المعز بن باديس مسرحاً لظاهرة لم يعرف العالم لها مثيلاً منذ انقضاء البرابرة (القوط والوندال الخ.) على الأمبراطورية الرومانية في الغرب وتقويض دعائمها، خلال الفترة بين القرن الثالث والقرن السادس الميلادي. وهذه الظاهرة تتمثل في غزو قوة همجية من القبائل التي نبذها العالم العربي في الشرق منذ زمن بعيد وأبعدها الفاطميون الى مصر العليا (الصعيد)، بسبب الخطر الذي كانت تشكله على الأمن العام، وخصوصاً على طرق الحجاج.

وهذه القوة تتكون من عدد من القبائل (من أهمها بنو هلال وبنو سليم) التي أطلقها الخليفة الفاطمي، صاحب مصر، بقصد تخريب شمال أفريقية والقضاء على معالم الحضارة التي أقامها فيها بنو زيري، للانتقام منهم بسبب تحول المغرب عن دعوة الشيعة وعودته الى مذهب أهل السنة.

فبعد أن تأزم الموقف بين القاهرة والقبروان، نتيجة لانفجار ثورة شعبية ضد الفاطميين الذين فرضوا عقيدتهم في افريقية، أعلن المعز طاعة العباسيين في عهد القائم بأمر الله، وأمر بقطع الخطبة للعبيديين ولعنهم في سنة 440 هـ (3).

---

(3) اختلف المؤرخون كثيراً بشأن تحديد تاريخ خلع المعز طاعة الفاطميين. فقد ذكر ابن الأثير وابن خلكان أن المقاطعة وقعت في سنة 435 هـ. بينما يحدد ابن خلدون تاريخ هذا الحادث في سنة 437. وأما صاحب النجوم الزاهرة، فيذكر القطيعة دون تحديد تاريخ وقوعها. ولكن رواية ابن عذارى (397/1 و399 و343) تلقى بعض الضوء على تطورات القضية. فقد أعلن المعز، حسب رواية هذا المؤلف، طاعة العباسيين في سنة 433 (وفي رواية التوبري=

ولما أحكم اليازوري (فلاح من أهل الشام استوزره المستنصر) خيوط مؤامرة الانتقام، بعث بجشود العربان أفواجا متوالية كأسراب الجراد ومضت تخرب المدن وتفسد الزرع وتسي وتقتل السكان حتى وصلت الى مكان يقع على مسيرة ثلاثة أيام من القيروان حيث هزمت جيوش المعز في معركة كانت نقطة تحول في تاريخ صنهاجة التي استرخت للنعم والرفاهية وفقدت روح النضال والحرب.

وبهذه الهزيمة انفتح الطريق أمام العربان لنهب القيروان والقضاء على العمارة العظيمة فيها « في ساعة واحدة »، حسب تعبير ابن عذارى<sup>(4)</sup> واضطر المعز الذي رأى مملكته تتحول إلى صحراء، الى الاعتصام بالمهدية في سنة 449 هـ. والاحتفاء بأسوارها المنيعه.

\* \* \*

وأما بنو حماد، فقد استقبلوا الأحداث التي يتخبط فيها بنو عموماتهم في إفريقية بشعور الارتياح، وقد استغل بلكين تلك الظروف التي أمن فيها جانب المعز لبسط سيطرته على المغرب، كما رأينا على حساب زناتة والملمثين. بل إن هذا الشعور سيتبلور الى التشفي والنكاية خصوصاً في عهد الناصر بن علناس، فإن بني حماد لم يكتفوا بالوقوف موقف الحياد في هذا الصراع

---

= سنة 435). ولكنه لم يأمر بقطع الخطبة للعبيدين ولعنهم على المنابر، إلا في سنة 440، وبعبارة أخرى، فقد ظل الموقف مائعاً قرابة سبع سنوات دون أن يصدر رد فعل عن الفاطميين ضد هذا التحول، إذ كانوا يرون، بدون شك، في احتفاظ الزيريين بأعلامهم وإستمرار الدعوة لهم على المنابر وضعاً يحفظ المظاهر، على الأقل. ولكن قرار المعز بإحراق بنودهم ولعنهم في خطبة الجمعة وتبديل عملتهم بالدينار المسمى «التجاري»، كان موقفاً لا رجعة منه ولذلك قرر سادة القاهرة ان الوقت قد حان لتسديد الضربة القاصمة.

(4) البيان 321/1. راجع في الصفحة التالية من نفس المصدر بشأن بعض أعمال الوحشية التي كان يرتكبها العربان، نقلاً عن شاهد عيان.

الأسطوري بين قوى الظلام الهدامة وقوة الحضارة التي أقامها أجدادهم، بل سارعوا الى التحالف مع بعض عناصر العربان، على أمل التعجيل بسقوط الدولة الزيرية في افريقية.

وبعدما وجد سادة المهديّة أنفسهم رهينة في يد أمراء العرب واضطروا الى التحالف مع رياح وزغبة (بل وإلى مصاهرتهم أيضاً) طلباً لحمايتهم، تعاقد سادة القلعة مع الأتبيج أعداء زغبة ورياح، ورحبوا بهم في مملكتهم وتخلوا لهم عن الأرياف لينهبوا فيها ويسطوا كما شاءوا. ولما طردت رياح زغبة من افريقية وسارع هؤلاء الى وضع أنفسهم في خدمة القلعة، استقبلهم بنو حماد بنفس الكرم والسخاء، حيث كانوا يرون فيهم حشوداً من الجنود المرتزقة لتوجيهها، متى شاءوا، ضد أعدائهم الذين يضمرون ضغائن وأحقاداً متوارثة لهم في افريقية<sup>(5)</sup>. وهذه الغلطة في التقدير سيدفع الناصر بن علناس ثمنها غالياً، حيث كان أشبه بمروض الثعابين الذي لا يلبث أن يجد عنقه محاطاً بالأفعى التي يعتقد انها لا تزال في قبضته. وستكون الضحية الأولى لهذه السياسة المخطئة، هي القلعة التي قطع العربان عنها شرايين الحياة الاقتصادية واضطروا بني حماد الى التخلي عنها والاستعاضة عنها ببجاية.

ومع ذلك فإن من الخطأ الاعتقاد بأن مخالفة عناصر من الهلاليين كانت نتائجها كلها سلبية لبني حماد في المرحلة الأولى. على العكس، فإن هذه السياسة قد أتت ببعض الثمار وكانت إيجابية من حيث انها سهلت امتداد سلطانهم الى المشرق، حيث أخذ نفوذهم يملأ تدريجياً بعض الفراغ الذي تركه انحسار سلطان الزيريين، حتى أصبحت صفاقس وقسطنطية، بل تونس نفسها فيما بعد، تدين بالولاء لبني حماد. ثم إن زحف العربان على المغرب الأوسط، لم يكن له ذلك الطابع الفجائي والعارم الذي شهدته افريقية، لأن هجرتهم

---

(5) قارن الكامل، 30/10 والنوبري، ص 336 .

كانت في المرحلة الأولى محصورة في المناطق الجنوبية الشرقية، وبالتالي، لم يكن هناك مبرر للتخوف من آثارها على التل الذي كان على كل حال، في وضع يسمح لنشأته ومدنه ومرافقه الاجتماعية، بأن تستوعب عناصر العربان ليندمجوا فيها، كما اندمجت فيها عناصر من سكان حواضر افريقية من الأعيان والعلماء والفنانين الخ. وباختصار، فقد كان الناصر بن علناس يمثل أكبر قوة، بل القوة الوحيدة في المغرب كله<sup>(6)</sup>، وقد كان مما يتفق مع المنطق ومعطيات التحليل المتعمق أن يطمح الى أن يتمكن، متى تمت له السيطرة على افريقية، من إخضاع هذا العنصر المضطرب، كما أخضع زناته، بل ومن إقراره وتمدينه. ولكن مثل هذا الحساب، يتجاهل بطبيعة الحال ردود فعل الزيريين ويستخف بذكاء رجل مثل تميم بن المعز وحنكته السياسية وممارسته الطويلة لـ «شئون العرب».

ومهما يكن من شيء، فقد كان من المألوف - إن لم نقل من الطبيعي - إزاء تأرجح ميزان القوة بين الملوك بهذا الشكل، أن يرثي الناصر لحالة ابن عمه ويفكر، أو يتحدث في مجالسه الخاصة، سواء أكان جاداً أو هازلاً، عن نيته في محاصرة المهديّة والقضاء على آخر ملوك بني زيري فيها.

وسواء صدرت هذه التهديدات فعلاً عن الناصر أم لم تصدر عنه (ونحن نشك في أن يكون الناصر جاداً في مثل هذه الأقوال، بسبب مناعة المهديّة المشهورة والتي لم يكن من الممكن أخذها إلا من البحر، ولأن بني حماد لم يكن لديهم أسطول حربي يذكر قبل عهد بجاية)، فإن ما قاله الناصر في مجالسه بلغ الى تميم بن المعز. ويقول المؤرخون إنه تحقق منه، بل وتحقق حتى

---

(6) يجدر بنا ان نذكر في هذا السياق أن أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين الذي سبحل محل الناصر بن علناس في زعامة المغرب، لم يبايع بالملك، إلا في سنة 462 هـ. إثر وفاة أبي بكر بن عمر بالصحراء.

من بعض تفاصيل الخطة التي عزيت الى الناصر بالهجوم على المهديّة. وكذلك تتحقّق ملك المهديّة من أنّ الناصر يذمه ويشتمه وينعته بالضعف، وإنه قد تحالف مع بعض عناصر زنّانة وبني هلال ليعينوه على محاصرة عاصمته ومعهله الوحيد .

وإثر ذلك، أرسل في طلب بني رياح، فلما حضروا اليه قال لهم: « أنتم تعلمون أنّ المهديّة حصن منيع في البحر ولا يقاتل منه في البر إلا من أربعة أبراج يحميها أربعون رجلاً . وإنما جمع الناصر هذه العساكر (للسير) اليكم وإلى بلادكم » . فقال أمراء العرب « إن الذي يقوله السلطان حق ونحبّ منه المعونة بالعدة » . فأعطاهم السلاح من الرماح والسيوف والدرق، كما أمر لهم بعشرة آلاف دينار، لكل أمير منهم ألف دينار .

ولما خرجت أمراء العرب من عنده، جمعوا أقوالهم وتحالفوا واتفقوا على الناصر ثم أنفذوا شيخين سرّاً الى بني هلال الذين كانوا مع الناصر(7) يقبّحون عندهم مساعدتهم للناصر بن علناس ويخوفونهم منه إن قوي، وإنه سيهلكهم بمن معه من صنهاجة وزنّانة . وذكرهم بغدر جده حماد لباديس وغدر من جاء بعده من بنيّه . « فإذا وطئ بلادنا بصنهاجة وزنّانة قاصداً تميم ابن المعز، وتميم في حصن منيع بالمهديّة، لا يقدر عليه . وعندما يملك بلاد افريقية يخرجنا وإياكم منها » (8) .

وأضاف العربان نصيحة الى إخوانهم قائلين إنه إنما يستمرّ لهم المقام والاستيلاء على البلاد « إذا اشتدّ الخلاف بين فرعي صنهاجة وضعف سلطانهم » .

وقد فهم مشايخ بني هلال في المغرب الأوسط هذا المنطق البسيط الذي

(7) هي أثيج وبنو عدي . وأما القبائل المحالفة لتمام، فقد كانت رياح وزغبة وسلم .

(8) راجع النويري، ص 236 قارن الكامل، 31/10 .

فات عبقرية الناصر وابن عمه تميم، واعترفوا بوجاهة تحليل أبناء عمومتهم في افريقية للموقف، فقالوا: « والله لقد صدقتم! فإذا التقينا، فاجعلوا أول حملة تحملونها علينا، ونحن ننهزم بالناس ثم نرجع عليهم (على الناصر وجيشه). فإن ملكنا رقابهم، كان لنا من الغنيمة الثلث، ولكم الثلثان. » وقال الشيخان رضينا! » .

كان ذلك هو الطرف الأول في المؤامرة، وأما الطرف الآخر، فقد تم بين تميم وعناصر زناتة الموالية للناصر بن علناس والتي كان يتزعمها المعز بن عطية ابن ريري. وقد أرسل المعز رسالة الى رجاله شرح لهم نفس الخطة وكلفهم بالقيام بنفس الدور، فوعده أن ينهزموا في الوقت الملائم حيناً يلتحم القتال وتشتد المعركة .

ولما خرج الناصر بن علناس على رأس جيش متجهاً الى افريقية في سنة 457، كان من بين رجاله المقربين الذين ساروا في ركبه، المعز بن عطية، رئيس زناتة وشيوخ بني هلال. وعندما وصلوا الى سببية<sup>(9)</sup>، لقيتهم رياح وزغبة وسليم<sup>(10)</sup>، والتحمت المعركة: حلت رياح على بني هلال، فانهزموا، كما وقع الاتفاق، ثم هاجموا جيش الناصر غدراً. وكذلك فعلت زناتة. وكانت هزيمة الناصر منكراً، بحيث لم يسلم إلا في عشر من الفرسان، ونجا بفضل تدخل أخيه القاسم الذي أخذ العلم منه وتبعه العدو معتقداً أنه الناصر،

---

(9) في الكامل، غلطاً: سبته. وسببية، من أعمال القيروان، مدينة قديمة اشتهرت بكثرة المياه والبساتين وبجودة الزعفران في ارضها. ولكنها اشتهرت خصوصاً بزراعة الكتان. وهي غير سببية التي ذكرها ذو الرمة في قوله

نظرت بجرعاء السببية نظرة ضحى وسواد العين في الماء غامس

(10) والى سببية القيروان، ينتمي أبو عبدالله محمد بن إبراهيم السببي الفقيه والخطيب (قارن الكامل 31/10، والبكري، ص146، وابن حوقل، ص58، ومعجم البلدان، 186/3 وانظر الاقتباس الذي أورده FAGNAN من مناهج الفكر للوطواط، في EXTRAITS INEDITS .

فقتله . وبذلك ، فداه بنفسه .

ويروي ابن الأثير والنويري أن القتلى من صنهاجة وزناتة في هذه المعركة بلغ عددهم أربعة وعشرين ألفاً (10) .

وقد غنمت العرب جميع ما كان في معسكر الناصر من مال وسلاح وأدوات واقتسموا ذلك بينهم طبقاً للخطة المرسومة . وأما الطبول والبوقات والرايات ، فحملوها الى تمم لتكون حصته الرمزية في أسلاب ابن عمه (11) .

ولكن بقية من عزة النفس ، حلت الأخير على ردها اليهم معتذراً « وفي نفسه ما فيها من الحزن » نتيجة هذه المعركة ، التي كان هو المدبر الأول لخططها .

كانت نتيجة معركة سببية وبالأعلى على افريقية والمغرب الأوسط من عدة وجوه . كانت شراً لأن أسرة بني زيري قد انقسمت على نفسها واستنزفت قوتها في عراك دموي داخلي لم يكن له سبب سوى الأحقاد والضغائن الشخصية فعرضت بذلك ما بقي من افريقية ، كما عرضت مملكة القلعة للضربات القاصمة والأخيرة التي سيسدها العربان لحضارة بني زيري ، في الوقت الذي شجعت فيه النورماندين في صقلية لإعداد العدة للإجهاز على المهدية .

وكانت نتيجة سببية وبالأعلى على الناصر بن علناس بصفة خاصة ، لأنها جردته من القوة التي وزر جزءاً منها عن سلفه ، ولكن ، وبني هو بنفسه الجزء

---

(10) قارن الكامل 31/10 ، والنويري ، ص 237 ، والبيان 429/1 ، والعبر 173/6 .

(11) وقع مؤلف كتاب الاستبصار في اضطراب كبير في روايته لمعركة سببية ، إذ يقول « إن صاحب القلعة ، المنصور (كذا) بن حاد كان أشد شوكة من صاحب القيروان وأكثر جيشاً ، فخرج لنصرة ابن عمه وجيش جيشاً كبيراً فلقينه العرب بفحص سببية ، فكان يوماً عظيماً حتى هزم المنصور وقتل أخوه وأكثر صنهاجة » الاستبصار ، ص 129 .

الآخر بكثير من المشقة والتضحية. وها هو الآن مضطر لأن يسلم مدن التل، بل والقلعة نفسها، لعبث العربان ويضع نفسه تحت رحمة غرائزهم المخربة.

ومن ذا الذي يستطيع أن يتكهن بمصير ملك الناصر وأحفاده، لو لم تقع معركة سببية؟ من الذي يستطيع أن يحسب حساب النتائج الإيجابية التي سيجنيها من استمراره على سياسته البعيدة النظر التي تقوم على مجاملة المهديّة ومهادنة العربان وتدعيم القواعد التي تدين له بالولاء، مثل تونس و صفاقس؟

أغلب الظن أن نتيجة ذلك ستكون انتشار سلطان الناصر على افريقية والسيطرة على تيارات العربان التي أخذت تفقد كثيراً من شوكتها باتصالها بالمراكز الحضارية من جهة، وبانقسامها على نفسها، من جهة أخرى. وبذلك تزداد قوة الناصر ويضمن أحفاده أساساً لمقاومة فعالة لنفوذ الموحدّين من الغرب ولهجات النورمانديين من الشمال.

وأيا ما كان الأمر، فقد اتجه الناصر بعد معركة سببية التي تقرر فيها مصير أفريقية والمغرب الأوسط، الى قسنطينة ثم إلى القلعة التي ضربت عليها قبيلة بني رياح التي كانت تلاحقه حصاراً محكماً، ثم أخذوا يخربون بوادها، واستولوا على طينة والمسيلة، فهدسوها، وعطفوا على غيرها من المنازل والقرى والضيايع والمدن « فتركوها فاعا صفصفاً أفقر من بلاد الجين وأوحش من جوف العير، وغوروا المياه واحتطبوا الشجر وأظهروا في الأرض الفساد » (12).

وبعدما استقر الغبار في سببية، وأخذ كل من الطرفين يراجع قراراته ويحاسب نفسه على أخطائه، ظهرت بوادر تدل على جنوح كل منهما الى المهادنة والمسالمة. وبعدما بلغ الناصر حزن ابن عمه وأسفه لانتصار العرب، كلف وزيره أبا بكر باستخدام علاقاته الشخصية ببلاط المهديّة بقصد إعداد

---

(12) العير، 220-219/6.

جو ملائم لاستئناف العلاقات الدبلوماسية وإجراء مفاوضات الصلح مع تميم ابن المعز. فأرسل أبو بكر بن الفتوح من عنده رسلاً الى تميم يعتذر ويرغب في إصلاح ذات البين. وكما نتوقع، فقد وجد هذا المسعى صدى في نفس صاحب المهديّة، واستشار أصحابه في اختيار سفير يمثله، فاتفقوا على أن محمد بن البعبع الذي كان يتمتع بحظوة كبيرة لدى تميم، هو أصلح من يقوم لهذه المهمة<sup>(13)</sup>.

وكذلك جه تميم ابن البعبع الى بلاط القلعة مزوداً بتعليقات منه لاستعادة العلاقات مع ابن عمه الى مجراها العادي.

ولما وصل ابن البعبع الى قرية صيادي السمك الصغيرة (بجاية) تأمل موقعها وأدرك على الفور الأهمية التي بكتسيها وفكر في انه يصلح لإقامة مدينة ومرسى ودار لصناعة السفن.

ومضى ابن البعبع حتى وصل الى القلعة وأدخل على الناصر الذي كان معه وزيره أبو بكر، فسلمه رسالة تميم ثم قال له: لي وصية اليك وأحب أن تخلي المجلس (وكان يعرف ميول أبي الفتوح نحو تميم). فقال له الناصر: أنا لا أخفي على وزيرتي شيئاً. فقال ابن البعبع: بهذا أمرني الأمير فقام الوزير وانصرف. ولما خرج، قال سفير المهديّة للناصر: إن وزيرك مخامر عليك مع تميم وهو لا يخفي عنه من أمورك شيئاً. وتمام مشغول مع عبيده النصارى وقد طرح صنهاجة وتلكاتة وجميع القبائل. فوالله لو وصلت بعسكر الى المهديّة لما بت إلا فيها. وأنا أشير عليك بما تملك به المهديّة وغيرها من بلاد إفريقية. ثم أشار عليه ببناء بجاية واتخاذها عاصمة للملكه. ومضى، فعرض عليه أن ينتقل إليه بأهله ويدير دولته<sup>(14)</sup>.

(13) قارن التويري، ص 339 والكامل 31/1، والعبر 173/6.

(14) تعتبر رواية ابن الأثير عن سفارة ابن البعبع أوفى وأدق من غيرها (راجع تفاصيلها في الكامل، 33-32/10). وهي تتفق في خطوطها الرئيسية مع رواية ياقوت الحموي (راجع معجم البلدان، 495/1)، ومع رواية التويري (ص 338-339).

وعلى الرغم من ان الاتجاه الذي ينصح به ابن البعيع والذي لم تكن خطورته لتخفى على الناصر، يتناقض مع مهمته الأساسية ومع نيات العاهلين الصنهاجيين في إحلال الوثام محل الخصام، فقد أصغى اليه الملك الحمادي، واصطحب معه سفير المهديّة الى موقع بجاية، حيث رسم له ابن البعيع موقع المدينة والميناء ومكان القصر، وغير ذلك من المرافق، وسر الناصر بهذه البادرة وشكر صاحبها وأمر بالبدء فوراً في بناء المدينة.

ولكن أخبار الشروع في بناء عاصمة جديدة لبني حماد وقت وجود سفيره في بلاط الناصر، أثار شكوك تميم في نيات الناصر الذي يتهمه بأنه يريد منافسة المهديّة وأسطولها، وفي رسوله الذي يتوجس أن يكون له ضلع في القضية. ولكن الرسول أنكر لما سئل لدى عودته الى المهديّة، أن يكون له علم بهذه التطورات. وتطبيقاً لخطته، كتب ابن البعيع الى الناصر بقلق تميم لبناء بجاية وبمضمون الحديث الذي جرى بينه وبين الأمير بهذا الشأن.

وبعدما قرأ الناصر رسالة ابن البعيع، أوقف عليها وزيره أبا بكر الذي أظهر استحسانه لسلوك ابن البعيع وأثنى عليه، ولكنه مع ذلك مضى الى داره وكتب نسخة طبق الأصل من كتاب الرسول وحفظها، ثم بعث بنص رسالة ابن البعيع، وهي بخطه، الى تميم ومعها رسالة منه يشرح له فيها تطور الأمور من البداية الى النهاية.

ولما وصل كتاب أبي بكر الى تميم، وجد فيه ما يلقي ضوءاً ساطعاً على نشاط سفيره، فوضع منزله تحت حراسة مشددة.

وذاث يوم استدعاه لاستجوابه في الأمر بمحضر بعض أصدقاء السفير، ومن بينهم الشريف الفهري. ولما وصل ابن البعيع الى باب القصر، لقيه رجل يحمل اليه كتاباً من الناصر يأمره فيه بالحضور عنده. وبينما كان يأخذ الكتاب، خرج تميم بن المعز. ولما رآه ابن البعيع اضطرب وسقط الكتاب من

يده، وإذا بعنوانه: من الناصر بن علناس الى خليفه فلان .

قال تميم: من أين هذا الكتاب؟ ولكن الرسول التزم الصمت، فأخذه تميم وقرأه. وقال له ابن البعيع: العفو يا مولانا! فقال تميم: لا عفا الله عنك. وأمر به فقتل وأغرقت جثته .

وإثر هذه الحوادث، كان من الطبيعي أن تأخذ العلاقات بين القلعة والمهدية اتجاهاً غير الاتجاه الذي خطط لها. وبدلاً من الوثام والصلح، عاد الطرفان الى سابق عهدهما وسادت بينهما من جديد روح المنافسة والتشكك وأخذ كل منهما في إعداد العدة للهجوم أو للدفاع. وكذلك استعاد تميم الى حكمه تونس والقيروان وطرد منها ولاية الناصر، ابن خراسان وابن ميمون على التوالي، في سنة 458 .

وبعد ذلك بسنتين، وكانت آثار سببية على قوة الناصر قد زالت الآن جزئياً، كر الناصر بن علناس على الأربس واستعادها، ثم استولى من جديد على مدينة القيروان .

ولكنه في السنة التالية، عاد الملك الحمادي الى القلعة خوفاً من جموع العرب الذين اشتدت شوكتهم، كما يقول ابن عذارى<sup>(15)</sup> .

وهكذا استمرت العلاقات بين بلاطي صنهاجة تتأرجح بين المد والجزر سنوات أخرى، حتى حلت سنة 467، حينما وقعت معركة دموية بين رياح وزغبة، انتهت بانتصار بني رياح على أبناء عمومتهم وطردهم من افريقية الى المغرب الأوسط. وحينئذ وجد تميم نفسه محروماً حتى من المساعدة السلبية التي كان يلقاها من تطاحن العربان الغزاة، وأصبح الآن وجهاً لوجه أمام قبيلة بني رياح المنتشية بانتصاراتها .

---

(15) البيان، 339/1 .

ومن جهته، وجد الناصر نفسه أمام تضخم سيل هؤلاء الضيوف غير المرغوب فيهم بمقدم زغبة التي سرعان ما أصبحت سهول بونة موبوءة بهم، بينما كان بنو عمومته، معقل، يتوغلون تدريجياً من أطراف الصحراء الجنوبية الشرقية في اتجاه تطري.

وكذلك وجد تميم بن المعز والناصر بن علناس في نهاية الأمر، وبعد مضي ست عشرة سنة من تسلم كل منهما مقاليد الحكم في دولته، أن الوقت قد حان لدفن خصومة شقى أسرة بني زيري ومنافستها التي كانت مصدر ضعف لكلتا الدولتين وعجزهما عن مقاومة العربان الذين يتربصون الدوائر بينهما.

وفي سنة 470، توصل الفريقان الى اتفاق لا نعرف مضمونه ولكنه أعاد العلاقات بين الملكين الى مجراها الطبيعي. وقد تعزز هذا الاتفاق، بتزويج تميم الناصر بابنته بلارة التي زفها ومعهما هدية قيمتها 30000 دينار من الذهب، وفي رفقتها قوة عسكرية شرفية وعدد كبير من الحيوانات النادرة.

وقد أبى الناصر بن علناس، من جانبه، ألا يكون أقل إسرافاً وبذخاً من ابن عمه، فبعث اليه بمبلغ 30000 ألف دينار (صداقاً).

ولكن تميم اقتصر على تناول دينار رمزي واحد وأعاد الباقي الى الناصر. وقد نجح هذا الزواج نجاحاً نادر المثال، وبلغ من حب الناصر لبلارة انه بنى لها قصرأ في القلعة وقصرأ آخر في بجاية وسما كلا القصرين باسم هذه الأميرة الساحرة. وقد ولدت بلارة للناصر عدة أولاد، وفي مقدمتهم المنصور الذي سيتربع على عرش بجاية بعد أبيه.

## مراجع البحث

- ابن الاثير، الكامل في التاريخ، تحقيق ونشر G. J. Toremberg ، ليدن، 1891 (14 جزءاً).
- ابن خلدون (عبدالرحمن) كتاب العبر ، طبع بولاق 1807 (7 أجزاء).
- ابن الخطيب (لسان الدين)، أعمال الأعلام، طبع الدار البيضاء، 1964.
- ابن حوقا ، المسالك والممالك - تحقيق ونشر (B. G. A.) T. III De Goeje ، ليدن، 1876.
- ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار المغرب، طبع بيروت، 1950.
- الاستبصار في عجائب الأمصار، لمؤلف مغربي مجهول، نشر زغلول عبدالحميد، الاسكندرية، 1958.
- ابو عبيد البكري، كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، تحقيق De Slane ، الطبعة الثانية باريس 1965.
- النويري، نص مقتبس من نهاية الأرب، نشره وحققه مع ترجمة اسبانية: D. José Diaz-Martin de Cabrera Revista del Centro de Estudios Historicos de Grenada y su Reino, 1971, Tomo VII.
- الوطواط (محمد بن إبراهيم بن يحيى) مناهج الفكر ومناهج العبر (مخطوط محفوظ في مكتبة أكسفورد) تحت رقم 957.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق Wuctenfeld ليبزيغ، 1866.

**بيجليو غرافيا شاملة**

**عن دول بني زيري**

**في المضرب والأندلس**



### ابن الأثير ( عز الدين )

الكامل في التاريخ، تحقيق تورنبرج (Tornberg) ليدن 1867 (أعيد طبعه بالأوفست في بيروت في سنة 1965 في 12 جزءاً).

### الادريسي ( ابو عبدالله ) .

القارة الافريقية وجزيرة الأندلس (مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق).

تحقيق إسماعيل العربي، الجزائر، نشر ديوان المطبوعات الجامعية.

### إسماعيل العربي .

المدن المغربية في الأدب الجغرافي العربي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981 .

### إسماعيل العربي

دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980 .

### إسماعيل العربي

« عبد الجبار بن حديس الصقلي شاعر بني حماد »

في مجلة الاصاله، الجزائر، مارس / ابريل 1974/327-317

### إسماعيل العربي

« صنهاجة وكتامة وغيرها من قبائل البربر »

في مجلة الاصاله، الجزائر، سبتمبر 1973/141-160

### إسماعيل العربي

« العمران والنشاط الاقتصادي في عصر بني حماد »

مجلة الاصاله، الجزائر، مارس/إبريل 1974/331-363

### إسماعيل العربي

« سياسة الناصر بن علناس تجاه بلاط المهديّة »

### إسماعيل العربي .

دولة بني زيري ملوك غرناطة، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية  
الجزائرية، 1982 .

في مجلة الاصاله، الجزائر، 1974، مارس/إبريل 1974/19-30

### إسماعيل العربي

« بجاية العاصمة الثانية لبني حماد »

في مجلة الثقافة، الجزائر، ديسمبر، يناير 1973/23-38

### إسماعيل العربي

« بجاية من خلال النصوص الغربية »

في مجلة الاصاله، الجزائر، مارس 1974/71-83

### إسماعيل العربي

« القلعة عاصمة بني حماد الثانية »

في مجلة الاصاله، الجزائر، ديسمبر/يناير 1970/21-38

### باسي (روني)

مادة بولكين في دائرة المعارف الإسلامية ( الطبعة الأولى باسي (روني)

مادة باديس في دائرة المعارف الاسلامية ( الطبعة الأولى )

اماري ( ميخائيل )

المكتبة العربية الصقلية

( نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم ) ليبسيك ، 1857

بروكلمان ( كارل )

تاريخ الأدب العربي

جزء 1-3 عبدالحليم النجار - جزء 4-5 ترجمة رمضان عبدالنواب  
والسيد يعقوب بكر، برعاية اليونسكو العربية، القاهرة، نشر دار  
المعارف، 1974-1976 في خمسة أجزاء .

بروكلمان ( كارل )

تاريخ الشعوب الإسلامية .

ترجمة نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي بيروت، دار العلم للملايين،  
1968 .

ابن بسام ( أبو الحسن علي ) الشنتريني

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة .

تحقيق إحسان عباس، بيروت، الدار العربية للكتاب 1979 ثمانية  
مجلدات .

البغدادي ( اسماعيل باشا )

هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين استانبول، وكالة المعارف  
1951 في جزئين ( أعادت طبعه بالأفسيست مكتبة المثنى ببغداد )

البكري ( أبو عبيد بن عبدالعزيز )

كتاب المغرب في ذكر افريقية والمغرب .

تحقيق البارون دوسلان - مع ترجمة فرنسية . الجزائر 1911-1913  
(A Maisor neuve, Paris, 1965 أعادت طبعه بالأوفست  
بورويبه (رشيد)

« الفن المعماري الصنهاجي »  
في محله الثقافة ، الجزائر ، فبراير/مارس 1974/26-43  
بورويبه (رشيد) .

« أشير عاصمة بني زيري »  
في مجلة الثقافة ، الجزائر ، يناير/فبراير 1973/113-119  
بو عزيز (يحيى) .

« عناية عبر التاريخ »  
في الاصاله ، الجزائر ، يونيو/يوليو 1976/17-27  
بو عزيز (يحيى) .

« ملامح ( كذا ) عن قلعة بني حاد »  
في مجلة الثقافة ، الجزائر ، ديسمبر/يناير 1977/11-22 .  
التجاني (عبدالله)  
رحلة -

طبع وتقديم حسن حسني عبدالوهاب

المطبعة الرسمية ، تونس 1958

ابن تغري بردي ( جمال الدين )

النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة  
الجزء الأول والثاني نشر بتحقيق المستشرق الهولندي جوينبول في ليدن  
1855-1861 ، ونشرت بقية الأجزاء الأربعة بعناية المستشرق وليام پوير

في القاهرة خلال فترة 1915-1923

حاجي خليفة،

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ليبسيك ولندن،  
1835-1858 .

حسن ابراهيم حسن وطه شرف

المعز لدين الله، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية 1948

حسن ابراهيم حسن

عبدالله المهدي إمام الشيعة ومؤسس الدولة الفاطمية بالمغرب، القاهرة  
1933

حسن ابراهيم حسن

تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والديني القاهرة 1946 في ثلاثة أجزاء .

الحسن بن محمد الوزان ( المعروف (Léon l'Africain)،

Description de l'Afrique.

تحقيق وترجمة A. Epaulard باريس 1956 في جزئين .

ابن حزم ( محمد بن علي ) الأندلسي .

جهرة أنساب العرب، تحقيق عبدالسلام هارون القاهرة، دار المعارف،  
1962.

ابن حديد الصقلي .

ديوان

تحقيق إحسان عباس، بيروت، 10 صادر، 1960 .

ابن حوقل النصيبي .

صورة الأرض

بيروت ، دار الحياة ، بدون تاريخ .

**حسين بن محمد الدار بكري**

تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ( المعروف بتاريخ الخميس )  
القاهرة ، المطبعة الوهبية ، 1283 جزآن .

**ابن خلدون ( عبدالرحمن ) .**

تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب .

تحقيق البارون دوسلان ( مع ترجمة فرنسية ) الجزائر ، 1847-1852 .

**ابن خلدون ( عبدالرحمن )**

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، بولاق  
1284 ، سبعة أجزاء .

**ابن خلدون ( يحيى )**

بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبدالواد

تحقيق وتعليق عبدالحميد حاجيات

الجزائر ، المكتبة الوطنية ، 1980 .

**ابن خلكان ( شمس الدين أحمد )**

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان .

تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة 1968 من 8 أجزاء .

**ابن أبي دينار ( محمد بن القاسم )**

المؤنس في أخبار القيروان وتونس .

تحقيق محمد تمام ، تونس ، المكتبة العتيقة ، 1967

**دياب ( محمد )**

تاريخ العرب في اسبانيا ، القاهرة ، 1913 .

الدمشقي ( شمس الدين )

نخبة الدهر في عجائب البر والبحر .

تحقيق فراين ومهران . بطرسبورج ، 1866

الدرجيني ( أحمد بن سعيد ) .

طبقات للمشايخ بالمغرب ، تحقيق ابراهيم

طلال ، قسنطينة ، 1977 ، جزآن .

ابن أبي زرع ( محمد )

الأنيس المطرب في أخبار ملوك المغرب وتاريخ فاس ، مطبوع على

الحجر ، فاس 1305 هجرية

الزركلي ( خير الدين )

الأعلام ( قاموس التراجم ) بيروت ( الطبعة الثالثة ) 1969-11 جزءاً .

أبو زكريا ( يحيى بن أبي بكر )

سير الأئمة .

تحقيق إسماعيل العربي ، الجزائر

نشر المكتبة الوطنية الجزائرية ، 1980 ( طبعة أولى ) ودار الغرب الاسلامي

( طبعة ثانية )

الزهري ( محمد بن أبي بكر )

كتاب الجغرافيا

تحقيق محمد حاج صادق

دمشق 1968

سركيس ( يوسف إيلان )

معجم المطبوعات العربية والمعرية ، القاهرة مطبعة سركيس ، 1928

ابن سعيد ( علي بن موسى ) المغربي  
كتاب الجغرافيا .

تحقيق وتقديم اسماعيل العربي

بيروت ، المكتب التجاري ، 1970

السلوي ( أحمد بن خالد الناصري )  
الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى

الدار البيضاء ، دار الكتاب ، 1954 في 9 أجزاء .

ابن سوده ( عبدالسلام )  
دليل مؤرخ المغرب

تطوان ، دار الكتاب ، 1950

شميتس (M. Schmitz)

مادة باديس في دائرة المعارف الاسلامية ( الطبعة الأولى )

شكيب ارسلان ( الأمير )

الخلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، بيروت مكتبة  
الحياة - بدون تاريخ في 3 أجزاء .

الشماخي ( أحمد بن سعيد )  
كتاب السير ، طبع حجر ، قسنطينة ؟

الصباغ ( ليلي )

« عناية »

في الاصاله ، الجزائر ، يونيو ، يوليو 1976/65-82

صاعد ( بن أحمد - القاضي )

طبقات الأمم، تحقيق الأب لويس شيخو القاهرة 1912

صفي الدين ( عبدالمؤمن بن عبد الحق )

مراصد الإطلاع، تحقيق علي محمد البجاوي،

القاهرة، دار الكتب العربية، 1954، في 3 أجزاء .

صلاح الدين ( بن أبيك ) الصفدي

كتاب الوافي بالوفيات، تحقيق هلموت ريتز فيسبادن دار فرانز شتاير

1961

عباس ( إحسان )

« مصادر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد »

في الاصاله، الجزائر، أوت/سبتمبر 82-65/1978

عبدالرحمن ( الحيلالي )

تاريخ الجزائر العام، الجزائر 1971 في 3 أجزاء .

عبدالحليم عويص

« دولة بني حاد »

في الاصاله، الجزائر، يوليو/أغسطس 309-303/1973

عبدالله عنان ( محمد )

دول الطوائف، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1960

عبدالله عنان ( محمد )

« مدرسة بجاية الأندلسية وأثرها في إحياء العلوم بالمغرب الأوسط، في

الاصالة، الجزائر، مارس/ابريل 199-193/1973

العبدري ( محمد )

الرحلة المغربية

تحقيق أحمد بن جدو، الجزائر، نشر كلية الآداب الجزائرية (رقم 1  
بدون تاريخ، ) طبعة أخرى بتحقيق محمد الفاسي، الرباط، 1968.

**عبدالوهاب (حسن حسني)**

خلاصة تاريخ تونس، تونس 1373 هجرية عثمان الكعاك .

موجز التاريخ العام للجزائر، تونس 1923 .

**ابن عذارى (المراكشي)**

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب .

تحقيق إ. ليفي بروفنسال وس. كولان

بيروت، دار الثقافة، بدون تاريخ، 4 أجزاء .

**أبو العرب (محمد)**

طبقات علماء افريقية

تقديم وتحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي، تونس، الدار التونسية،  
1968 .

**العماد الأصفهاني .**

خريدة القصر وخريدة العصر

تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبدالعظيم .

القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر

جزآن: الأول بدون تاريخ، والثاني في 1964

**ابن العماد (عبدالحى) الحنبلي**

شذرات الذهب في أخبار من ذهب

بيروت، مركز الموسوعات العالمية، بدون تاريخ، ثمانية أجزاء .

**العمري ( ابن فضل الله )**

مسالك الأبصار وممالك الأمصار .

مخطوط في عدة أجزاء، محفوظ في مكتبة البودليان (اكسفورد) تحت  
رقم 900 .

**الغبريني ( ابو العباس )**

عنوان الدراية فيمن عرف في المائة السابع بيجاية تقديم عادل نويهض)،  
بيروت لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1969.

**أبو الفدا ( الملك الصالح )**

المختصر في أخبار البشر

بيروت، دار المعرفة، بدون تاريخ، أربعة أجزاء .

**أبو الفدا ( الملك الصالح )**

تقوم البلدان، تحقيق رينو ودوسلان، وترجمة رينو وسانت جويار،  
باريس 1848 في 3 مجلدات .

**القزويني ( زكريا بن محمد )**

آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، 1969 .

**القلقشندي ( أبو العباس أحمد )**

**صبح الأعشى في صناعة الإنشا**

القاهرة، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، بدون تاريخ،  
14 جزءاً .

**ابن قنفذ القسنطيني .**

كتاب الوفيات، تحقيق عادل نويهض، بيروت 1963

الكتبي ( ابن شاکر )

فوات الوفيات ( جعله ذيلاً لوفيات الأعيان لابن خلكان ) بولاق 1283  
وبولاق 1299 في جزئين .

كحالة ( عمر رضا )

معجم المؤلفين ، دمشق ، في 15 جزءاً .

لسان الدين بن الخطيب .

أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام .

تحقيق أحمد مختار العبادي وإبراهيم الكتاني .

الدار البيضاء ، دار الكتاب ، 1964 .

لقبال موسى .

كتامة ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1980

لومبار ( مورييس )

الإسلام في مجده الأول .

ترجمة وتعليق اسماعيل العربي ، الجزائر

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1979 .

للؤلؤي ( محمد بن ابراهيم )

تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تونس ، 1289 هـ .

ليفي بروفنسال

مادة بني زيري في الأندلس ، في دائرة المعارف الاسلامية ( الطبعة

الأولى )

مارسي ( جورج )

مادة بني زيري في المغرب في دائرة المعارف الاسلامية ( الطبعة الأولى )

## مبارك الميلي

تاريخ الجزائر العام في القديم والحديث، قسنطينة 1250 هـ . جزآن .

## متز آدم

الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ترجمة عبدالحادي أبو ريذة،  
بيروت دار الكتاب العربي، 1967 .

## المجدوف (عبدالعزیز)

الصراع المذهبي بإفريقية الى قيام الدولة الزيرية تونس - الدار التونسية  
للنشر . 1975 .

## مجلة المخطوطات العربية

العناية بالمخطوطات العربية وجمعها في افريقية التونسية - عدد 1 سنة  
90-72/1955

## مجهول

نبذة في تاريخ البربر (يقول ابن سودة انه مأخوذ من كتاب النبذة  
المحتاجة في أخبار ملوك صنهاجة لأبي الحسن علي بن حمادو، الرباط  
1934

## مجهول

كشف الغمة لأخبار الأمة  
تحقيق اسماعيل العربي، الجزائر، الشركة الوطنية الجزائرية للنشر والتوزيع .

## مجهول

كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار،  
تحقيق سعد زغلول عبدالحמיד، الاسكندرية 1958

## محمد كرد علي

الإسلام والحضارة العربية، القاهرة

لجنة التأليف والترجمة والنشر، في جزئين .

محمد بن عبد القادر ( الأمير )

تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبدالقادر، دمشق دار اليقظة  
العربية، 1964

المقدسي ( شمس الدين )

أحسن التقاسم في معرفة الأقاليم

تحقيق دوزي ودو خوية، ليدن، 1909

المراكشي ( عبدالواحد )

المعجب في أخبار المغرب .

تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي القاهرة، مطبعة الاستقامة،  
1949

المقري ( أحمد بن محمد ) .

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

تحقيق إحسان عباس، بيروت .

دار صادر 1968 .

المقريزي ( أحمد بن علي )

اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا

تحقيق جمال الدين الشيبال، القاهرة،

المجلس الأعلى للشئون الاسلامية، 1967 .

المكناسي ( أحمد )

خريطة المغرب الأركيولوجية

تطوان، 1961 .

نويهض (عادل)

معجم أعلام الجزائر، بيروت

المكتب التجاري، 1971

النوري (شهاب الدين)

نص مقتبس من كتاب نهاية الأرب، حققه وترجمه الى الأسبانية:

D. José Dias Martin de Cábena

في

Revistat de Centro de Estudios Historicos de Grenad y su  
Reimos. Num. 3, Ano 1917, T. VIII.

ياقوت الحموي

معجم البلدان، بيروت، دار صادر، بدون تاريخ في خمسة أجزاء.

ياقوت الحموي

إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (المعروف بمعجم الأدباء) تحقيق  
مرغليوث القاهرة، لجنة تذكّار جيب، 1916 في سبعة أجزاء

Amari (M)

Storia dei Musulmani di Sicilia, 2<sup>e</sup> éd. revue par C. A. Nallino,  
Catane, 1937 - 1939, 7 Vol.

Blachet et Saladin

Description des monuments de la Kalaa des Bani Hammad, Nou-  
velles Archives des Missions Scientifiques (T. XVII)

Berbrugger

Article sur les ruines de Achir in R.A., Vol. 13/116.

Bernard (A)

L'Afrique Septentrionale et Occidentale (T. XII de la géographie  
Universelle, Vidal - Lablanche) Paris, 1927

Bernard (A)

Les Capitales de la Berberie, Recueil de Mémoires et de textes,  
publié en l'honneur du 14<sup>e</sup> congrès des orientalistes, Alger, 1905

Beylie (De)

La Kalaa des Bani Hammad, une capitale Berbère de l'Afrique du  
Nord au XI<sup>e</sup> siècle Paris, Le Roux, 1909

Blancard (L)

Documents inédits sur le Commerce de Marseille au Moyen - Age  
Marseille, 1884 - 5, 2 vol.

Blanchet (P)

La Kalaa des Beni Hammad.

Recueil de la Société Archéologique de Constantine, 1898, pp. 97  
et suiv.

Bronschvig (R).

«Urbanisme médiéval et droit musulman».

in R. E. I, 1947, pp. 127 - 157.

Bronschvig (R)

La Berberie Orientale sous les Hafside des origines à la fin du  
XV<sup>e</sup> siècle, Paris, 1940, 2 vol

Bronschvig (R)

«Mesures de capacité de la Tunisie médiévale»

in R. A. 3<sup>e</sup> et 4<sup>e</sup> trim., 1935 pp 86 - 96

Bronschvig (R)

Fiqh fatimid et Histoire de l'afriqiya mélange G. Marcais, 11,  
Alger, 1957, pp. 13 - 20.

Bouyhya (chedly)

la vie littéraire en afriqya sous les Zirides, Tunis, S. T. D, 1972.

Cohen (M) et Leriche (A)

«Zenaga - Senhadja - Sénégal» Bulletin des Etudes Arabes, No.  
38/118 - 119.

Condé (A)

History of the Dominion of the Arabes in Spain.  
London.

Courtois (C)

Remarques sur le Commerce maritime en Afrique au XI<sup>e</sup> siecle.  
Mélange G. Marçais, II Alger, 1957 pp. 51 - 59.

Courtois (C)

«Grégoire VII et l'Afrique du Nord,  
(Remarques sur les communautés chrétiennes de l'Afrique au XI<sup>e</sup>  
siècle» une Revue Historique, Avril/ juin, 1945.  
PP. 97 - 122 - Juillet - Septembre 1945 PP. 193 - 226.

Cresswelle (K. A. C.)

Early Muslim Architecture, Oxford Clarnton, 1940

Déspoit (J)

Le Hodna, Paris  
Presses Universitaires de France, 1953

Dozy (R)

Recherches sur l'Histoire et la Littérature de l'Espagne au  
moyen - Age, Leyde, 1881 2 vol

Dozy (R)

Histoire des Musulmans d'Espagne Leide, 1861, 3 vol.

Dozy (R)

Scriptum Arabum Loci de Abbaditis (Historia Abbadidarum)  
Leyde, 1848, 3 Vol.

Feraud (L)

«Notes sur Bougie, Legendes et traditions» in R. A. Août, 1858,  
Vo. 12 Pp. 458 - 465 et No. 13 PP. 45 - 51.

Flury (S)

Islamische Schriftbänder  
Bâle, 1920.

Fournel (H)

Les Berberes, Paris, 1857 - 1875.  
2 Vol.

Gaudefroy - demombynes.

Massalik El - Absar لابن فضل الله العمري .

L'Afrique Moins l'Egypte texte traduit et annote, Par-Paris, 1927.  
( و النص العربي نشره حسن حسني عبدالوهاب في تونس )

Gautier (F)

Le Passé de l'Afrique du Nord Paris, Payot, 1942.

Genival (De)

«La Prétendue évêché de la Kalla des Bani Hammad»  
in Hesperis, T. X, 1932, P. 1-10.

Girault (P)

Essai sur l'architecture des Arabes des Mores en Espagne, en Sicile et  
en Berbérie, Paris, Haussen, 1841.

Gsell (St.)

Atlas archéologique.  
Alger, 1902-1911.

Golvin (L)

Le Maghreb Central à l'Epoque des zirides, Paris,  
Arts et Metiers Graphiques 1957.

Golvin (L)

Recherches Archéologiques à la Kalaa des Bani Hammad Paris,  
Maison neuve, 1965.

Golvin (L) et Louis (A)

Etude technique et sociale sur l'Artisanat tunisien,  
Bult. de l'institut de Belles lettres Arabes, Tunis, 1948

Gonzàlis Palencia (A)

Historia de l'Espana Musulmana Barcelona, 1925.

Heyd (W)

Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age, traduction de  
Furcy Reynaud Leipzig, 1936, 2 Vol.

Hitti (P. K)

History of the Arabs  
London, 1964.

Hopkins (J)

Medieval Muslim Government in Barbary until the 6 th Century of  
Hijra.  
London, 1958.

Huart (C)

Hisoire des Arabes, Paris, 1912.

Idris (H. R.)

«Essai sur la diffusion de l'acharisme en Afriqya» in cahiers de

tunisie, Publication de l'institut des H<sup>tes</sup> Etudes de tunisie, Tunis,  
2<sup>e</sup> trim., 1955.

Idris (H. R.)

«Contribution à l'Histoire de l'Afrique in Revue des Etudes islamiques,  
1935 Cahier 2.

Idris (H. R.)

«Fêtes Chrétiennes célébrées en ifriqya»  
in R. A., T. XCVIII, Nos., 440 - 441  
(3<sup>e</sup> et 4<sup>e</sup> trim) 1954

Idris (H. R.)

La Berberie Orientale sous les Zirides  
X<sup>e</sup> XII<sup>e</sup> siècles, Paris, Adrien-Maison neuve  
1962, 2 Vol

Julien (ch. André)

Histoire de l'Afrique du Nord, Paris, Payot, 1968, 2 Vol.

O'Leary (de Lacy)

A short History of the Fatimide Khalifat, London, 1923

Levi - Provençal

Documents inédits d'histoire Amohad, Paris, Geuthner, 1928.

Lombard (M)

Arsenaux et bois de marine dans la Méditerranée musulmane  
(VII<sup>e</sup> XI<sup>e</sup> siècles), Le navire et l'économie maritime du  
moyen - Age au XVIII<sup>e</sup> siècle  
Bib. Général de l'Ecole Pratique des H<sup>tes</sup>, études, VI<sup>e</sup> section,  
Paris, 1958 PP. 234 - 54

Lombard (M)

Une carte de bois dans la méditerranée orientale

Annales E. S. C., XIV, 1959 PP. 234 suiv.

Lombard (M)

L'islam dans sa première grandeur VIII<sup>e</sup> - XI<sup>e</sup> siècles, Paris

Flamarion, 1971.

Maquerse

«La Kalaa des Bani Hammad»

in R. A. 1886

Marçais (G)

«Achir» in R. A. 1922, Vol. 63 P 222

Marçais (G)

Manuel de l'Art musulman Paris, 1926 - 1927

2 Vol.

Marçais (G)

Les Arabes en Berberie du XI<sup>e</sup> au XIV<sup>e</sup> siècle in R. S. A. C. et

Constantine et Paris, 1913.

Marçais (G)

Les Poteries et Faïences de la Kalaa des Bani Hammad (XI<sup>e</sup> siècle) Constantine, 1913.

Marçais

L'Architecture musulmane d'Occident, Paris, Art et Métiers  
Graphiques 1955.

Marçais (G)

La Kalaa des Bani Hammad Recueil de Notices et Mémoires de la  
Sac. Arch. de Constantine, 1913.

Marçais (G)

Les Poteries et Faïences de Bougie, Constantine, 1913.

Marçais (W)

Un siècle de Recherches sur le Passé de l'Algérie musulmane, un  
Histoire et Historiens de l'Algérie, Paris, 1931

P. 163 et suiv.

Mélange Wiliam Marçais

Villes arabes disparues, Paris, 1950

P. 1 - 15

De Mas - Latrie

Traité de Paix et de Commerce concernant les Relations des  
Chrétiens avec Les Arabes de l'Afrique Septentrionale, Paris,  
Plon 1866

Mercier (E)

Histoire de l'Afrique Septentrionale Paris, 1888

Mercier (E)

Histoire des Etablissements des Arabes dans l'Afrique, Constantine  
1875

Mesnager (R. P.)

Le Christianisme en Afrique, déclin et extinction, 1951.

Massiera (P)

«M'sila du Xe au XVe siècle» in Bult. de Soc. Hist. et géog. de la  
région de Setif

Vol. II, 1941, PP. 183 - 215

Munck

Les Juifs d'Espagne, in J. A. 4/6/210

Pearson (T.D.)

Index islamicus (1906 - 1955)

A catalogue of articles on islamic subjects in periodicals and Publications.

Cambridge, 1961.

Pérès (H)

Glanes historiques sur les Mulouk at-tawaif et les Almoravides dans les «qala'id al - iqyan»

Mélange G. Marçais, II, PP. 147 - 152

Pérès (H)

La Poésie andalouse en arabe classique au XI<sup>e</sup> siècle

Paris, Maison neuve, 1955.

Pirenne (J),

Les Grands Courants de l'histoire universelle Newchatel, Ed. de la Baconnière, 1950. 2 Vol.

Permoud (R)

Histoire du commerce de Marseille tome I et II jusqu'en 1291

Paris, 1949 - 51

Planhol (Xavier de)

Le Monde islamique, essai de Géographie religieuse, Paris PUF, 1957

Planhol (Xavier de)

Les Fondements géographiques de l'histoire de l'islam, Paris

Flamarion, 1968

Pozmanski (S)

«Kalaât Hammad»

in R.E.J. tome 58, 1909, PP. 297 et suiv.

Quatremère (N)

Mémoire Historique sur la dynastie de khalifes fatimudes.

in J. A. 3<sup>e</sup> serie, Août 1836

Rice (D)

Studies in islamic metal work in B. S. O. A. S., XVII/2, 1955

PP. 206 - 231

Rizzitano (U)

«Ibn saraf al-Qayrawani la sua Rissalah al-intiqâd»

in Rivista degli studi orientali

Rome, 1956

PP. 51 - 72

Rodet

Menzeh Bent el-Sultân

in R. A., 1908

Rodet

Les Ruines d'Achir

in R. A., 1908.

Sauvagat (J)

Introduction à l'histoire de l'orient musulman, éléments de  
bibliographie

Paris , 1943

Schacht (J)

Bibliothèques et manuscrits abadites

in R. A. 1956, PP. 375 - 398.

Schaht (J)

The origins of Mohammadan jurisprudence  
Oxford, 1950

Seston (W)

Sur les derniers temps du Christianisme en Afrique  
(Mel. d'Archéologie et d'histoire, T. L. III, 1936

Solignac (M)

Recherches sur les installations hydroliques de Kairaouan et des  
steppes de VII<sup>e</sup> au XI<sup>e</sup> siècles. Publication de l'institut des Etudes  
orientales de la Faculté des lettres d'Alger, XIII, Alger, 1953.

Stern (S. M.)

«Three topographical notes»  
in Arabica, I, 1954  
PP. 343 - 345

Terrasse (H)

L'Art hispano - mauresque des origines jusqu'au XIII<sup>e</sup> siècles  
Paris, G. Van oest 1932

Le Tourneau

«La Révolte d'Abou Yazid au X<sup>e</sup> siecle»  
In Cahiers de Tunisie, 1953  
PP. 103 - 125

Tyan (E)

Histoire de l'organisation judiciaire en Pays de l'islam.  
Paris, 1938. 2 Vol

Wonderheyden (M)

La Berberie Orientale sous la dynastie des Banou l'arlab.

Paris, 1927

Zambaur (E)

Manuel de généalogie pour l'histoire de l'islam, Hanover, 1927

( ترجمه إلى العربية زكي محمد حسن بك - القاهرة، 1951 )

Zbiss (S. M.)

Le Ribat, institution militaro-religieuse, l'épigraphie dans les ribat des Soussé et monastir, Compte rendu de l'Académie des inscriptions, 1954. PP. 143 - 147

## الفهرس

### الصفحة

5	المقدمة
7	بنو زيري بين أشير والقيروان
28	القلعة عاصمة بني حماد الأولى
49	بجاية عاصمة بني حماد الثانية
67	بجاية من خلال النصوص الغربية
85	غرناطة عاصمة بني زيري
105	المهدية من بداية عهدها حتى سقوط الدولة الزيرية
135	دولة بني زيري
189	سياسة الناصر بن علناس تجاه بلاط المهدية
204	مراجع البحث
205	بيليوغرافيا عن دول بني زيري في المغرب والأندلس



✓

S ۲۰۰۰